"لن أنسى أبداً هذا الكتاب." ماريو بارجاس يوسا (جائزة نوبل)

@ketab_n
Follow Me

22.4.2016

جامع الكتب

جوستابو فابيرون باترياو

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

جوستابو فابيرون باترياو

جامع الكتب

رواية

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

Twitter: @ketab_n

جامع الكتب

Twitter: @ketab_n

جامع الكتب

جوستابو فابيرون باترياو
ترجمة: محمد عثمان خليفة

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع : 2016/1892
الترقيم الدولي: 978-977-319-252-5

الغلاف: آلاء هيكل
مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة
ت: 27921943 - 27954529 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

Copyright ©2010 by Gustavo Faverón Patriau
English translation copyright © 2014 by Joseph Mulligan
First Published in Spanish in 2010 as *El Anticuario* by Ediciones Peisa (Peru).
Published by arrangement with Grove Atlantic New York, NY, USA.

Translated from the English by Mohamed Osman KHALIFA.

Twitter: @ketab_n

بطاقة فهرسة

باترياو ، جوستابو فابيرون

جامع الكتب: رواية من بيرو/ تأليف جوستابو فابيرون باترياو ، ترجمة محمد عثمان خليفة . – القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، 2015 ،

ص ؛ سم . تدمك : 9789773192525

1- القصص البيروفية

أ- خليفة ، محمد عثمان (مترجم)

ب- العنوان 849.43

Twitter: @ketab_n

"كل مرة تعطِ لنفسك اسمًا، تعطي اسمًا لشخص آخر".

(برتلوت بريشت)

"كيف لي أن أتحدث عن الحب.. عن أعمدة مملكتك الرقيقة،

وأنا كقط يعيش في شجيرة تحاصرها المياه؟

كيف لي أن أبوح لك بذلك، شعرة بشعرة

سنًا بسن، ذيلاً بذيل

من دون حتى أن أسمي الجرذ؟"

(أنطونيو سيسنيروس)

Twitter: @ketab_n

إلى كارولين.. كعهدي دومًا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تمهيد

تقول زوجة "كونراد ليكوستينيس"، وقد كانت أجنبية، إن نساء بلادها اعتدن أن يضعن البيض كالدجاج. قتلها "كونراد"، ووجد على فراش موتها بيضة صفراء، وشاهد من خلال شق في قشرتها وجه مخلوق نائم يشبهه تمامًا.. وُلد "راميريدوس" من "كامبراي" من دجاجة عذراء فقتلوه: العام 1076.. وعظ "غيراردينو سيغاريللي" الرجال الحكماء في الحظيرة فقتلوه: العام 1300.. نجح "فرا دولسينو" في مضاعفة أعداد الدجاج والديوك فقتلوه: العام 1307.. وهذا ما سمعته: دفع "جان هوس" "بيتر" إلى الغناء ثلاث مرات فقتلوه: العام 1415.. مزَّق "جاكوب هتر" أحشاء تلاميذه فقتلوه: العام 1536.. روت "آن أسكيو" عطش دجاجاتها بدمائها فقتلوها: العام 1540. هذا ما كنت أسمعه منذ زمن لم أعد أحسبه. أفتح عينيَّ وأغلقهما ثم أفتحهما مجددًا. لا أعلم إن كانت قد مرت دقائق أم ساعات أم أسابيع، لكنني في العتمة كما في الضياء أسمع القائمة نفسها وهي تتكشف لي. تم نتف ريش "نيكولاس ريدلاي" لكونه ملك اليهود فقتلوه: العام 1558.. سمي "برناردينو كونتي" طفلته الأولى "ماغدالين" فقتلوه: العام 1560.. ومن حين لآخر، يتلعثم ذاك الصوت الأجش ويتوقف، فأفتح عينيَّ مجددًا لأرى الغرفة التي أنا فيها: في بعض الأوقات ألحظ أن الليل قد حل، أو ربما هو الفجر يطلع، وحينها أدرك أنني في مستشفى. وأستمع: أسس "دييغو لوبيز" كنيسته على شكل صقر منحوت في الصخر فقتلوه: العام 1583.. أنام، وفي أحلامي أدرك أنني في مستشفى آخر، أكبر وأشد صخبًا. وأدرك أن ذاك الصوت الذي أسمعه هو صوتي. وجهي محاط بالأربطة: تضغط على أنفي وأذنيَّ وأجفاني. لهذا إذن كان صعبًا عليَّ أن أنظر إلى أي شيء بالخارج.

Twitter: @ketab_n

ولكنني أنظر على الرغم من هذا. وبينما أنظر، لحظة أن تصل نظراتي إلى أبعد من تلك الأربطة الطبية، أشعر وكأنها تتساقط عن وجهي وكأنها ذبلت: صدفة تفصل العالم الخارجي عن الداخل، وتميز الواقع عن الحلم عن الذاكرة. ولكني في تلك اللحظات الأولى أعجز عن التمييز بين أي شيء. ولا أدري، كما هو حالي الآن، كم مر علي وأنا راقد في هذا الفراش، ولا أعرف حتى سبب وجودي في هذه المستشفى. تمر الأيام وتتضح الأشياء: هناك أطباء وممرضات يعتنون بي، على أن أحدًا لا يأتي لزيارتي من الخارج: ماتت زوجتي منذ سنوات مضت. هل كان هذا في هذه المستشفى أم في غيره؟ لا أدري. ما أعرفه هو أن "غيوردانو برونو" اخترع نظامًا يتيح تذكر أي شيء باستخدام ريش أحد الجناحين فقتلوه: العام 1601.. ومن بين من يفحصني من الأطباء، طبيب مبتسم، فيما يبدو، أما البقية فلا يظهرون مشاعرهم، وكأنهم يرتدون أقنعة خزفية. منذ أيام، طلبت منه ورقًا وقلمًا، فأمر بدوره ممرضة أن تأتيني بكراسة وأقلام رصاص، وبعدما أمضيت ثلاثة أيام "أشخبط" في صفحاتها الأخيرة، قررت هذا الصباح أخيرًا أن أكتب.. "بارثولوميو لاغاتي" قمع العوام من الناس فقتلوه: العام 1611.. دونت هذا السطر الأول: "إنها قصة قديمة، بدأت بالنسبة لغيري منذ قرون، وبالنسبة لي منذ ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين عامًا مضت". شطبت على تلك العبارة وكتبت غيرها: "مضت ثلاث سنوات على الليلة التي قتل فيها "دانيال" خطيبته "جوليانا"، وعبر الهاتف بدا صوته مختلفًا..."، هذا لأني لا أريد أن أبدأ قصتي بمبالغة: لا أرغب في أن أحكي ما حدث منذ قرون. وإن حدث وأشرت إلى ما قبل تاريخ قصتي، فهذا لغرض واحد لا سواه؛ توخي الدقة. أما الآن فيكفي أن أقول أنه ذات صباح، منذ أربعة اسابيع "أنا متيقن الآن من هذا"، استيقظت في سكينة، وروتينية، ليس في هذا الفراش، ولكن في فراش منزلي، كما قد تتوقع، وكنت أصب لنفسي فنجانًا من القهوة عندما دق جرس التليفون.

Twitter: @ketab_n

الأول

مرت ثلاث سنوات على تلك الليلة التي قتل فيها "دانيال" "جوليانا"، وبدا صوته القادم عبر الهاتف كأنه صوت شخص آخر غيره. على أية حال، وكأن شيئًا لم يكن، اتصل بي ليدعوني إلى الغداء، كما لو أن الغداء معه لا يزال يعني الذهاب إلى مطعم تم اختياره بدون اهتمام، أو إلى غرفة المعيشة في منزل أبويه، حيث اعتدنا أن نمضي الوقت، محاطين بأرفف مزدحمة بالكتب والمخطوطات والمفكرات وحزم الورق المرصوصة في انتظام، وآلاف من أجزاء الكتب كهرمانية اللون، بأغلفتها الجلدية اللامعة، وأغطيتها الورقية التي علاها الغبار. كما لو أن زيارته لا تزال تعني، كما في الماضي، صعود ذلك السلم الحلزوني المصنوع من الحديد وصولاً إلى غرفة النوم الملحقة بالمكتبة، والتي اعتاد "دانيال" أن يقضي فيها يومه كاملاً، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، يحاول فك شفرة ملاحظات هامشية دونت في مجلدات لم يعد أحد يقرؤها، ويتناول إفطاره وغدائه مرتديًا بيجامته، ممددًا ساقيه فوق المكتب، وبيسراه عدسة مكبرة، وعلى وجهه علامات اندهاش كبيرة. آنذاك، لم يكن من اللازم دخول ذاك المكان

Twitter: @ketab_n

الآخر.. ذاك المكان المرعب، حيث كانوا يحتجزونه، أو حيث كان بالأحرى يحتجز نفسه هربًا من سجن أكبر.

كان "دانيال" أقرب الأصدقاء إليَّ منذ أيام الجامعة. لم ننفصل عن بعضنا خلال تلك السنوات البعيدة، وقت أن تقرر مصير حياتنا العملية، حتى وإن لم نكن واعيين لتلك الحقيقة وقتها، ومعها تقرير مصير حياتنا كلها: اخترت علم النفس، وتخصصت فيما بعد في علم نفس اللغة، وما إن أنهيت دراستي في ذلك القسم حتى تزوجت زميلة لي ذات جمال لا يقاوم، ولكنها سرعان ما أصبحت مريضة وتوفيت بعد ذلك بعامين، وتركتني وحدي في منزل غريب، بصحبة مجموعة من رسائل المحبين الذين منحوها من العواطف ما يفوق ما منحته أنا لها؛ أنا الذي لم تعد لدي أي قدرة على بناء علاقة أخرى ستنتهي سريعًا بسبب عدم القدرة على التواصل، أوبسبب التجاهل. أمّا "دانيال"، الذي نأى بنفسه عن تلك الارتباطات البشرية، فسرعان ما استغرقته دراسة التاريخ، والكتب: فسرعان ما غرق في عالم القرّاء الذين ينتهون من قراءة أمهات الكتب، ويمضوا حياتهم منغمسين في غرف الأرشيف وبين طيات فهارس الكتب التي يصل عمرها لمائة عام، أو في اجتماعات مع مهربي الكتب. والباحثين الذين يشترون مكتبات بأكملها من أرامل أعز أصدقائهم، ويدفعون فيها المبالغ الخيالية، وهم في بحث دائم عن ذلك المجلد الحلم، والذي ما إن يمتلكوه حتى يفضوا عذريته بمقص أو شفرة داخل وكر غامض معتم مجهول.

كان "دانيال" أصغر منهم جميعًا، وهم كانوا في في عمر أبويه أو أجداده، ولكنهم كانوا يتعاملون معه وكأنه دليل قديم إلى رحلة مجهولة، انخرطوا فيها من دون تخطيط، أو من دون حظ، أو ربما بقصد ودهاء،

Twitter: @ketab_n

وهم يخفون عن بعضهم غايات لا يجرؤ واحد منهم على الاعتراف بها. أحدهم كان "جالفيز"، وهو محامٍ سلِّم متقاعد، قسَّم وقته ولسنوات عديدة ما بين دراسة علم الطيور وصيد الطبعات الأولى من الكتب القديمة، والمحفوظات الكنسية. كان روحًا منفردة واستبدادية لا تطيع سوى هواها، ولكنه كان يستمع لـ"دانيال" وابنته والتي كانت رفيقته الوحيدة في المنزل. والآخر "ميرو" الأحدب، والذي كان مالكًا لجريدة محافظة، وهو أرستقراطي الطباع، يتقيد بالعبارات المحسوبة والإتيكيت المُتكلِّف، ويميزه صوت حاد يبدو وكأنه صادر من أنفه أو هارب من تلك الثنايا الجلدية التي تغطي رقبته، وسرعان ما يتبدد ذلك الصوت في الهواء قبل أن يصل إلى مسامع جليسه. والثالث "باستور"، قبطان بحري سابق، أكبر سنًا من "دانيال"، ولكنه أصغر من الباقين، والذي تقاعد من البحرية منذ سنوات حتى يتجنب نقله إلى (المنطقة الحمراء) – وهي مكان يتم إرسال الظباط الذين لم تعد لهم حاجة إليها، وهي منطقة تبدو لنا بعيدة الآن، ولكن كان الظباط يعتبرونها لعنة مميتة، وإن لم تكن كذلك فهي حكم بالرعب الأزلي. يتحرك "باستور" في مسارات شبه دائرية حين يمشي، ويرسم بأصابعه الممدودة أشكالاً دائرية في الهواء وهو يتكلم، أي حينما يخرج منه ذلك الصوت الأنيني الهزيل المتموج، وكأنه تدفق حبر سمك الحبار، لينهي به أي خلاف في الرأي بينه وبين الآخرين على موضوع لم يعد يرغب في الإستمرار بمناقشته. لم أكن يومًا على صلة قوية بهم، ولكن علاقتي بـ"دانيال" كانت تزيد من مرات التقائي بهم. جمعت بيننا صداقة سطحية وحوارات مقتضبة، فيما عدا "ميرو"، الذي تعاملت معه مرات أكثر، لأن أحد أولاد إخوته كان مريضًا لديَّ منذ سنوات، حيث كان مُصابًا بمرض بالتوحد.

Twitter: @ketab_n

كان أربعتهم "دانيال" و"ميرو" في البداية، ثم "باستور" و"جالفيز"، يجتمعون كل أسبوع، وكان هذا في البداية بدون تحديد موعد معين، بسبب انبهارهما بمكتبة الكتب والتي شعروا فيما بعد أنها تستحق احترامهم. وسرعان ما انتظموا على اللقاء هناك، وانتهى بهم المطاف حقيقةً أو مجازاً، كما اعتاد "دانيال" أن يسخر، مساهمين في عملية توسعتها وتحويلها إلى متجر للمقتنيات المطبوعة، والنقوش، ورسومات الفحم، ولوحات زيتية تعود إلى القرن التاسع عشر، ووثائق من عهد الاستعمار، ومن زمن التحرر، والجمهورية الأولى، كانوا يأتون بها ويبيعونها، أو – كما علق البعض – يختلسونها من الكنائس الريفية المتواضعة المجهولة، أو يشترونها من مدينين فقراء يجهلون حقيقة أن بين أيديهم تكمن جواهر مختبئة وسط تلال الورق والكتب التي خلفها أب أو جد وراءه قبل أن يستقر به المقام في مقبرته، وهي جواهر سعى وراءها "دانيال" أو "باستور" أو "جالفيز" أو "ميرو"، أو ربما جميعهم، لسنوات. ومعًا، أضحى أربعتهم الأصحاب الرئيسيين للمكتبة، وتغلبوا شيئًا فشيئًا على تأثير مالكها الأصلي، إلى أن أبعدوه تمامًا عنها. وهكذا كان كل واحد منهم يجلب إلى المكتبة ما يراه إضافة ثرية إلى مجموعته، وبنهاية هذه الرحلة لم يجدوا صعوبة في أن يمنحوا تلك المكتبة الجديدة اسمًا يثير الفضول، هو نفس الاسم الذي أطلقوه على شلتهم منذ اجتماعها: "الدائرة".

لطالما أغراني الإنضمام ولطالما إلى تلك الشلة المغرمة بالكتب، ولكنني لم أفعل: فلقد كنت دومًا، وقتذاك، قارئًا عمليًا، أعجب أحيانًا بما يكتشفونه وبحماس وشغف "دانيال"، والذي كنت مقربًا منه منذ نهاية فترة الصبا وعلى مدار عقدين من الزمان أمضاها في بناء مكتبته

Twitter: @ketab_n

الأسطورية التي تحدث عنها كل من يتعامل في الكتب وكل مفكر وأديب وكل أستاذ جامعة، وبطريقة كانت هي بداية ذلك الغموض الذي غلَّف الأمر كله. الحقيقة، أننا بقينا على ذاك الارتباط حتى جاء صباح علمت فيه من عناوين الصحف التي طالعتها عند كشك في منتصف المدينة – وكان هذا منذ ثلاث سنوات مضت – أن "دانيال" قتل "جوليانا"، خطيبته، بست وثلاثين طعنة، بدافع الغيرة في الغالب. لم أعرف منه أنه حاول حرق الجثة، وأنه وضعها في شنطة سيارته وتركها هناك لساعات. وأنه قاد سيارته من الشاطئ وحتى المدينة، عائدًا من منزل أبويه (حيث يعيشان للآن)، والجثة الممزقة قابعة في مؤخرة السيارة. حاول أن ينتحر بطلقة في الرأس، ولكنه فشل. أراد القدر لتلك الرصاصة بالذات، والتي جاء بها من أحد الأدراج في منزله، أن تعلق في ماسورة المسدس، لتتيح الفرصة لأبيه كي يهرع إلى ابنه وينقذ حياته بلطمة على مؤخرة رأسه. لم أره طيلة تلك الأيام. هزمني إحساس بالعبث وبالذنب لا مبرر له، فلم أجرؤ على حضور جلسات المحاكمة أو أن أزوره في السجن؛ ولم أتحدث مع أبويه؛ ولم أمتلك شجاعة أن أقصد عنبر المختلين عقليًا، الذي لا يبعد سوى خمس بنايات عن شقتي، حيث أمر القاضي باحتجازه فيه، مُصْدِرًا حكمه عليه بالجنون ليبقيه بعيدًا عن السجن في مقابل رشوة تحدثت عنها المدينة، أو نصف المدينة، بكل يقين؛ بنفس اليقين الذي تحدثت به عن الدافع وراء تلك الجريمة: الخيانة، الاستغلال، جريمة ملتبسة وقعت بين مجموعة من مهربي الآثار: كلها أكاذيب.

لم أسمع صوته ثانيةً، إلا منذ بضع ساعات، حينما دعاني إلى تناول الغداء معه في تلك الظهيرة، ولبيت دعوته، من دون أن أجد وقتًا لأختلق أي

Twitter: @ketab_n

عذر، وأخبرته أنني سأحضر إليه. كان صعبًا عليَّ أن أتخيل، في ذلك الحين، أن محاورتي مع "دانيال" ستكون ملغمة بالألغاز، وسيخيم عليها صمت دفعني – لأجل أن أبدده – لأن أتحول إلى محقق بين ليلة وضحاها، وأن أجوب الشوارع مطاردًا الأطياف، وأن أغوص في بئر الذكريات السحيقة، وأن أسعى، خلال متاهات العقل، وراء وجه متلون لشبحين أو ثلاثة أشباح: فتت "إدوارد وايتمان" جسد المسيح ليلقيه للطيور فقتلوه: عام 1612. "جابرييل مالاجريدا" طرد التجار من ساحة الدار فقتلوه: عام 1761.

Twitter: @ketab_n

الثاني

تمايلت الأشجار التي تملأ الشارع على إيقاع الرياح، وأطرافها ممتدة فوق المارّة والسيارات كالمتسولين الذين يمدون أذرعتهم أمامهم. وعند باب المستشفى تجلس فتاة عمياء لها يدين نحيفتين، ترتدي تنورة وردية، وتبيع الحلوى والمشروبات الغازية، وعلى مقربة منها وقفت عجوز تستند برأسها إلى كابينة الهاتف، و وكأنها تحاول أن تنصت إلى شخص ما يخبرها بسر. وعندما مررت بالباب، تسللت أصوات السيارات والطيور عبر الصالة الأمامية، ومعها بساط من نور حوَّل من بالداخل إلى كائنات أشبه بالطيف؛ كائنات نورانية ترتقي من الأرض وتصير أكثر شفافية كلما ارتفعت، إلى أن تشكل سحابة من الأجساد المنيرة في مستوى عينيَّ. انعكست أصداء وقع أقدامي من الجدران، وعبر الممر، وسط صف المقاعد الصغيرة، حيث يجلس أفراد عائلات المرضى، وكذلك من جاءوا طلبًا للعلاج. وعند المكتب في نهاية هذه الصالة الأمامية – وهو مكتب معدني ذو حواف صدئة، تغطيه مختلف أنواع النتائج والأجندات، وحافظات البطاقات، وكذلك الملفات الملونة – تجلس ممرضة وراء تل من الدفاتر يكاد يخفي وجهها كله عني؛ وجه

Twitter: @ketab_n

شاحب لمرضة كررت اسمي عدة مرات قبل أن تضع أوراقي في صندوق خشبي صغير ثم تقودني إلى حيث غرفة "دانيال".

مشيت عبر الباب الثالث الذي أغلق وحده ورائي. سمعت شخيرًا مجهدًا، ثم صرخة مذعورة، ثم سلسلة من الثرثرة أو السعال. لقد كنت هناك من قبل، منذ وقت مضى: أتذكر تلك الطرقة التي تشبه الثقب الأسود الذي لا نهاية، ولكنها في الحقيقة كانت عبارة عن نفق ذو إضاءة خافتة، سقفه منخفض، وأرضيته إسمنتيه لم يكتمل تشطيبها، وتميل بطريقة غريبة ناحية اليسار. وكلما سرت فيه شعرت وكأنه يضيق أكثر وأكثر، كان متموجًا كالثعبان. إن لم تخنّي ذاكرتي ففي نهايته بوابة كبيرة تؤدي إلى مفروشة بالحصى والرمال: مركز العنبر. كانت جميع الأبواب على الجانب الأيسر، وكانت بيضاء أو رمادية أو لها واجهات مميزة، وكأنما جاء كل باب من فترة زمنية مختلفة. أدرت عيني في الأبواب باحثًا عن الرقم "16". أمعنت النظر لبرهة فلم أعثر عليه، ولكنني وجدت إلى جوار الباب رقم 15 شخصًا، وقد صعب عليَّ أن أميز إن كان رجلاً أم امرأة: كان جسدًا مبهمًا، راقدًا على الأرض، ملتفًا في معطف منسوج من خيوط متسخة، وكانت عيناه مثبتتين على نقطة ما فوق الباب، الأمر الذي أعطاني إحساس أنه اكتشف شيئًا ما يطوف فوق الباب، ربما كرة كريستالية أو خريطة للمستقبل. حينما مررت بهذا الشخص، التفت إليَّ، وصدر عنه صوت متوتر غير مرتاح: "حتى الضوء يعيش هنا". كان صوت امرأة.

لم أتوقف، ولكنها كررت قولها على الرغم من ابتعادي عنها بمسافة: "حتى الضوء يعيش هنا". ثم قالت ثلاث كلمات ضغطت على حروفهم وكأن كل كلمة شفرة سر أكبر: "غريب، مذهل، عجيب". انعطفت يسارًا مرتين

Twitter: @ketab_n

أخريين قبل أن أصل إلى الباب رقم 16. شعاع من الغبار الأصفر والضوء يخرج من الباب الخشبي الموارب، بينما توجد رائحة كيروسين وفوسفور معلقة في الهواء. طرقت الباب بهدوء، فانفتح إلى الداخل لأجد أمامي على الأرض في وسط الغرفة رجلاً هزيل الجسد يجلس القرفصاء، يرتدي ملابس سوداء، ويحدق في نار الفرن أمامه، ويمسك بيده عود كبريت مطفي. لوَّح له بيديه مُرَحِبًا. عيناه صغيرتان مألوفتان، وحرق كبير، كستنائي اللون، على شكل صليب، على جبهته. قوَّس حاجبيه كما لو كان يقول لي: أجل، أنا أعرفك، "جوستابو"، أنا لم أنسك، ثم أشار بذقنه إلى الكرسي الوحيد في الغرفة، وجلس هو على الأرض، واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ممددًا ذراعيه وراء ظهره، ليسند جسده بكفيه على الأرض، ثم قال لي:

- لقد أصبحت أجيد الطهي، الغداء عليَّ.

جلست أنا على الكرسي، وظل هو على الأرض، ينظر إلي ثم إلى الفرن. كانت جدران الغرفة خضراء، بها سرير صغير، وترابيزة، ورف للكتب لا يحتوي على أي كتب، ولم تكن بالغرفة أي نوافذ أو مرايا. كانت الغرفة مُضاءة بلمبة زيت معلقة على الحائط الذي يواجه الباب، وكان وميضها يعكس ظلالاً على الحائط بسبب زجاج اللمبة غير النقي. قلت له:

- أعتذر لعدم حضوري في السابق.

كنت أنوي متابعة الكلام، ولكن الكلمات رفضت أن تتجاوز شفتيَّ. (على الجانب الآخر كان وجه "جوليانا" حيًا في ذاكرتي، وجدته في الدخان المتصاعد من المصباح الصغير: عيناها السوداوان، وتلك التجعيدة الوحيدة

Twitter: @ketab_n

أسفل جفنيها؛ شفتها العليا الصغيرة المرتجفة، والتي تبدو مرتاحة فوق أختها السفلى الناعمة التي لا لون لها).

فتح "دانيال" علبة، وأفرغ ما فيها في مقلاة على البوتاجاز، فامتزجت رائحة الطعام المحمر مع بقية الروائح. قال لي:

- لا يوجد بالغرفة أية أكباس كهربائية، قاموا ذات يوم بتغطيتها كلها بدون سبب.

ابتسم فعاد يشبه ذلك الوجه الذي أتذكره، ثم أضاف:

- لا أصدق أنهم يفعلون كل هذا ليمنعوني من قتل نفسي. من هذا الذي يقتل نفسه بوضع شوكة داخل مفتاح كهربائي؟

قال هذا ثم ضحك، وبدت ضحكته كصرخة حادة.

في تلك الظهيرة تناولنا الطعام في صمت، بالكاد تكلمنا كلمة واحدة. كانت هناك سكين بلاستيكية وحيدة معوجة يستخدمها "دانييل" وتحدث صريرًا خافتًا في الطبق، وكنت أستخدمها حينما كان يدفع بها نحوي من حين لآخر، بينما امتزجت بقايا اللحم من طبقه مع تلك التي في طبقي. قال لي فجأة:

- لقد حدث شيءٌ ما.

وضع أحد الطبقين فوق الآخر، ومن فوقهما وضع الملعقتين والسكين والكوبين الورقيين، ثم أكمل:

- أريدك أن تساعدني، ولهذا طلبتك.

نهض عن الأرض بجهد، ولكن بسرعة، وهو يمد ساقيه مثل أوكورديون ينفتح، ثم سألني:

Twitter: @ketab_n

- هل ترغب في رؤية الساحة؟

اتجه نحو الباب بسرعة، وبخطى متثاقلة، وكان يحرك ذراعيه للأمام والخلف وكأنه تعلَّم المشي للتو ويحاول ألا يقع وهو يتحرك. غادر الغرفة فتبعته إلى الممر، وأنا أحاول اللحاق به، قال لي:

- نحن أربعون في هذا العنبر، كما أن هناك عنبرًا آخر مماثلاً لهذا تمامًا، ولكنه منفصل عنه: عنبران، وساحتان، وممران.

ضحكة مبحوحة أخرى، قبل أن يعقب:

- كان من المفترض أن أكون في العنبر الآخر؛ عنبر المرضى الخطرين، ولكن أمي دفعت أموالاً طائلة للمستشفى حتى يسمحوا لي بأن أمكث هنا.

انعطفنا يسارًا، ثم يسارًا آخر، وعند نهاية المنعطف الثاني وصلنا إلى أقصر امتداد للممر. وعلى أحد جوانب المدخل الذي يفضي إلى الساحة، وقف رجل يرتدي بدلة باهتة اللون، ربما هو طبيب، وقد وضع بين شفتيه سيجارة غير مشتعلة. سقطت أشعة الشمس الخافتة على قفاه. نظر الرجل إليَّ، ثم حدق في "دانيال"، وبعد لحظة كان يتمتم له:

- لا بأس، اهدأ، لا بأس.

بينما افترق عني صديقي متجهًا نحو الحمام:

- لحظة وأعود إليك.

ما إن أصبحنا وحدنا، حتى سألني الرجل عمّا إذا كان معي علبة كبريت، فوجدت نفسي أفتش جيوبي تلقائيًا قبل أن أخبره بأنني قد أقلعت عن التدخين منذ سنوات، فرد عليَّ بكلمات غير مفهومة. رأيت في ركن من أركان الساحة أربع نساء جالسات في شبه دائرة مع ممرضة تسألهن عن أمور

Twitter: @ketab_n

تافهة وتبالغ في إظهار اهتمامها وتجاوبها مع ردود تلك النسوة. وفي ركن آخر شاب برفقة عجوز، يقفان بجوار بعض، ومستغرقان في تأمل جذع شجرة عريض بلا أوراق. حدق الرجل ذو السيجارة باهتمام في جريدة مطوية يمسكها بأصابع يده المتسخة. على طرف الصفحة سلسلة أرقام مكتوبة بقلم رصاص. ثم سألني فجأة بدون أن يرفع عينيه عن الصفحة:

- أنت هنا إذن لزيارة "دانيال"؟

- هذا صحيح.

- أمر جيد.. الناس هنا بحاجة لذلك. ولكن مهما أتاهم من زائرين فإنهم يشعرون بالوحدة بداخلهم، ولكن لا بأس من التواصل مع العالم الخارجي.

استمعت إليه بصعوبة؛ كان صوته أجش ويبدو وكأنه يأتي من مكان بعيد، وكلماته تخرج من فمه وكأن شيئًا ما يكبلها. قال الرجل:

- شاهدت عبر السنين العديد من الناس ينغلقون على أنفسهم ويختارون وحدتهم الأبدية هذه فقط ليفقدوا ما تبقى من عقولهم في النهاية بسبب الحنين للماضي وكآبة الحجز. يستطيع هذا المكان أن يقتل أي أحد. وأنا لا أقصد المرضى وحدهم. فعنبر العلاج النفسي أقرب شيء صنعه البشر إلى الجحيم: دوائر علاجية وغرف مغلقة للميؤوس من شفائهم، سجن كبير أُعِد مخصوصًا لأولئك الذين يأتون إلى هنا وهم مسجونون في أنفسهم بالفعل.

بالكاد يجد ذلك الصوت غير المفهوم طريقه عبر شفتيه المضمومتين اللتين تقبضان على السيجارة غير المشتعلة. أخبرته أنه من الأفضل أن

Twitter: @ketab_n

يكون هنا في الداخل بدلًا من أن يهيم على وجهه كواحد من أولئك المجانين الذين نشاهدهم في جميع أنحاء المدينة. فقال:

- أتخيل أن الأمر كما تقول، رغم أنني أشعر أحيانًا أنهم في الخارج مُعرَضون لواقع الحياة، وأنهم لديهم فرصة أخيرة لمواجهة الواقع. فرصة لجعل الواقع ينتبه إليهم، حتى وإن لم يتمكنوا من رؤيته على حقيقته.

- هل تعتقد ذلك حقًا؟

لم يجبني، ولكنه أومأ برأسه علامة الإيجاب، ثم مد ذراعه ليفرد الجريدة ببطء. ثم قال:

- كل ما في الأمر هو أنني أظن أن هؤلاء يستحقون فرصة الانخراط في العالم، حتى وإن كانوا سيدمرونه. أمّا هنا فجميع جوانب سلوكهم التي يحكم عليها الأطباء والممرضون بأنّها غير طبيعية، فيتم كبتها، ومعاقبتهم عليها، وبالتالي فهم يختفون تدريجيًا، حتى ولو لم تختفِ عندهم العلة التي جاءت بهم إلى هنا من البداية. إن الجنون أبدي، ولكنه محبوس في أعماق عقلهم الباطن وراء كل علامات الألم والاضطراب. أتدري كيف يكون حالك حينما تحبس المرض بداخلك ويتم متعك من التعبير حتى عن أعراضه، لدرجة أنك تفقد القدرة على العيش في هدوء وسلام؟

لم أعقب.. بدا لي السؤال غير موجه لأي إنسان بعينه.. قلّب في الجريدة بسرعة ملحوظة، حتى وجد ما كان يبحث عنه، ثم قال:

- انظر إلى هذا الخبر، لقد اكتشفوا هذا مؤخرًا، في سان فرانسيسكو. منذ شهرين، قام ساحر بحبس نفسه في صندوق من الزجاج الواق، عمقه ستة أقدام، وارتفاعه ستة أقدام كذلك، وعرضه ثلاثة أقدام. طلب من

Twitter: @ketab_n

الناس تعليقه بكابل فولاذي، ليتدلى من جسر "جولدن جيت" فوق المحيط الهادئ، على مقربة من سجن "ألكاتراز". كان قد تعهد بأن يبقى بداخله لأربعة وأربعين يومًا، بدون طعام؛ فقط الماء وبعض الفيتامينات طيلة ستة أسابيع. وقد نجح. أخرجوه من الصندوق عند انقضاء المدة: كان جسده متورمًا وعقله على حافة الجنون، وأصابعه زرقاء، وعيناه ميتتان، وجلده يلتصق بعظامه، ووصل اضطرابه لدرجة أنه بقي غائبًا عن الوعي حتى اليوم الثالث أو الرابع في المستشفى، حينما أصبح قادرًا على استيعاب حقيقة أنه خاض التحدي ونجح في الإيفاء بكلمته. تحدثت الصحافة وبرامج التلفزيون عنه، وربما شاهدته أنت بنفسك. ولكن هذا الأسبوع شهد تغيرًا محيرًا في تلك الحكاية. فقبالة الجسر، عند المنحدر الغربي للخليج، يوجد حي اسمه "بريزيديو"، وهو مدينة عسكرية قديمة عبارة عن متاهة من المباني المتشابهة المبنية بالطوب الأحمر، والتي تم تحويلها منذ زمن بعيد إلى حي سكني مدني. وفي واحدة من تلك البنايات، التي تهب عليها باستمرار رياح المحيط الباردة، يوجد رجل يمتلك منزلاً مقسمًا إلى شقق ضيقة، ولكل منها حمامها الخاص، وهو يؤجرها لطلاب الجامعة أو عائلات المهاجرين غير القانونيين. وذات يوم جاءت إليه امرأة ودفعت له أجرة ثلاثة أشهر مقدمًا، مقابل شقة تطل على الجسر والذي كان سيتم تعليق صندوق الساحر به. صاحب البيت لم يكن يعرفها من قبل، ولم يعرف عنها شيئًا من بعد، وبعد ثلاثة أشهر حاول أن يتصل بها تليفونيًا، ولكنه لم يصل إليها. وبعد أيام، وجد مفاتيح الشقة في صندوق البريد وأدرك أن هذا يعني أن المستأجرة قد رحلت. وذات صباح، ذهب إلى البيت ليقوم بتنظيف الشقة حتى يؤجرها مجددًا. وهناك، على الأرض

Twitter: @ketab_n

بجوار النافذة، وجد المرأة أسفل النافذة وعلى ظهرها غطاء، ويداها تمسكان بمنظار مُعظِّم – وعلى كرسي جوارها دفتر وفوقه قلمان أو ثلاثة – اكتشف أن المرأة العجوز كانت ميتة: جسد نحيل ليس له عضلات، والجلد شفَّافٌ، بينما ظهرت العروق في أذنيها حتى بدت كشبكة من الخيوط البنفسجية، وجثتها ممتلئة بالدم الفاسد، والرائحة بالطبع أكدت له أنّ جثة المرأة تتحلل. وأعتقد أنك قد أدركت بالفعل أنها لم تكن فعلاً امرأة عجوز: هي تلك التي استأجرت المكان في الأشهر الثلاثة الماضية. خضعت الواقعة لتحقيق رسمي. ووجد المحققون أغلب الإجابات في دفترها: فقد أخضعت تلك المرأة نفسها لنفس الاختبار الذي خاضه الساحر، وبدأت في نفس توقيت بدايته، بل وتخطت الفترة التي قضاها؛ حيث امتنعت عن تناول أي شيء لمدة ستة وأربعين يومًا، ودونت في تلك الصفحات إحساسها أثناء التجربة: الدُّوار، الهُزال، وتغير لون جلدها حيث أصابه ما يسمى بالتقزح اللوني[1]، وضربات قلبها العنيفة مع كل حركة تقوم بها، والإختناق المزمن الذي أصابها في آخر أيامها، ولسانها الذي التهمته القُرح والدمامل، والصوت الذي يصدر من مفاصلها كلما تحركت، وارتجاف جبينها وخديها، والكدمات على ذراعيها وساقيها، وأنين عمودها الفقري. كل شيء. كما أنها تركت تعليمات تتعلق بكيفية نشر كتاب عن العذاب الذي مرت به. عليك الآن أن تخبرني: هل كانت تلك

---

[1] هو ظاهرة فيزيائية وخاصية لبعض السطوح التي تظهر متغيرة اللون عند تغيير زاوية النظر إليها. وتظهر هذه الظاهرة جلية في فقاعة الصابون، وأجنحة الفراش، وصدف البحر.

Twitter: @ketab_n

المرأة مجنونة؟ أراهن على أنك ستقول إنّها كذلك. وربما أتفق معك. هل هذا يعني أنه كان يجب عليها أن تدرك جنونها هذا مبكرًا، أو أنه كان على شخص غيرها، أدرك جنونها مبكرًا، أن يبادر بحبسها في عنبر المجانين ليمنعها من الوصول إلى هذه النهاية البائسة المجنونة؟

هذه المرة، ركَّز الرجل أنظاره عليَّ منتظرًا مني الرد، فقلت له:

- أتخيل أنه لو كان سلوك المرأة سيُلمِّح إلى نهاية بهذا الشكل، فإن الأمر لم يكن ليصبح عبثيًا أن نحاول حمايتها من نفسها.

- معك حق؛ هكذا نفكر في الجنون، تمامًا كما نفكر بخطر الإبادة. خطر هجوم قادر على تدمير شخصٍ ما، سواء كان المريض أو أي شخص آخر قريبٌ منه. ومن بين جميع الأمراض التي كانوا يعتقدون في الماضي أنها مُعدية وتأكد اليوم أنها ليست كذلك، فإن الجنون والجُذام هما الوحيدان اللذان ظللنا نعتبرهما في خطورة الوباء: كما لو أن العيش وسط المجانين والتحدث إليهم قد يدفع المرء إلى الجنون بطريقة أو بأخرى.

طوى الرجل الصحيفة ووضعها تحت إبطه. ومن خلفنا، تفرقت تفرقت مجموعة من المرضى وحل محلهم رجلٌ مسن ضئيل الحجم بريء الوجه يجلس راكعًا بينما يُمسك بدفتر فارغ أمام عينيه، علَّق الرجل ساخرًا:

- إن الجنون مُعدٍ فقط في مكان كهذا. في الشارع، الرجال المجانين غير متوقعين، ويكون رد الفعل المشمئز المتعض طبيعي؛ أما هنا فإنهم معًا يفرضون قوة لا قبل لأحد بها، أشبه بالقصور الذاتي مع الجاذبية القادرة على اجتذاب وابتلاع كل شيء. وأيًا كان من يسوقه القدر إلى هنا سيتحول حتمًا إلى واحد منهم.

Twitter: @ketab_n

زيارتي ستساعد "دانيال" قبل أن يتحول لإنسان آخر تمامًا، ولكنه لا يزال يبدو كما هو لم يتغير.. ربما.

في تلك اللحظة عاد "دانيال" من الحمام، وهو يجفف يديه في سرواله. أخرج الرجل ذو السيجارة قلمًا لكتابة رقم آخر على هامش الصحيفة، ومستبدلاً كلمات الوداع بابتسامة. كان الفناء عبارة عن مساحة رباعية مكشوفة بها كراسي مرصوصة على جانبيها، وشجرتان خاليتان من الأوراق، وعند إحداهما جلست امرأة تأكل ببطء قطعة من الخبز، علق "دانيال":

- هي لا تتناول سوى الخبز. وأحيانًا يخيل لي أن كسرة الخبز نفسها لا تتغير.

- هنا؟

سألته وأنا أشير بيدي المدودة في اتجاه المقاعد. أسرع إليها، وانتظرني حتى أجلس ثم عاد مجددًا ليجلس على الأرض الممتلئة بالحصى والرمال. قلت له:

- يبدو لي هذا الطبيب شخصًا طيبًا. أليس كذلك؟ ولكنه يعطي انطباعًا بأنه يمر بأزمة مهنية.

- إنه ليس طبيبًا؛ على الأقل ليس بالمعنى الذي تفهمه. لقد كان أحد الأخصائيين النفسيين في هذا العنبر لسنوات عديدة، ولكن أتى عليه يوم قرر فيه أن يتقاعد وغادر، وما هو إلا أسبوع حتى عاود الظهور مجددًا ولكن هذه المرة ليقيم هنا، أحضر حقيبة ملابس كبيرة وكرتونة كتب. ومرت عليه الآن ست أو سبع سنوات وهو يقيم هنا في المستشفى. كان هنا عندما جئت. لا يتحدث سوى عن موضوع واحد لا يغيره، وأراهن أنه قد

Twitter: @ketab_n

تحدث معك فيه أيضًا. ما الشيء المربك في حوار عاقل مع شخص مجنون، أليس محاولة تبين إلى أن يأخذك ذلك الحوار؟ لا عليك، انسَ الأمر.هيا، دعنا نبدأ العمل. سأحكي لك اليوم مجموعة من الحكايات.

قال "دانيال" هذا، ثم أمسكني من ذراعي وهو يضحك ضحكته الشبيهة بالصرخة.

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

شابَّة صغيرة للغاية، أقرب إلى أن تكون فتاة، تفرُّ من منزلها إلى سفح الجبل، وطفلها مربوط على ظهرها، بقطعة قماش زاهية الألوان. تطاردهما روح زوجها الغيورة حتى الريف. ومن خلف تلك الروح مجموعة من الرجال المقنَّعين، يتعقبون رائحتها، حتى حاصروها عند مدخل قرية مهجورة. تبدَّدت صرخات الفتاة وسط ابتهاج الرجال، كانت تنظر بعينيها التي تشبهان نقطتان سوداوان لأعلى نحو أبعد غصن في شجرة لبخ، وظهرها يضغط بشدة على حافة حجر: المرأة المسكينة، التي تكاد تكون صبيَّة، ممدَّدة على مذبح، وطابور لا ينتهي من الغرباء يدخلون ثم يخرجون من جسدها. عجز آخر رجل عن دخولها، فاستل سكينًا من جيبه وقطع راحة يد الفتاة، يعلِّمها، يرسم شكلاً داميًا، أشبه بمنقار النورس، وفي الصباح، أصبحت شخصًا آخر، له اسمٌ آخر، أو أنّها الآن بلا اسم، ولم تعثر على ابنتها، كان صعبًا عليها حتى أن تتأكد من إن كانت لديها ابنة أم أنّها كانت تحلم بكل هذا، وانطلقت عبر أودية وتلال رمادية وصفراء، عبر قرى يراقبها أهلها في شك وريبة، وتسأل الجميع عن ابنتها الضائعة، وتصف لهم شكل ابنتها، أو كيف يجب أن تكون، إلى أن وصلت إلى بلدة أخبرها فيها أحدهم بأنه قد يعرف مكان ابنتها، ليقودها ذاك الشخص إلى مرج أخضر خفي وراء تل مغطى بالحشائش عبر جدول مياهه داكنة، ليسألها: "هل هي بين هؤلاء؟"، فتنظر الفتاة، التي تكاد تكون صبيَّة، في قاع الجدول لترى صفًا من الأطفال المتشابهين تمامًا، أعينهم

Twitter: @ketab_n

مفتوحة، وأفواههم كذلك، وأيديهم ممتدة إلى السماء. يغلق "جامع الكتب" الكتاب ويسكت للحظة.

Twitter: @ketab_n

الثالث

- هل تعرف أين "لا فيرداد"؟
- بالطبع سيدي، إنه عند شارع "سنتر"، أليس كذلك؟
- كم أجرة الذهاب إلى هناك؟
- ستة نويفو سول[2].

التقيت "دانيال" خلال فصلي الدراسي الأول في الجامعة، منذ زمن بعيد. كان شابًا نحيفًا وبليدًا، يجوب الممرات والساحات والفصول الدراسية بوجه خجول وعينين زائغتين، وقد ارتسم على وجهه تعبير أجوف، وكأنه يترقب بعدم اليقين السنوات التي كانت بانتظاره. ولعجزه عن تغيير ملامح وجهه، فقد ظن زملائنا بأنّه متعجرف ويحتقرهم. وقد تعلمت مع الوقت أن حالة غياب الذهن التي يمر بها، وكأنه قد خرج فجأة من الحاضر وانتقل في صمت بذاته إلى أماكن وأزمنة لا يسعْ غيره دخولها، لم تكن هذه الحالة انعكاسًا لغرور ولا هو – كما كنت أشك من قبل –

---

[2] عملة بيرو.

Twitter: @ketab_n

قناع من الخجل الذي لا يستطيع التخلص منه بل ويزداد مع مرور الوقت. كان شيءٌ آخر: يبدو أن "دانيال" يتقبل فكرة وعيه بأنه مختلف، ولكنه في نفس الوقت غير راضٍ عن كونه كذلك، وكأنما يتمسك بالشيء الوحيد الذي يحفظ له حياته وسط أمواج عاتية ستتسبب في غرق سفينته. ويعود هذا إلى حقيقة أن "دانيال" أثناء ممارسته لمهمة الحفاظ على روتين حياته اليومية هذا، لم يبذل أي جهد ليخفي معرفته بستار من الجهل بمن هم حوله، والسبب وراء هذا غير معلوم له، وغير مفهوم بالنسبة لي. وخلال المحاضرات، كان لا يتدخل إلا حينما يكون من الواضح أن لا أحد، لا الطلاب ولا الأساتذة، سيسعى إلى تقديم تفسير أو تحليل لمشكلة أو مسألة ما. أو كان يساهم في جدال ما مستخدمًا حجة قوية تبعده عن خطر فكرة التوسط. ولكنه كان يقوم بذلك بطريقة تجعل من سعة معرفته الفاضحة تعزيزًا لجدران قلعته النفسية التي خبأ فيها "دانيال" كل اختلافاته الأخرى.

لذلك السبب، ولأن أفكاري لا تزال كما كانت وقتذاك، ولا تزال الآن بعد قرابة العشرين عامًا، مشوشة مقارنةً بروعة فكر "دانيال"، فليس من السهل عليَّ أن أفسر سبب اختياره لي أنا من بين الجميع لأكون صديقه – لماذا سمح لي بدخول برجه العاجي مغلق النوافذ والأبواب الذي يسكنه ليكون حياته. في لحظة ما قرر أن يجلس إلى جواري في المحاضرة؛ ثم بدأ في ضبط توقيت وصوله ومغادرته بحيث يلتقيني عند باب القاعة، وفي طابور الكافيتريا، وخلال الاستراحة في تلك القاعة المستديرة ذات لون الحديد والتراب، وتشبه الأثر التاريخي الذي تم التنقيب فيها حديثًا: عالم

Twitter: @ketab_n

مصغر نلوذ به نحن طلاب قسم الأدب، وفي المنتصف توجد شجرة عجوز وضعيفة تجعل المكان يبدو وكأنه ميدان في محافظة ما. ومع مرور الوقت، بدأ يعيرني كتبه، وقرر أن يشرحها ويلخصها لي، أو أن يُسهب في التحدث عنهم، مقترحًا تفسيرات عبقرية أو سخيفة، وأحيانًا يستخدم تأويلات متطرفة مستخدمًا لهجة وكلمات معينة؛ وسواء أكان هذا تعبيرًا عن حكمته أو جنونه، فقد كان "دانيال" يستعرض بمعرفته الواسعة في المتنزهات أو على الأرصفة وكأنه دمية مفككة تحرك ذراعيها الشبيهين بأشكال مقوسة وبيضاوية، وترتعش عندما يمدهما أمامه مثل ذراعي قائد الأوركسترا. وكان يرتجل التفسيرات التي تشرح كتاب التحليل النفسي كما لو كان رواية مسلسلة أو حبكة قصة حب، ثم يحوله إلى سيرة قديس ما، أو إلى تاريخ القانون، أو إلى جدل في علم تفسير الظواهر الطبيعية، أو ربما (وقد كان ميالاً لهذا) الفكرة الرئيسية لأطروحة عن فن الحرب. ثم يبتسم "دانيال"، حينما يصل إلى استنتاج صعب، قبل أن ينظر بانزعاج في عيني أي غريب تصادف وجوده على مقربة منه، كما لو كان يبحث عن تأكيد لاستنتاجاته المنطقية، وإذا لم يفعل ذلك فإنه ينتقل ببساطة إلى موضوع آخر إلى أن يعود ببطء واثق إلى تلك الحالة من التسامي وعندئذ تبدأ دورته العقلية من جديد.

في تلك السنوات المبكرة، كان لصداقتنا مشهدان رئيسيان سرعان ما تشعَّبا إلى أربعة. في البداية كان المشهدان الرئيسيان هما الحرم الجامعي والشارع الطويل الذي يمتد من عند البوابة الأمامية، وهو شارع طويل عريض بلا ألوان، ولكنه يفوح برائحة رهيبة وإعلانات مكتوبة بأحرف

Twitter: @ketab_n

برَّاقة وإعلانات مليئة بالأخطاء الإملائية تعلن عن أطباق اليوم في المطاعم وعن أحدث الأنشطة والفعاليات في أماكن أخرى، وواجهات تعرض الأجهزة الكهربائية والأثاث الخفيف، ولافتات أخرى تعلن عن خدمات شخصية وخدمات نقل وإقامة – جميعها على امتداد شريط من الأرصفة والنواصي التي تحتفي بموكب غير موجود، يشق طريقه نحو وسط مدينة وهمية. ولو نظرت إلى الشارع من مستواه، لظننتَ أنّه يمتد إلى ما لا نهاية؛ أمّا من أعلى فلا بد أنه يشبه بشريط أسود طويل سرعان ما يتلوى حول نفسه كالحلزون.

كنا نقضي أغلب الوقت في التسكع عبر ذلك الشارع خمس مرات في الأسبوع، حتى نصل إلى قاعات المحاضرات، ومع مرور الوقت كنّا أكثر تقبلاً لمخاطر التجوال في الشوارع الجانبية، واستكشاف زوايا نجهلها مثلت لنا بوابة العبور إلى عالم "الآخر". واستجابة لإصراري، اكتسب "دانيال" عادة التوجه إلى زقاق بعينه؛ ضيق متعرج خافت الضوء، تصطف المنازل على جانبيه مكدسة فوق بعضها. كنت قد اكتشفتُ ذلك الزقاق منذ فترة ليست بالطويلة، حيث يفضي مباشرة إلى حي من بيوت الدعارة البائسة، وكذلك الكانتينات وغُرز التدخين. وتميزه جدران خضراء من الخارج وصالونات صغيرة حمراء وغرف خاصة بالداخل. إحدى هذه عبارة عن بناية كئيبة بها طاولات صغيرة تتزاحم جوار بعضها البعض، وكراسي بلاستيكية بيضاء، وتقدم مشروبات كحولية غريبة يتغير لونها عندما تبقى لفترة طويلة دون أن يمسُّها أحد. أضحى هذا مخبأنا كل ظهيرة تقريبًا. ولم يكن لذلك المكان اسم رسمي. والسكارى الذين كانوا

Twitter: @ketab_n

يترددون عليه دائمًا كانوا أقرب إلى كائنات ديكورية أكثر منهم زبائن. كان يُسمون هذا المكان "قصر خابونيسيتا"، على اسم صاحبة المكان وهي عجوز تتحدث بلكنة جنوبية، مترهلة الثديين، وعيناها ضيقتان، نادرًا ما نراها، ومع ذلك تشعر بحضورها القوي من بورتريه لها مُعلق فوق الباب بقدمين. ولا شك في أن وجودنا في "القصر" كان يثير الشك؛ فقد كنا نمضي الساعات الطوال عاجزين عن الفكاك من آثار ذلك الشراب الجهنمي مع أول كأس، أمّا الكأس الثانية فكانت تشجعنا على أن نخرج الكتب من حقيبتينا ونبدأ في القراءة بصوت عالٍ لنصوص أي صفحات تصادف أننا فتحنا الكتب عليها وحسب. في البداية، كانت العاهرات تخشى تلك المتعة الغريبة الكامنة في هذين الصبيين اللذين لا يعرفان كيف يتبادلان الحوار معهن؛ ولكنهن سرعان ما أخذن في التلطف إلينا، وبين حين وآخر كن يطلبن منّا تكرار فقرات معينة نجحن في تذكرها. وكان من النادر جدًا، لتقل مرة كل خمسمائة مرة، أن يقبل واحدٌ منّا المديح الاستعراضي المسرحي الذي تتطوع به واحدة من تلك النساء المتلئات المستديرات اللاتي تجدهن يتجولن في المكان كل ساعة، واللاتي تستثير أسماؤهن المستعارة من أسماء الغابات أو الصحارى أو أسرار الحركات البهلوانية الجنسية: "النمرة"، "السلطانة"، "أم أربعة وأربعين". لذلك كان على واحد منا أن يمد يده إلى واحدة من تلك الأيادي المدودة المنتهية بأظافر متآكلة مصبوغة، لتسحبه وراءها لأعلى عبر سُلَّمٍ متهالكٍ وضيق لدرجة يُخيل لك معها أنه مجرد رسم على الجدار، حتى نصل إلى غرفة ذات أرضية خشبية ونافذة واحدة عليها ستار من قماش ستان بالٍ، وأعلى الفراش صورة لـ"يسوع". وهناك نمارس الجنس مع "النمرة" كما لو

Twitter: @ketab_n

كنّا في رحلة صيد، ونمارسه مع "السلطانة" كما لو كان هناك خصي يراقبكما، أو مع "أم أربعة وأربعين" وكأننا ضائعون بين أطرافها الأربعة التي لا تتوقف عن الحركة، وسرعان ما نعود فورًا إلى الطابق السفلي، حتى من دون أن نغتسل، لنستأنف الحوار الذي توقف بسبب هذه الفورة الجنسية التي لا يمكن تفسيرها، والتي تبدو لي الآن بدون أي معنى. علقت إحداهن علينا بقولها إننا سُذَّج نحتاج إلى كثير من الخبرة في أمور الجنس، ولكننا لم نعلق، بعدما صرنا منشغلين بالفعل في أمر آخر.

وكم من مرة أجبرني فيها "دانيال" على أن أصرف النظر عن تلك المغامرات السرية ويصطحبني إلى منزله، إلى غرفة نومه أو بالأحرى مكتبته التي ينام بها، حيث يضطرني إلى الانغماس في تلك الأجواء الغامضة، والتي صنعها من مجسمات ورقية مصغرة، وتلك الجزيئات التي تتطاير من الكتب القديمة ما إن تفتحها، أو حينما يقلب صفحة قاسية وكأنها مصنوعة من العظم، أو يبادر بإغلاق غلاف أحد تلك الكتب المربعة الصغيرة التي صُنِّعت من ورق وجلد لتصبح المحور الذي تدور حوله حياة صديقي. في بيته اكتشفت أن الكتب ليست سوى وجه واحد من بين وجوه عديدة لانعزاله في عوالم منفصلة عن الواقع أو لنقل إنه يعيش في أكثر من واقع موازي: فكان يلوذ أيضًا بالأفلام واللوحات، ولكن "دانيال"، وعلى الرغم مما في هذين الفنين من متعة رائعة وهروب إلى أرض الخيال، كانت لـ"دانيال" نقطة ضعف خاصة وهي ما اعتاد تسميتها بـ"معمار الأحلام"، والذي لم يكن أحد تلك التصنيفات السيكولوجية التي ينتقدها بكل تصميم أثناء جولاته سريعة الخطوات عبر

Twitter: @ketab_n

حرم الجامعة، ولكنه وصف أطلقه على شغفه بصنع بيوت وبنايات من الورق أو الفلين أو الأبلاكاش. ولكنني لن أعطيهم حقهم إذا ما قلت إنهم بيوت، فقد كانوا نماذج مصغرة لقصور وقلاع وحصون ومتاحف ومراصد وفنارات أبدعها "دانيال" بمساعدة "صوفيا"، أخته الصغيرة الهزيلة المتذمرة دومًا ذات التسع أو العشرة سنوات، وبعد أن ينتهيا من صنع النماذج يضعانها فوق أسطح المكاتب أو على الموائد أو قواعد التماثيل أو فوق هرم من الكتب المُكدسة في ركن من أركان حجرته. كانت "صوفيا" بنتًا صغيرة حنونًا وإن كانت غريبة الطباع، مراوغة، وكانت تتجول في المكان مرتدية ملابس تنجح في إخفاء ما هي عليه في الحقيقة من مكر، وكانت تتكلم بصوت خافت حاد، ودومًا ما تستغرق في تقليد أي كورس غنائي يخطر لها، أو تنشغل في حوارات مع أناس خياليين. وعلى الجانب الآخر، فهي لم تتحدث أبدًا مع أي بشري من لحم ودم، ولا كانت تبدو مهتمة بتلقي أي رد على أي شيء تقوله، حتى إنها كثيرًا ما تنتقي الكلمات وتضيف فقرات من لغة خيالية متكسرة، بطريقة لا يجد معها الكبار من حولها سوى الرد بهمهمات مشجعة فحسب. أحيانًا فقط كانت تتنازل وتتحدث لغتنا البشرية حينما لا تجد بُدًا من التحاور مع أخيها حول تفاصيل آخر ما صمماه من مبانٍ. وهكذا خرج من تحت يدي هذين الإثنين نماذج وتصاميم تنم عن براعة هندسية فائقة، تضعهما في مصاف أساتذة فن الماكيت و"الأوريجامي"، فأبدع الإثنان القصور والمساجد والقلاع التي تزينها نوافذ مصنوعة من "السوليفان"، وستائر من "الكريتون"، وأبوابًا من القصدير. ومع ذلك، إذا تحدثت "صوفيا" بلغة البشر، فالتحذير واجب لأن هذا يعني أن مِزاجها سئ. وعندما يكون

Twitter: @ketab_n

مزاجها سيئ، تصير هي الزعيم، وصاحبة الأمر الأول والأخير، فتتحول إلى طفل مزعج لا يكف عن الصياح والبكاء، فلا يجد "دانيال" مهربًا من كل هذا سوى التحول من أخ أكبر إلى خادم ساخط ليس بيده شيءٌ سوى فعل كل ما تأمر به تلك الفتاة الصغيرة. وهكذا لا تخرج "صوفيا" من حالتها المثيرة للضحك هذه إلا عندما تنتهي هي و"دانيال" من صنع نماذج مصغرة لـ"شاتو دو مونت رويال"، و"قصر الحمراء"، و"تشيتشن إيتزا"، ليضعاها بعدها في منتصف المكتبة التي هي غرفة نومه أيضًا.

وهكذا كانت "صوفيا" عبارة عن مزيج من الشراسة والبهجة تجمَّعا معًا لينتجا هذه الفتاة الصغيرة. كانت منذ ولادتها مصابة بمرض أوهن عظامها وعضلاتها، وجعلها عرضة لكسور وتمزقات مفاجئة والتي بعدها تبدأ في البكاء بشدة، وهذه الإصابات لا تكون دائمًا نتيجة لحركة عنيفة. فقد تسقط فجأة خلال اللعب. والمشي لمسافات طويلة كفيل بكسر ساقيها. فمنعها والداها من الرياضة أو من الخروج إلى الشارع، وحتى إن سمحا لها بالخروج فيكون هذا لوقت قصير جدًا، وداخل سيارة، وهو ما خلق في نفسها شوقًا للخروج واللعب تراكم داخلها فأصبحت تنفِّس عنه خلال نوبات الغضب والاكتئاب التي تصيبها. بطريقةٍ ما كانت تلك الأحلام المعمارية داخل المنزل، والتي شاركها "دانيال" في تحقيقها، فكرة ابتكرها حتى يتسنى لها أن تختبر وتعيش، حتى ولو لفترات قصيرة تلك الحيوات الأخرى الممكنة التي مزقت روحها. وللمفارقة، كان هذا السبب بالذات هو ما جعلهما لا يتركان تلك النماذج على حالها لفترة طويلة؛ كان "دانيال" وأخته يتعمدان ألا تعمِّر تلك النماذج، فكانا بعد فترة قصيرة من صنعها

Twitter: @ketab_n

يقومان بتدميرها تمامًا. فالبنسبة لهما كانت هذه النماذج كالمسرح. وعلى هذا المسرح كانا يؤديان أدوارهما المسرحية الجامحة باستمرار (على أية حال لم تحب الفتاة أن تقول لا لأخيها)، وهكذا كانا يقومان بتمثيل الحكايات الخيالية الكلاسيكية، ويلخصان من خلالها أحداث روايات الفرسان والجواسيس والقتلة، أو الروايات التي تتحدث عن الحب التراجيدي والإنتقام، كل هذه الحكايات كانت البنت الصغيرة العنيدة تنتقي بصبر يحاكي صبر عالم دين صوفيٍّ تلك الحكايات بعد ساعات تمضيها وسط أرفف الكتب، وتستخلصها من بين صفحات هذا العدد الهائل من الكتب، والذي حوّل الغرفة إلى عالمٍ خيالي يتكون من آلاف المنازل والغرف الأخرى. وما إن ينتهيان من نموذج ورقي، حتى يضعاه على رف صغير ويهبطا به السُلَّم بكل حرص ومنه إلى الفناء الخلفي للدار. وهناك، وبعدما يتأكدان من عدم وجود والديهما، يشرعان في العرض المسرحي القصير: مشاهد سريعة عصيبة، تمتزج فيها حياة شخصيات خيالية مع أخرى لشخصيات خرافية بائسة، لتنتهي المسرحية نهاية مأساوية: حيث يحترق الأبطال والأشرار، الأوغاد والبؤساء، العذارى والزناة، المتحمسين والكسالى، جميعهم وسط لهيب النيران التي تلتهم جدران وسقوف تلك العوالم المصغرة في ثوانٍ.

أدَّى "دانيال" و"صوفيا" المسرحية، كانا يلعبان كل الأدوار ويهتمان بكل التفاصيل. وتخصصت البنت في صرخات الضحايا الفزعة، وكانت تطلقها عبر مكبرات صوت من الورق تمسكها بين يديها، وأحيانًا كانت تلقيها في النيران حتى تمنحها دفقة هواء إضافية تزيد من اشتعال اللهب. وفي النهاية، يحرصان حرصًا شديدًا على ألا تأتي النار على البناء كله،

Twitter: @ketab_n

فيطفئان النار في الوقت المناسب، ويجمعان الأطلال والرماد داخل الغرف المصغرة، ويحملانه ثانيةً إلى غرفة النوم - المكتبة ليضعاه في مكانه المحدد ضمن نموذج ضخم لمدينة مدمرة خصصا لها مكانًا في الغرفة، فهي تتألف من جميع أعمالهما السابقة، ولها شوارع وقلب وحدائق وحارات ودروب مسدودة أيضًا. يسميها، بخبث متعمد، "مدينتي التي أجوبها أثناء نومي"، وعبر تضاريسها المسودة من أثر الرماد تبرز أطلال جدران قصر "هاملت"، وسجن "سيجسموندو"، وفيلا "تريستي لو روي".

سمحا لي مرة وحيدة بأن أشاركهما تلك الطقوس. وكانت حبكة تلك المسرحية الكوميدية الصغيرة حكاية حب متقلبة بين فلاح أصم وأبكم وفتاة شابة، بل هي بنت صغيرة. كانت مدبرة منزل تاجر يبيع أصناف الجبن ولحم الخنزير. وقررت هي وحبيبها الانتحار معًا، ولكن الخطة تفشل بسبب مقاومة جسد الفتى غير المتوقعة، والبائسة، لأثر السم. وفي تلك المرة، صنع "دانيال" و"صوفيا"، باستخدام عجينة ورقية وأسلاك نحاسية وأخرى من الرصاص، وقطع حجرية مطلية بالألوان المائية البنية والبيضاء، السجن الذي سُجِن فيه الفتى الأصم الأبكم بتهمة قتل حبيبته، وحتى يجيدا التصميم قاما بنسخ خرائط وتضاريس ذلك السجن في "بري"، حيث دفع "جان فالجان" ثمن جريمته. في القصة، نجح المزارع الشاب (بالتواطؤ مع حارس تعاطف معه وقرر أن يمنحه الفرصة) في الفرار من زنزانته. ولكنه يقرر، بدلاً من الهرب، أن يُتِم ما بدأه منذ زمن، وهو أن يحرق نفسه حيًا بساحة أحد عنابر السجن، حتى تتصاعد بقاياه إلى السماء مع الدخان لتلتقي شبح محبوبته الصغيرة. وحينما أشعل "دانيال" و"صوفيا" النار - كان يركض بينما تتبختر هي برشاقة حول

Twitter: @ketab_n

النموذج الصغير – كانا يؤديان صيحات وصرخات المساجين والحراس التي تصم الآذان داخل السجن المصنوع من عجينة ورقية وسرعان ما كانت تتطاير وكأنها شهب عبر أنحاء الفناء الخلفي، حيث وضعا السجن في منتصفه. صيحات في مسرح هزلي، تراجيدي كوميدي، مع قهقهات طفولية لا تهدأ تهز جدران مبنى تلو الآخر، نموذج تلو الآخر، مثل صوت غزلان وعجول محاصرة تحت أنقاض زريبة تهاوت فوقها. وأثناء تقليد كل أصوات تلك الجوقة الخيالية، بدأ "دانيال" و"صوفيا" في التقافز حول الحطام، وقد استغرقهما وهج الشر، والتمعت عيونهما في جذل، طفلان في نشوة سببتها الفوضى التي فعلاها، وتغذيها بهجة أن كل هذا يجري من دون علم والديهما.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرابع

ولكنَّ الأمر لم يعد كما كان في الماضي. "دانيال" الآن، وهو جالس على أرض الساحة الوسطى في المستشفى، يبدو وقد شاخ قبل الأوان، بذلك الصليب البني الموسوم على جبهته، وعينيه الكسيرتين. بقي ساكتًا لبرهة من الوقت، يحدق بوقاحة في المرأة التي تمددت مرة أخرى على الأرض وهي تلوك كسرة الخبز في فمها. كان الهواء رطبًا وفجأة غطت الشبورة كل شيء. قال لي:

- بعد موت "جوليانا" صدر الحكم وطلبت أمي منهم أن يحضروني إلى هنا بدلاً من السجن، بعدما رشت القاضي وطبيبين وتمت فبركة شهادتيهما بتدبير منها.

وخلال الأشهر الأولى من وجوده في المستشفى، أعطوه الحبوب المنومة ومضادات الاكتئاب، فكان ينام بالأسبوع وراء الأسبوع (لا يعرف عددهم)، وقد يكون ما راوده من صور قليلة من ذلك الحين مجرد أحلام أو ذكريات.

Twitter: @ketab_n

- كانوا يخرجونني من السرير للذهاب إلى الحمَّام، وفي بعض المرات جعلونني أدور في أنحاء الغرفة، وكانوا يسألونني عن أمور تافهة أو يردوا على أسئلتي بإجابات غير منطقية.

أجبروه على تناول الطعام في السرير والنوم لمدة اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة في كل مرة، مع فترات استيقاظ قصيرة في الوسط. كان قد تعلَّم التفريق بين الحلم والحقيقة، ألا يفكر في شيء، وأن يتوقف عن قياس الزمن أو تمييز النهار من الليل.

- أدركت أنني كنت أسعى إلى حالة اللاوعي، أن أحرِمَ نفسي من الوضوح، وأن أضع على حياتي الماضية كلها بقعة سوداء لكي أتوقف عن معايشة كل لحظة فيها.

ولكن مرت أوقات كان يستيقظ فيها، فيبقى محدقًا في بقعة غائمة سوداء ترفرف مثل وطواط في سماء غرفته، وسمح لنفسه لبضع ثوانٍ بتذكر صورة "جوليانا" فجأة، ذات ليلة على الطريق السريع، وجثتها تغطيها الطعنات والخدوش والكدمات، كأن "جوليانا" مانيكان مفككة في صندوق سيارته.

- أدركت على الفور أنني كنت أبكي حتى بللت قميصي، أو أنني قد تبوَّلت في سروالي، وتركت الممر لأتسول من أي شخص أن يعطيني المزيد من الأقراص، ولكنني عجزت عن الكلام. وما إن انتهت فترة العلاج بالنوم، كنت قد فقدت الكثير من الوزن، وصرت نحيلاً يلتصق جلدي بعظمي، بل شعرت وكأن عظمي يكاد يخترق جلدي ليهرب من جسدي. كانت والدتي تزورني كل يوم، وكذلك بعض الأصدقاء، "جالفيز" و"باستور"، كانا يأتياني أولاً، وفي وقت لاحق صار "ميرو" يأتي، فقد زارني في كثير من

Twitter: @ketab_n

الأحيان، ولكن جمعنا نفس الإحساس والرغبة في الجلوس معًا وجهًا لوجه، وفي الوقت نفسه أن نبقى مختفين عن بعضنا البعض.

استمروا في إيقاظه ببطء، وأصبحوا يطيلون فترات يقظته بالدقائق وفيما بعد الساعات بين أيام النوم، وذات صباح فكر "دانيال" أنه ربما كان صحيحًا أن خطأ قد وقع، وأنهم أضحوا الآن يوقظونه أثناء حلمه.

- في البداية لم يتركوني وحدي للحظة، ولكنهم ظلّو هناك في الممر، جالسين على بعد بضعة أمتار يراقبونني وأنا أمشي متعثرًا عبر الفناء.

كان هناك ممرض دائمًا في الجوار، وعند باب غرفته يقف شرطي كل صباح ويتبعه أينما ذهب، ويتناول الطعام معه، ويرافقه إلى المرحاض، وفي سيره عبر العنبر.

- خلال الأيام القليلة الأولى، شعرت أن المرضى الآخرين أشباح، مجرد وهم صنعه عقلي، وهو ما لم أكن أقبل أن أكونه في هذه المتاهة التي أعيشها: كان عليَّ أن أكون مختلفًا. لم أتذكر أول مرة جلست فيها القرفصاء في ذلك الفناء، مثل الآخرين، وتبادلت الكلمات مع واحد منهم، ولا أذكر ما تكلمنا فيه. ولكن في لحظة معينة أدركتُ، أيًا من كانوا، فأنا مجرد عضو آخر في هذا المجتمع، روتيني هو نفس روتينهم، وأقضى أيامي مغيبًا أتخبط بين الممر والفناء، وأقوم مثل أي شخص آخر بعدِّ الأوراق المتبقية على الشجر، وأكلِّمُ نفسي، من دون أي يقين من معنى كلامي أو كلام أي شخص غيري، ولكنني أتحدث إليهم بصوت خافت، مسموع بالكاد، وشعرت أن التحدث مع أي شخص سيذكرني بأنني واحد منهم، وأنا لم أكن مستعدًا لذلك.

Twitter: @ketab_n

هكذا بدأ هذا المنطق يتشكل في ذهنه، وكأنه شعاع من العقل أصابه كالمرض.

- أدركت أنني أتحول الى كائن بعيد، ولا أعني أن أفكاري كانت تفتقر إلى المعنى، ولكن الأسوأ من ذلك، أنها بدت لي معاني مبهمة أو غير دقيقة.

ذات مساء، أراد أن يقول لأمه "أحضري لي بعض الكتب من البيت"، ولكنه لم ينطق سوى بكلمة "كتب"، وأراد أن يخبرها بعنوان كتاب منها، ولكن ذاكرته لم تسعفه.

- ومع ذلك، حدست بفطرتها ما أردت أن أقوله لها. كانت تعلم أنها فكرة جيدة، وفي اليوم التالي حضرت إلى المستشفى ومعها كرتونتين ممتلئتين وخزانة الكتب الصغيرة التي رأيتها أنت في غرفتي، والتي هي الآن فارغة، وقريبًا ستعرف السبب.

- أخذت أقرأ كالمسوس، أبحث عن شيء مجهول، وكنت أقرأ في المرة الواحدة أربعة أو خمسة كتب، محاولاً أن أستبدل هذه الكوابيس بحكايات أجدها في الكتب. ولكن لم يكن الأمر سهلاً. في البداية كنت أجد في كل سطر لغزًا؛ وبقيت أحدق في الكلمات؛ ولا أعني أنني كنت أتأملها، بل أكتشفها، وأنظر في عيونها، وكأنني أتعلَّم اللغة من جديد ولأول مرة.

في كل صباح كان يسقط على أرض الفناء المغطاة بالحصى والرمل، تحت ظل خفي لشجيرة، وإلى جانبه كومة من الكتب، وتعلَّم الآخرون احترام صمته.

Twitter: @ketab_n

- ذات مرة، كان أحدهم يستريح على دكة مجاورة، ومد عنقه من خلفي وبقي على هذه الحال لبضع دقائق، ثم لبضع ساعات، متتبعًا بعينيه السطر الذي كنت أضع إصبعي تحته.

وذات صباح تحدث ببطء شديد مع أحد رفاق القراءة حتى لا يسمعهما غيرهما، ليست كلمتين أو ثلاثًا منفصلة، ولكن عبارة كاملة وبرغبة في الحصول على إجابة حقيقية. كان رجلاً كبير السن ذا وجه متوتر متجهم، وكأنه من ورق مقوى، يمكث دومًا في غرفته ولا يذهب إلى الفناء إلا حينما يكون خاليًا تمامًا.

- لكنه في ذلك اليوم - من دون أن أعرف السبب - جلس على الأرض إلى جواري، وشرع في صنع أهرامًا وأبراجًا بكتبي. نظرت إلى الرجل نظرة عطف، وتشجيع، وسألته: "هل لي أن أعرف لماذا وضعوك هنا؟" لم يرفع الرجل عيناه عن كتبي، ولكنه رفع يده نحو السماء، ليشير إلى المجهول بإصبع لا لون لها، قائلاً: "لم يضعني أحد هنا".

بعدئذٍ وجه إصبعه إلى وجه "دانيال"، لتستقر أمام عيني "دانيال" تمامًا، وحركها بسرعة وتوتر وهو يستطرد: أنا من سجن الجميع خارج هذا المكان، حتى يلتهموا بعضهم جميعًا: وإذا أردت أن تغادر هذا المكان ذات يوم، فعليك أن تأتيني أنا. وكانت هذه أول مرة يشعر فيها "دانيال" أن بقية المرضى كائنات من لحم ودم.

- ومنذ ذلك الحين اعتدت أن أوقف أي مريض يعترض طريقي، واصطحبه أو أشير إليه أن يتبعني إلى الفناء لنجلس سويًا على الأرض ونتحدث.

Twitter: @ketab_n

مرت سنتان، بقدر علمه، وعندئذٍ فقط تقبَّل واقع وجوده في مستشفى للأمراض النفسية، وأن الموتى الأحياء الذين يجوبون هذا المكان، ويغمزون ويلمزون بجمل غير منطقية، ويترنمون بلغات غير معروفة، أو عبارات قصيرة، تتكرر آلاف المرات، فضلاً عن همهمات بها كلمات من قبيل عاهرة، طيور، عذراء وزواج تتكرر دوريًا. كانوا مختلين عقليًا، ولكنهم ليسوا شياطين أو أشباحًا في حلم مزعج.

- في لحظة معينة، أعجز عن تحديدها، بدا لي كل شيءٍ مربكًا، ونجحت في إقناع نفسي بأني في مستشفى عادي، وأن كل هؤلاء مرضى طبيعيين (هكذا قالها "مرضى طبيعيين")، وأن هذياني حوَّلهم إلى أشباح ووهم، وأنني كنت أبحث عن الهروب من محنتي، حتى لا يشك أحد في أنني قد جننت.

وعلى الرغم من ذلك، فإن إدراكه البطيء أن هذا المكان ليس سوى ملجأ جعله يشعر بأنه كان في قواه العقلية، ومنذ ذلك الحين، وطيلة السنة الثالثة، بدأت الأمور تأخذ منحى مختلف.

- بدأت أدرك أن طبيعة الكتب تتغير، ولم تعد أكوام من العبارات القصيرة ذات المعاني المفككة، وشظايا، وجسيمات تثير ذكريات متقطعة ضبابية: بل أضحت الآن معارف وقصصًا وتفاسير.

صار يفهم نصوصها، وأدرك أن بعض الكتب تمتعه أكثر من أخرى، وبدأ يميز بينها، ويقبل بعضها ويرفض غيرها. ومن دون معرفة السبب، بدأ يختار أفضلها ليقرأه بصوت عالٍ، في الفناء، وفي الممر، وفي وجه جماعة المجانين الذين يجلسون القرفصاء في دائرة حوله بعد كل ظهيرة، وبعضهم يلتهم الخبز والحلوى، والبعض الآخر يصفر تصفيرًا منغمًا، ثم يردون على قراءاته بصيحات استحسان غير مفهومة.

Twitter: @ketab_n

- تحولت إلى زعيم ديني لهؤلاء الغيلان، مع حاشية من المجانين الملائكيين الذين ينصتون إلى توقعاتي، مشدوهين أو غير مبالين، هذا لا يهم، وبطريقة ما شعرت بأنني ومن خلالهم كنت أعيد تأسيس طبيعة ارتباطي بالعالم.

وارتضوا هم، "الآخرون"، أن يشكلوا هذه الدائرة من حوله، ليحتل كل منهم مساحة مساوية لغيره، وإن كانت مختلفة عن المساحة التي يشغلها "دانيال"، وفي تجمعاتهم، في قلب العنبر، نجحت هذه المجموعة المتحورة من الرجال والنساء، الذين يتحدثون لغات لا ينطق بها غيرهم على وجه الأرض، في تحقيق تناغم؛ مقيت وإن كان حقيقيًا.

- بعد ذلك بوقت قصير، وفي المونولوجات التي كان يرددها الآخرون، في رطانة لا ينفكون عن ترديدها من بزوغ الفجر وحتى منتصف الليل، كل يوم، ويومًا بعد يوم، بدأت فتحات صغيرة تتشكل ومن خلالها ظهرت أسماء الأشخاص والأماكن التي سمعوها مني في محاضراتي، وبعض عبارات بأكملها بزغت فجأة في واحدة من تلك الفقرات التي صغتها بالمحاكاة الصوتية والتأكيدات المتكررة، وكأنها عين ظهرت وسط دوامة إعصار.

وسعد الباقون بذلك الروتين، وأظهروا أنهم قد تعرفوا عليه، أو على الأقل هذا ما ظنه "دانيال"، عندما يلاحظ قهقهة من فم فاغر خالٍ من الأسنان، أو من فم منكوب التجويف، وعندما يشاهد التصفيق الهائج المشجع، تتلوها لحظة حيرة وعودة تدريجية للصدمة.

- مع مرور الوقت، صار لكل شخص بقعة ثابتة في الدائرة، ويصرون على تلك البقعة عينها دون غيرها، وعندما كنت أجلس على الأرض وأشرع في القراءة، كانوا قد استقروا في مواضعهم بالفعل، وقد ربَّعوا سيقانهم

Twitter: @ketab_n

لتستقر أيديهم عليها، وفوقها رؤوسهم، وأفواههم نصف مفتوحة، وعيونهم عمياء عن كل شيء آخر – وكأنهم جثث أطفال استخرجت للتو ولا يزال الغبار يعلوها، يستمعون إلى محاضراتي كما لو كانوا مجموعة من الغوغاء عادت إلى الحياة من قلب مقبرة جماعية. نشأ الاستقرار من قلب الفوضى في العنبر في غضون بضعة أشهر، بفعل روتين لم تضعه قواعد المستشفى، ولكنه اعتمد على إرادة المرضى الذين يتعمدون الحفاظ على سرية وعيهم بالساعات المتبقية حتى الاجتماع السري المقبل، وبدا الأمر وكأنهم يدخرون جنونهم لأوقات اليوم الأخرى، لأنهم بمجرد أن يشكلوا تلك الدائرة على الأرض من الحصى والرمل، ويتصرفوا بذلك السلوك الاحتفالي، كما لو كانوا يتوخون عدم انتهاك قانون سماوي مجهول، ومن دون النظر في وجهي، حتى أوقن أنهم هنا بالفعل لأجلي، وللاستماع إلى ما أقول، بغض النظر عمَّا أقوله. ووصل مرضى جدد وسرعان ما اندمجوا في عادة الانسحاب عن الباقين، وتمضية الساعات والأيام في نعيمهم الخاص متأملين في حجر، أو حمامة ميتة، أو سحابة اتخذت شكل مطرقة، ولكنهم سقطوا تدريجيًا، ذات ظهيرة، في غواية هذا الحفل المكون من تماثيل بكماء تتخذ تلك الأوضاع الجنينية، وصوت قائدهم المبحوح، وبدورهم أضحوا جزءًا من الدائرة.

Twitter: @ketab_n

"جامع الكتب" شخصية هادئة منعزلة في برج من الكتب وحزم الورق التي يشبه لونها ضوء الشمس الباهت، وفي عالمه هذا هو غريب عن العالم الخارجي. يقرأ عن حياة الراحلين في مجلدات "أوكتافية"، مطبوعة بلغات جليلة، ويدرس كلاً من الزمان والمكان من دون أن يخضع نفسه لقسوة الزمان والمكان. سجين ومحاط بأعمدة الورق المطبوع، والمخطوطات غير المقروءة، والأحرف الشرقية، وكل لحظة من لحظات البشرية متاحة له بترتيب أبجدي وتغطي جدران غرفته، في مأمن من كل شيء عدا نظراته. أمضى ثلاثين عامًا من حياته في هذا المكان، والذي منه يخرج وحيدًا بعد حلول الظلام. وبمجلد تضمه ذراعه إلى جسده واضعًا إصبعًا داخله عند الصفحة التي توقّف عندها، يتحقق "جامع الكتب" بعناية من أوجه التشابه والاختلاف بين العالم الحقيقي والعالم الذي تعرفه ذاكرته من الكتب: فالمدينة التي يسكنها تتغير، وكل ليلة يزداد عدد المتشردين في زواياها، وحشود الغرباء الذين يزدحمون في الدروب والسبل أو يمكثون في الأزقّة والشوارع الجانبية، ويسجل "جامع الكتب" في عقله هذا التحول المفاجئ بكل دهشة الدنيا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الخامس

- هل أنت متأكد من أن هذه هي أفضل طريقة؟
- أظن ذلك؛ هذا الشارع سيقودنا إلى الحارة، ومنها مباشرة إلى مقصدنا.
- حسنًا.

عندما لا نكون في طريقنا إلى مكتبته والتي هي غرفة نومه - أو إلى حي بيوت الدعارة المليء بالدخان، فإن "دانيال" يسحبني إلى ما أصبح فيما بعد المشهد الخامس لحياتنا المراهقة: شارع قصير جانبي موازٍ لشارع مستقيم، حيث قام ستون أو سبعون رجلاً وامرأة، ومعهم الأطفال والعجائز، ربما منذ زمن سحيق، بوضع أياديهم على ثلاثمائة متر بطول ناصية وسط البلد. يمضون اليوم كله هناك، جالسين على صناديق الفاكهة أو الكراسي والمقاعد المتهالكة، وتحيط بهم أكوام من الكتب المتربة المغبرة، وجبال من المجلدات التي ارتفعت حول أصحابها مثل أعمدة معبد سرق سطحه إله جاهل خلسة في الليل، من فرط غيرته من عبادة الفنون والآداب. كل تجار الكتب القديمة يعرفون "دانيال"، ويقدمون له نوادرها وجواهرها، ومن خباياهم السرية يكشفون عن مجلدات سميكة عليها علامات حرق أو عفن بني تكوّن بفعل رطوبة هذه المدينة البرمائية،

Twitter: @ketab_n

مجلدات يتوقع "دانيال" أن يعثر فيها على غرائب ومفاجآت، وكان - خلال تلك الأيام الأولى - وقبل أن يتعلَّم حرفة الفصال، من المستحيل عليه أن يخفِض من أثمانها، فينفق عليها كل مال يجد طريقه إلى جيبه.

بكل ما فيها من دروب متعرجة ومزدحمة بالمشترين غريبي المظهر، الذين يتمشون بين تلال الورق وقد انحنت رؤوسهم تحدق في الأرض، وهي تحاول على الطاير التعرف على العناوين المدونة على كتب جعلتها الشمس ناشفة أشعة الشمس وعتَّقها الضباب؛ وما فيه من غوغاء الباعة الذين تحصَّنوا وراء أسوار المجلدات المرصوصة فوق بعضها البعض، أو المصطفة على العديد من الرفوف التي صُنعت بارتجال من خشب وألواح وصفائح معدنية، أعطاني "سور بيبليو"، كما سمُّوه، انطباعًا غريبًا أن المكان بأسره خرج من إحدى روايات "راي برادبري". أخذت طريقي عبر تحولات وانعطافات هذه الطريق المتعرجة التي بدت لي وكأنَّها مليئة بالكتب والباعة، وتخيَّلتُ المكانَ مُخيمًا للاجئين اقتحمه جيش مهمته التخلص من كل ورقة مطبوعة في هذا العالم – أو هي قبيلة رحَّالة أفرادها رجال متشبثون بأصول الثقافة وشهداء اتخذوا على عاتقهم مسؤولية حفظ تاريخ البشرية وإعادة صياغته مرة أخرى في شكل مكتبة. وهناك وسط تُجَّار الكتب وقفت امرأتان أو ثلاث وفتاتان أو ثلاث، كن يطلقن بين الحين والآخر تأوهات متعة أو همهمات ألم، وكأنه الرد الأنسب على حكايات تُحكى، وبين هؤلاء وأولئك قد تستشعر وجودًا مبهمًا لأحد الفتيان الذين يديرون كشكًا قريبًا منهن. ومع هذا، وعلى الرغم من وجود تلك النسوة، فإن المكان ذكوري تمامًا، يهيمن عليه جنس التجار الشباب مفرطي النشاط، الذين يتنافسون على بيع بضاعتهم، ويتصايحون

Twitter: @ketab_n

بعناوين المجلدات والموسوعات الكنسية، كما لو أنهم يبيعون معدات وأدوات ميكانيكية أو مستلزمات مدرسية. ولكن، كانت هناك أيضًا مجموعة هادئة من التجار كبار السن، يجلسون دائمًا على مقاعد ضيقة من معدن مدهون، مثل تلك التي نجدها في المسارح، ويستغرقون في القراءة والتخطيط تحت العبارات والفقرات، مع اختلاس النظر بين الحين والآخر بعيون لا مبالية ومُتعَبة، تجدهم يقومون بفرز وتصنيف المارة من حولهم؛ كل حسب طبقته الاجتماعية، وكل متسوق يظهر في محيط تلك المكتبات المؤقتة، ذات الأسقف غير المرئية، حيث يمضون ما بين عشر إلى اثنتي عشرة ساعة في كل يوم من أيام الأسبوع.

وبينما نمر على هذا الكم الهائل من الطاولات، يُعرفني "دانيال" على العديد من بائعي هذه الكتب المطبوعة؛ فهذا طالب سابق، وهذا تاجر أسماك سابق، وهذا بائع خضار معتزل، أو معلم مدرسة قديم، أو رجل شرطة، أو نزيل مستشفى منذ زمن أو خارج من سجن، أو مسن طرده أولاده من المنزل؛ بعضهم محكوم عليهم بالنوم كل ليلة في نفس الأكشاك التي يقفون فيها طوال النهار. ومن بين جميع هؤلاء استولى واحد فقط على مخيلتي في لمح البصر. كان عجوزًا للغاية، بعينين شبه منغلقتين، وجبين مسطح. رأسه أصلع أحرقت الشمس مقدمته، وليس هناك سوى بضع خصلات من شعر لامع مصبوغ بالأسود، وكان يلف منديلاً حول عنقه، ويرتدي قميصًا بياقة وبنطلونًا رماديًا. معطفه معلق على حافة كشكه، وقد وضع على طاولة مصنوعة من صناديق الورق المقوى هيكلاً عظميًا داكن اللون وضئيلاً فربما هو لطفل، أو ربما هو لقرد. وحده هذا المسن كان في ما مضى مالكًا لمحل حقيقي لبيع الكتب، ولكنه خسر ذلك

Twitter: @ketab_n

المحل حينما انفجر مبنى مجاور له، تمتلكه شركة أجنبية، منذ سنوات بسبب قنبلة زرعت فيه في زمن تلك الهجمات الإرهابية.

- هذا متخصص في كل ما هو غامض.

هكذا قال لي "دانيال" مبتسمًا، حينما عرفنا بعضنا للمرة الأولى. نطق اسمه الأخير، "ياناوما"، واسم شهرته، "كابيسيتا نيجرا"، بينما أشار لي إلى كرسي من الخشب الرطب، وكأنما يُعرِّفني بأننا سنمكث هنا لبعض الوقت.

في تلك المناسبة، بقي "ياناوما" يخطب فينا لساعات، بصوت مريض ولكنه مميز، مستطردًا في موضوعات متشعبة وتفاصيل عشوائية وقصص أبطالها، في كل مرة، ليسوا ببشر، بل أفكار، والرابط بينها أمران لا ثالث لهما؛ الموت والكتب. وعلى الرغم من غزارة ذكره للتواريخ والأسماء، وأسماء المواقع الجغرافية والتلميحات الصوفية الغامضة، والزنادقة ومحاربي الزندقة، والألقاب والإشارات إلى صور أسطورية لم يقرأ عنها أحد منذ فجر الحداثة، أو التي قمعتها سلطة ما خلال القرون الأخيرة، إلا أن ابتسامة "دانيال" الدائمة جعلتني أوقن بأن "ياناوما" خبير في فن الحكي. ولكن ما قاله كان، بأي حال، مذهلاً ومرعبًا. ومن بين كل ما قاله ذاك اليوم بقي في ذاكرتي حديثه عن مآثر في حياة الدكتور "ماجنوس شوارزكوف"، وهو واحد من مئات رسل الموت الألمان والذي اكتشف، خلال سنوات "الحل النهائي"، بعض المواهب الإبداعية التي بقيت منذ ذلك الحين خاملة. كان "شوارزكوف" أحد جراحين ثلاثة مسؤولين عن غرف تجريبية في العنبر رقم (11) بمعسكر اعتقال "بيركيناو"، "أوشفيتز الثاني"، في ضاحية "زاسولي"، على مشارف مدينة "أوشفيتز" البولندية. ومثله مثل كثيرين غيره، وما حكاه "ياناوما" يؤكد لي صدقة

Twitter: @ketab_n

غير مفهومة، كان "شوارزكوف" مقتنعًا بفكرة معالجة جلد السجناء القتلى وصنع الورق منه. ليس ذاك النوع من الورق الذي عرضه الأمريكان على القضاة في محاكمات "نورمبرج"، ولكنه ورق حساس وأنعم أنواع الورق الذي صنعه الإنسان على الإطلاق. إنه يكاد يكون شفافًا، ولكن شفافيته لا تصل إلى الحد الذي يحيل الكتابة عليه غير مقروءة. ورق أبيض مفيد في إنتاج الكتب الفاخرة، تمامًا مثل الكتب الأولى، وتقديمها إلى العالم البكر الذي كان على شفا البزوغ إلى حيز الواقع كما كان يحلم "شوارزكوف". ولكنه ما إن تأكد من عدم نفع الجلد المجفف من جثة ضحية، والذي مات ربما حتى قبل صاحبه، وأن من غير الممكن استخدامه فيصنع المنتج الذي يصبو إليه، حتى أقنع "شوارزكوف" كبار ضباط "بيركيناو" بمنحه مائة من المعتقلين البالغين الأصحاء الذين وصلوا إلى المعسكر مؤخرًا، وشرع في قتلهم واحدًا وراء الآخر كلما تقدمت مراحل التجربة، حتى أضحى متمرسًا في التقنية وتصنيع كميات من الورق اللامع، والذي استخدمه النُسَّاك والمهنيون والطلاَّب، وبحبر نجحوا في تصنيعه من نفس الجثث المستخدمة في صنع الورق، وشرعوا في نسخ نصوص الكتب - التي كان "شوارزكوف" يضعها كل صباح على مكاتبهم - بخط قوطي: نسخة من الكتاب المقدس باللغة السنسكريتية، وترجمات ألمانية لـ"شكسبير"، وطبعة خاصة من "دون كيشوت" باللاتينية، وجميع نقوش "بري"، وقد أوكلت إلى أمهر فناني المعسكر، وتاريخ "ساكسوس جرمنيكس"، و"فاوست"، وثلاث نسخ من "رينيكه فوكس" التي كتبها "جوته"، ومراسلات "شوارزكوف" نفسه مع فيلسوف شاب من "دانزيج" عرَّفه عليه صديق متحمس له.

Twitter: @ketab_n

وبين عامي 1942 و1945، قدم الطبيب عمله، ولم يتوقف عن طلب توفير سجناء جدد، محولاً مرضاه إلى كتب، وماحيًا إياهم من سجلات المنصات العفنة في الثكنات حتى يتمكن من تحويلهم إلى ورق على أرفف مكتبته الشخصية التي ظلت تنمو. وفي 1 مايو 1945، عندما لم يتبقَ سوى رجل وامرأة في الغرفة، أخ وأخته، ومصير أحدهما أن يكتب على جلد الآخر. أعطاهما "شوارزكوف" ملفًا يحوي أوراقًا مكتوبة بخط اليد فيها تفاصيل حكايته، وشرع في توديعهما بقبلة على الخد، قبل أن يدخل مكتبه ويطلق النار على رأسه.

أنهى "ياناوما" حكايته قائلاً، بلهجة غامضة، إن الروس صادروا المكتبة وطرحوها في السوق السوداء عام 1953، وهو التاريخ الذي يقال إن ستالين قد باعها فيه إلى فاعل الخير والذي وصل الشيك الخاص به إلى تجار مجهولين في مكان ما في أمريكا الجنوبية.

يحكي لنا "ياناوما" مثل هذه القصص من دون أي جهد يذكر، متذكرًا إياها أو يؤلفها على الطاير، بسلاسة ومهارة شاعر بروفانس متجول وبنبرة تسليم دنيوية، وأحيانًا ما تكون مخيفة وأحيانًا أخرى خبيثة، ويسترسل وينسب حكاياته إلى مؤرخين وموسوعيين لولاهم لما كنا قد عرفنا بها، ويقوم بطريقة غير محسوسة، عقب أن ينتهي من إحدى حكاياته، بوضع كتاب آخر على طاولته الكرتونية الصغيرة، ويخبرنا أنه لا يقدر بمال، ثم ينتقل بنا إلى قصة أخرى، وبعد بضع ساعات، نجد الكتب وقد تراكمت في انتظار أن يقوم هو بتحديد سعرها وتسليمها إلى "دانيال"، المستعد دومًا لشراء أي كتاب كان، طالما أنه مصدر من مصادر حكايات العجوز.

Twitter: @ketab_n

كنَّا نهم بالرحيل عندما وجدنا "ياناوما" يفتش في صندوقه الخشبي الصغير أسفل الطاولة ويخرج من تحته مجلدًا نحيفًا متواضع الغلاف وقد كتب عليه بالأحمر "سقوط منزل أشر – الطبعة المصورة"[3]. قال لنا:

– الآن أعرف أن هذا الإصدار مهم بالنسبة لكما، ولكن لا تندهشا من هذه الهدية، فهي ليست لكما، بل هي لأختك الصغيرة. أعطها لـ"صوفيا" وربما أمكنك في يوم من الأيام أن تحضرها معك إلى هنا.

تركنا ضجيج الباعة وحاولنا ألا نتعثر في أكوام الكتب ونحن في طريقنا للخارج.

– قراءة سعيدة.

أتانا صوت "ياناوما" من على البعد:

– لا تنسَ أن تزور صديقك "كابيسيتا نيجرا".

سألني "دانيال" عمَّا إذا كنت قد لاحظت الهيكل العظمي الداكن على الطاولة.

– كان هذا أول ما لفت نظري.

– تعالَ، من هنا.

أخذني من ذراعي وبدأ يحصي كل هيكل من الهياكل العظمية الإثنى عشر والتي علمني كيفية التعرف عليها عند مداخل العديد من الأكشاك.

– إنَّها علامة، رسالة إلى أشخاص بعينهم وعليهم أن يفهموها.

– علامة على ماذا؟

---

[3] رواية من تأليف إدجار آلان بو.

Twitter: @ketab_n

سألته، دون أن أخفي حقيقة أنني بدأت أتضايق من أسلوب التخفي والغموض الذي استغرق فيه وهو يحدثني. عندئذ، حكى لي "دانيال" النصف الآخر من حكاية تجار الكتب العجائز.

- بعضهم ينخرط في صفقات تجارية خارج نطاق الكتب، وما الهيكل العظمي إلا علامة على أولئك الذين يشترون بضائعهم. إنها شبكة صغيرة، من عشرة أشخاص على الأكثر، يشكلون مافيا تتاجر في أعضاء البشر. لا تنظر لي هكذا؛ فهذه ليست قصة رعب: فطلبة الطب بحاجة إلى تلك الأعضاء في دراستهم، والجامعات لا تستطيع أن توفرها لهم. بيني وبينك، لن تجد أحدًا يقبل بالتبرع بجسده بحيث يمكن الاستفادة منه بعد موته، وكليات الطب تكاد تفيض بطلابها الكثر، وتعجز دومًا عن تلبية احتياجات طلابها. المشرحة هي المصدر الوحيد للجثث الصالحة للاستخدام، ولكنها لا توافق على هذا إلا بالنسبة للجثث مجهولة الهوية، وبعد أن تمر فترة من دون أن يطالب بها أحد. أما الجثث القليلة التي تجتاز هذه العملية فتصل إلى الكليات وهي على وشك التحلل، وهناك يهجم عليها عشرات الطلاب كالنسور الجائعة، أو هم أقرب إلى آكلي لحوم البشر، فيقسمونها ويتقاسمونها في دقائق، ويظفر كل منهم بغنيمته الصغيرة. وإذا رغب طالب في أن يدرس على راحته ذراعًا، أو ساقًا، أو رأسًا، أو قلبًا لا يزال يحتفظ بشكله البشري، فعليه بشرائه قبل أن تحوِّلَه المشرحة إلى الجامعة. والسبيل الوحيد إلى ذلك هو حجز ذلك الجزء المرغوب من الجسم مسبقًا، وهو السبب الذي يدفعهم إلى الحضور إلى هنا، بحثًا عن بائعين، يميزونهم بذلك الهيكل العظمي الذي يضعونه في بقعة مرئية في داخل أكشاكهم، فيعقدون معهم الاتفاقات اللازمة، بعد التأكد الكامل من كونهم طلبة طب،

Twitter: @ketab_n

وبعد ذلك بيومين، وبعد رحلة في سيارة معصوب العينين إلى منزل في مكان ما في المدينة، يتسلَّم الطالب بضاعته. ولا بد أن يصطحب معه صندوقًا مناسبًا لهذا الغرض، وإلا واجه خطر أن يتركوه في أي شارع وفي يده كيس بلاستيكي يحتوي على كُلى أو كبد أو حتى رأس ذات وجه مشوه، وعينين جاحظتين ينظران إليك بنظرة ساخرة متحجرة.

اجتزنا الشارعين الضيقين المتبقيين في صمت، بينما يوازن "دانيال" كومة الكتب التي اقتنصها، وعلى قمتها كتاب "إدجار آلان بو"، وقد بدا لي مسرورًا بما أوقعه فيَّ من رعب بعد قصته المرعبة التي حكاها لي منذ قليل، بينما أحاول أنا أن أتبين في وجوه البائعين المرحة المجتهدة وغير المبالية لأي خبث يمكنني من تمييزهم قبل أن أمسح بنظراتي الطاولات، وكتبهم، عند مدخل المكان، بحثًا عن الهيكل العظمي الداكن، أهو لطفل أم لقرد، من يدري؟ الذي يعتبر العلامة على اتجار صاحبه في هذه البضاعة، وأن كل تلك الكتب القديمة ليست سوى ستار. لكنني لم ألحظ أي شيء من حولي يجعل هؤلاء الباعة مختلفين عن أقرانهم. ومع مرور الزمن، وعندما أصبح واضحًا لي أن الصداقة بين "دانيال" و"ياناوما" تتجاوز الكتب والمكتبات، وأن العجوز قد بدأ يصبح وجهًا مألوفًا في "الدائرة"، أو يظهر فجأة في وسط خزائن وأرفف الكتب في المكتبة - غرفة النوم، أو يعقد صفقات سرية مع صديقي، ولم أكن مرتاحًا لهذه العلاقة، ولكنها في نفس الوقت مفهومة أيضًا. على الرغم من أنني لم أتمكن أبدًا من أفصل بين هذا العجوز وبين صورة الهيكل العظمي، لسبب لا أعرفه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

السادس

أكمل "دانيال" كلامه:

– ذات يوم، وصلت فتاة إلى المستشفى، لا بد أنها كانت في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها، نحيفة الجسد سمراء البشرة، لها نظرة فارغة، وترتدي دومًا شالاً خفيفًا زاهي اللون يلف ظهرها، ويمتد طرفه عبر كتفها اليمنى، بينما يمتد الطرف الآخر على جانبها الأيسر حتى صدرها، حيث الطرفين مربوطين، وكأنما تحمل على ظهرها طفلاً خفيًا. وخلال أيامها الأولى هنا لم تنطق الفتاة سوى كلمة واحدة، "هق"، كأنها أُصيبت بالزغطة؛ مقطع واحد طويل بدا لي أنه يخرج من آلة موسيقية مجوفة، تنطقها بكل عناية وتوجهها إلى كل من يقترب منها: "هق"، حينما يقترب منها أحد المرضين ويجذبها من ذراعها ليقودها إلى الكافيتيريا أو إلى أماكن التجمع؛ "هق"، في كل مرة يحدِّق فيها مريض بذاك الرعب المعدي الكامن في عيني مجنون. وبعيدًا عن هذه اللحظات النادرة، كان على وجهها تعبير معتاد من الذهول والبعد، ومن دون سبب ظاهر، تجدها تفك عقدة الشال وتسحبه عن ظهرها لتفرده على الأرض، عند أحد أركان الساحة، ومن ثم تقبع فوقه وقد كوَّرت جسدها، وتسند رأسها على حجر،

Twitter: @ketab_n

والصندل البلاستيكي لا يفارق قدمين متسختين جف فوقهما العرق، ومن ثم لا تنفك تئن وتتشنج حتى يغلبها النوم.

استمر هذا لأسابيع، حتى حانت لحظة معينة، خلال اجتماعات الدائرة بالمستشفى، بدأ فيها "دانيال" يرى في النظرات المثبتة عليه، وفي اللفتات العصبية من جمهوره، ظلال دمى ماريونيت ذات هيئات ملتوية ووجوه هزيلة، تجلس القرفصاء حول كومة كتبه، بينما وجد الفتاة وسطهم مثلها مثل الباقين.

- لهذا السبب، قصدتها ذات ظهيرة لأتحدث إليها، وأحضرت معي قطعًا من البسكويت، وجلست على بعد خطوتين منها في الممر، قبالة الباب رقم واحد، والذي كان بابها. سألتها عن اسمها، فنظرت إليَّ ولم تُعقِّب، وقد عقدت يديها تحت ساقيها، كانت راقدة على الأرض، وبعد ثوانٍ تمتمت: "هق" ببطء، بصوت مبحوح، ولم تقل غيرها، ولكنها تركت عينيها القذرتين تحدقان فيَّ للحظة، وشعرت حينئذ بأنني قد صرت حلقة الوصل بينها وبين العالم.

من يومها ظلا يجلسان معًا في نفس المكان، تفصل بينهما أربع أو خمس أقدام، في كل صباح، حتى من دون أن يتبادلا النظرات أو ينطقا بكلمة واحدة، كل منهما يسند ظهره إلى الجدار، في العنبر شبه الظليل، تمر عليهما أقدام وسيقان بقية المرضى، وخطوات الممرضين والممرضات المتسارعة، والصرخات، وصرير الأبواب التي تفتح وتغلق بين الحين والآخر، وشبكة عنكبوتية من روائح الأثير والكحول، ومتاهة من الآهات، وأصوات تتنافس فيما بينها لترتفع فوقهما، وتشكل هرمًا من الأصوات

Twitter: @ketab_n

المكتومة على امتداد الممر، إلى أن تتبدد فجأة ويخيم الصمت المتوقع، وحتى يحين موعد تشكيل الدائرة في الفناء وبداية طقوس القراءة.

- لكنها لم تقترب أبدًا من الآخرين، وعندما أخذت مكاني أمام هذا الجمع الواهم، وفتحت الكتاب المختار لأكرر قراءة السطور الأخيرة التي قرأتها بالأمس، وأربطها مع سطور اليوم، وجدتها تدخل من الممر وتمشي إلى الركن الآخر من الفناء، حتى تنام على شالها ذي الألوان الزاهية، وأخذت أتخيل النصف الآخر من رأسها، يظهر من بعيد، وراء صف أشباح جمهوري، ووجوههم الميتة، فقد كانت الحكايات التي أحكيها تستهلكني، وتبعدها هي عني، وتعيد تشكيل كل منا، أو هذا ما خُيِّل لي، وتغيرني وتغيِّر الكل من حولي: "دورية من الجنود تزحف عبر دروب القرية، وصرخة طفل في الظلام، وباب منزل تأكله النيران، وكلب مشنوق معلق على عمود نور، وصخب جيش الغرباء على الطابق العلوي، وخمسة وعشرون رجلاً وامرأة يقفون معًا في حفرة في الأرض، ومجموعة عسكرية تصوب بنادقها على بعد عشر ياردات". كانت القصص تتجسد أمامنا، أمامي وأمام تلك الأرواح التي استحوذ عليها الإنبهار بما أحكيه لهم.

وفي صباح أحد الأيام، اختصرت الفتاة الخطوات الخمس التي بقيت لمدة خمسة أسابيع تفصلها عن "دانيال"، و بادرته بتلك الـ"هق" ومدت يدها إليه، هناك ندبة بيضاء على راحتها، أشبه بمنقار "نورس"، وأظافرها متآكلة. دعته إلى أن يمشي معها نحو غرفتها ذات الجدران غير المغسولة، ذات الباب رقم واحد، وفردت شالها ذا الألوان الزاهية على الأرض، وأشارت نحوه بإصبعها، وهي تكرر كلمتها الوحيدة في تساؤل: "هق"؟

Twitter: @ketab_n

- لم أدرك أبدًا ما كانت تطلبه مني، أو إن كانت تنتظر أي رد فعل مني، أو ما ظنت أن بوسعي أن أمنحه إياها. كما شعرت أن هناك جسرًا امتد في تلك اللحظة بين جزيرتي الرعب التي كنا نسكنهما، وأنه سوف يأتي يوم يجتاز فيه واحد منا هذا الجسر. كنا لنسير معًا عبر الممر، أو نمارس التمارين الرياضية خلال المقاعد أو الفناء والشجرتين، وندخل القاعة الجماعية، ومن وقت لآخر ندخل غرف المرضى الآخرين، وكأن كلا منا ظِلٌ للآخر. تمسك بيدي وتحدق في الجدران والأسقف بشغف وتأمل، كمن يمشي وهو نائم فيصل إلى جدار فيأخذ في تلمس خشونة سطحه، حتى يصل إلى مدخل ممر سري يعود به إلى حالة اليقظة.

مكثنا معًا كل ساعة، وكل يوم، ولكن "دانيال" لم ينجح أبدًا في إقناعها بأن تنخرط في الدائرة: تلك الملائكة التي هبطت على طرف الساحة، وقد طوت أجنحتها، بينما قبعت هي في الطرف الآخر من الساحة، وهي ترقب حالة استحضار الأرواح تلك في رهبة.

- ليس بوسعي أن أفسر ما سأحكيه لك بدقة كاملة: فبطريقة ما، كان حضور الفتاة، وفترات الصمت الطويلة، والطريقة التي اعتدت أن أنظر بها في وجهها، وأن أراها وهي تنظر في وجهي، لساعات وساعات، كل هذا جعلني أفهم أنه قد آن أوان أن أحكي حكايتي.

ومن تلك الانسحابات إلى الممر وهيبة الدائرة، وحماسة أقرانها، وهواء المقابر الذي يهيمن على الساحة والعنبر بعد الغروب، قرر "دانيال" العودة ليلاً إلى جسد "جوليانا" والست وثلاثين طعنة، ليلتقي تلك اللحظة مجددًا، فقد مرت ثلاث سنوات منذ أن تحوَّل إلى شبح، محكوم عليه أن يحمل على ظهره وزر تلك الحياة البعيدة.

Twitter: @ketab_n

- أردت أن أربط بين الحقائق، وأحولها إلى سلسلة أسباب ومسببات، فقد كنت قاتلاً، وكثيرون يعلمون هذا، ولكنَّ أحدًا منهم لا يعلم السبب، ورغبت في أن أعترف بدوافعي لتلك الفتاة، ربما لأني آمنت بأنها لن تفهم، أو لأني افترضت أنها الوحيدة القادرة على الفهم. ولكني في كل مرة أقوم فيها بالتحدث إليها أجد الفتاة تحدق في بنظرتها تلك وهي تقول: "هق"، وكأنها تحذرني: "لا تجعل الكلام حاجزًا بيننا". ولهذا قررت أن أبوح لها بحكايتي بطريقة أخرى، وكنت أمضي الساعات وحدي قرب ضوء مصباح الزيت، أدوِّن مذكراتي، وأعيد صياغة الذكريات، مانحًا إياها كيانًا ومضمونًا، وتمنيت أن أعثر على من يقرأ أوراقي ويستمع إلى ما تبوح به، حتى يغلق تلك الدائرة الأخرى، وهكذا انهمكت في كتابة نص ألَّفته من الذكريات، وقصدت أن أجعله أقرب إلى مسرحية هزلية؛ عرض دُمَى ظاهره الكوميديا، وباطنه مأساة.

وهكذا، وذات يوم، جلس "دانيال" في هواء الساحة المنعش الرطب وأخذ يبوح بحكايته؛ فيحكي مقتطفات منها ثم يعود ليقرأ فقرات من الكتاب الذي اختار أن يقرأه عليهم هذا الأسبوع. ينطق كل حرف بصعوبة، يستحضره من ذاكرته، ويتقمص في لحظات روح المنشد الممثل، والذي أتقنه من مسرحيات الحرائق التي أجادها مع "صوفيا".

أعاد "دانيال" على مسامعي كل ما قاله حينذاك، عبر قصة طويلة مفرداتها رموز وإيهامات أنهينا بها حوارنا تلك الظهيرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

شرطي يصل إلى بلدة بين بحيرتين، حيث السماء انعكاس للأرض، ويمشي في شارعها الوحيد المهجور، يبحث عن مطعم، ويرى أن جميع منازل هذا المكان محترقة عن بكرة أبيها، مجرد رماد وفحم، باستثناء عتبة كل باب، ويرى عند كل عتبة جثة مُعلقة: سوداء محترقة كما الأنقاض من حولها، تلتف حول أعناقها الحبال والأسلاك، وتحت كل جثة طفل أو طفلان يسعيان جاهدين للوصول إلى أقدام المشنوقين. فكر الشرطي: حان وقت التنظيف، يجب أن تعود الحياة إلى البلدة من جديد. وتحرك، قرر أن يمكث هناك وأن يعيش؛ فتبنى الأطفال وأعاد بناء البيوت، وذات يوم، بعد أشهر، رأى عند سفح الجبل سلسلة سوداء من نقاط متحركة تنحدر نحو البيوت؛ أدرك أنهم رفاقه القدامى فامتلأ قلبه طربًا، وأخذ يلوِّح لهم، وعندما وصل الحراس إلى البيوت، كان هو أول من تلقى رصاصهم، ثم حملوا جسده وعلقوه عند عتبة الباب، وأشعلوه فيه النار، وعندما عاد الرجال أدراجهم، بقي هو في مكانه، بينما طفلان يسعيان جاهدين للوصول إلى قدمي المشنوق.

تنهَّد "جامع الكتب"، وأغلق الكتاب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

السابع

- هل هذا الطريق بطئ هكذا على الدوام؟

- على حسب الوقت الذي تسلكه فيه. مرات يُخيَّل إليك أن حياتك كلها تمر عليك وأنت في هذا الشارع، ومرات أخرى تعتقد أنه لا أحد موجودًا غيرك في هذا العالم.

خلال سنوات الجامعة البعيدة وقعت حادثة قلبت حياة "دانيال" رأسًا على عقب. كنا قد أمضينا المساء وجزءًا من الليل بين باعة الكتب في الممر، نتنفس الورق والبكتيريا ونقلب في أرفف الكتب، حتى أفلسنا تمامًا. وهكذا مشيناها من هناك إلى منزله، متعقبين مسار الشارع الحلزوني ومراقبين للمدينة وهي تغير من ألوانها ونسق حياتها، وكأنما تنبثق شيئًا فشيئًا من قلب مستنقع. يغطي العفن الأخضر منازلها ومبانيها، وبُقع سوداء مطبوعة على البوابات ومظلات النوافذ. وخيالات رجال الشرطة عند النواصي تتبدد، بمعاطفهم رملية اللون فوق المقاعد الإسمنتية، والكلاب المسرعة تنتشر في الشوارع، ويختبئ المجانين على الرصيف، وتجلس العاهرات على النواصي. كما تختفي المباني ذات النوافذ المكسورة، والجدران التي شوهتها

Twitter: @ketab_n

رسومات الجرافيتي، وأكوام القمامة، كل شيء يذهب، لتحل محله ساحات الحشائش والحدائق المحتضرة، ومنازل ملفوفة بأسلاك شائكة وشبكات مكهربة، ومنازل تحيط بها الأسوار المكهربة. لا يمكنك من الشارع أن ترى ضوء مصباح بها أو خيال ظل يتحرك في داخلها.

- هل تراهم؟

كان "دانيال" يحب أحيانًا التحدث عن جيرانه.

- أراهم.

- كما لو أنهم ليسوا بالداخل، كما لو أنهم مجرد صور معروضة على الزجاج من نقطة ما هنا في الخارج. أراهن أنهم ليسوا إلا خيالات. بل ومعجزة أن صورتهم لا تظهر مقلوبة، وكأنها انعكاسات على شبكية العين.

طقطق فقرات رقبته، وكأنه محترف سيرك يستعد للقفز على "الترامبولين"، قبل أن يستطرد:

- يحبسون أنفسهم بالداخل، ظنًا منهم أن هذا كفيل بسلامتهم؛ ينتظرون يوم القيامة، وكأن الرب سيدمر العالم كله ويترك منزلهم. ولأنهم يخشون الموت، فإنهم يدفنون أنفسهم في توابيت ضخمة من الخرسانة والألومنيوم ويقضون حياتهم كلها هناك، يحدِّقون في وجوه النفوس التعسة الأخرى؛ آباء وأطفال وأزواج. أقول ذلك لأن هذا هو حال عائلتي، وأتصور أن هذا هو حالي أنا أيضًا.

مشي "دانيال" وهو يفرك يديه، وكأنه ذبابة بشرية، منهكة هزيلة، متأملة.

- هل سمعت أي أحدٍ يتحدث عن فنادق الموتى في "ميونيخ"؟

Twitter: @ketab_n

دخلنا شارعه، لحظتها سمعنا صوت سارينة سيارة الإطفاء المزعج، وبعد ذلك بوقت قصير استمعنا إلى صخب وهرج ومرج مجموعة من الشبان يرتدون الزي الأحمر والأصفر لرجال الإطفاء. سلالم ومعدات وخراطيم مياه كلها متجهة إلى نوافذ الطابق الثاني، وعمود قوي من الضوء وكأنه يهبط من السماء على منزل "دانيال"، والذي تحولت الغرف داخله إلى أنبوب واحد من الدخان يتصاعد من الطابق الثاني نحو غيوم السماء. مرت لحظة بقي خلالها "دانيال" واقفًا إلى جواري، وبقينا مشلولين وعاجزين عن إبداء أي رد فعل للحظة، ولكنه أسرع فجأة نحو البوابة الأمامية ودخل إلى المنزل وهو يتعثر في حطام الأبواب وقطع الأثاث والنوافذ المهشمة، حتى اختفى وراء ستار من اللهب القرمزي. شعرت وكأن جلدي يتحول إلى صخر من الخوف، وشعرت بالجحيم في صدري ويديَّ وفي عينيَّ الدامعتين. سمعت عبر صفير خراطيم المياه كورس الصرخات والنحيب، وكأنها مئات من رسل الشؤم أو طيور الويل البرية أو أشباح حبيسة في قفص وتحترق حية، ولاحظت أن هناك جدارًا في الطابق الأول بجانب الباب يوشك أن ينقض، وقد تصدع محدثًا فجوة تكفي لمرور ذراع. وسرعان ما انهار الجدار وحدث انفجار، لتهيمن كرة هائلة من الغبار على كل شيء للحظات، وخيَّم صمتٌ لم يقطعه سوى خروج رجلي إطفاء من قلب النار، أحدهما يحمل بين ذراعيه جسدًا نحيلاً واهنًا، جسد فتاة، وكان لحم وجهها وذراعيها ظاهرًا. وما هي إلا ثوانٍ، وبعد تدقيق النظر في تلك الملامح المشوهة، حتى أدركت أنها "صوفيا"، أخت "دانيال".

أسرعت إلى رجل الإطفاء الذي كان يحملها، ورأيت عيني البنت مغمضتين، ويديها معقودتين فوق بطنها، وأخبرت رجل الإطفاء بأن

Twitter: @ketab_n

صديقي لا يزال بالداخل. فوضع الرجل "صوفيا" على الأرض، وعاد مسرعًا إلى المنزل. أتت مسعفة وفتحت فمها وأغلقت أنفها وقوَّست ظهرها قبل أن تدفع الهواء عبر شفتيها. كانت السنيورة "أولجا"، العجوز التي ربَّت "دانيال"، جالسة على الرصيف قبالة الشارع، وجهها سوَّده الفحم، وتنورتها ممزقة حتى فخذيها. وكان هناك طفلان على دراجتين يلفان حولها حائمين وعلى وجهيهما خوف أو هو اشمئزاز، يتتبعانها وكأنهما نسران حول جيفة. أمسكها شرطي من ذراعيها وساعدها على الوصول إلى سيارة دورية كانت تجلس على شنطتها فتاة في الخامسة عشر وهي تحدق في الحريق دون أن يَرِفَّ لها جفن. جلست على ركبتيَّ فوق العشب محاولاً النظر إلى "صوفيا"، الراقدة بلا حراك، وقد راح رونق تنورة "سندريلا" التي ترتديها من كثرة أقدام رجال الشرطة والإطفاء التي داست عليها، حينما سدد أحدهم ضربة قوية إلى صدرها فارتجف جسد "صوفيا" والتوى عنقها فصار موجهًا نحوي، يسيل من فمها لعاب بُنِّي أقرب إلى السواد. ارتجف فكها، وكانت البشرة تحت عينيها برتقالية اللون تغطيها الجروح، وشعرها أشعث. حوَّلتْ "صوفيا" وجهها نحو المنزل ثم نحوي، تحدق فيَّ، لثتها متكلسة وراء شفتين معطوبتين، على لسانها بثور وحروق، وبعد أن رمشت بعينيها عدة مرات، أغلقت جفنيها.

عندئذٍ وقع سيل آخر من الصرير، شظايا الألواح والعتبات المشتعلة التي أضاءت الليل، بينما كانت نوافذ الطابق العلوي ترمي علينا الشرر والحطام. ثم ظهر "دانيال" عبر الحطام وبين يديه كتابان متفحمان، ويغطي الفحم وجهه بالكامل، وقد ارتسم على وجهه تعبير دهشة غبي، بينما انغمست ملابسه في عجينة سميكة من رغوة الإطفاء وسواد الفحم.

Twitter: @ketab_n

كان والداهما في رحلة وشقيقاهما في الجامعة. لم يكن في المنزل سوى "صوفيا" و"أولجا" وخادمة أخرى، كانت أول من أسرع نحو الشارع متوسلة إلى من يسمعها من الجيران. خطا "دانيال" خطوتين عبر الفناء الأمامي، نحو الرصيف، قبل أن يخر ساقطًا فوقه، ووجهه الأزرق يحدق في الشارع، ودخان يتصاعد من ظهره، والدم يسيل من عينيه، ولعاب رمادي يسيل من بين شفتيه. أسرعت نحوه لأغطيه بمعطفي، قبل أن يبعدني رجلا إطفاء ويهتمان به. لم أدرِ بما مرَّ من زمن. كانت الحركة في المشهد تمضي ببطء. ها هو "دانيال" ومعه رجلا إطفاء. و"صوفيا" على الجانب الآخر من الشجرة التي تميز مدخل المنزل، يحيط بجسدها الضئيل مجموعة من رجال الشرطة والممرضات والمارة، بينما تصنع الأصوات موجة مد موحدة، سرعان ما تتوه وسط دوامة الحريق المستعر في الداخل، والتي تكابد للخروج إلينا. وفجأة، انفجر شيء ما في الطابق العلوي. سمعت صوتًا مخيفًا، كأنه زفير شديد يحاول التملص من أنفٍ تحت وسادة ضخمة تخنقه، وشعرت برذاذ من قصاصات الورق الرمادية يهطل علينا. بقيت في وضعية القرفصاء على العشب، وأوائل تلك الكتب المتفحمة تتساقط على وجهي ساخنة. احتميت في قميصي وتمددت على الأرض، ومن مكاني كنت أسمع كلمات "دانيال" المتحسرة، وأرى "صوفيا" وهي تكابد لتبارح غيبوبتها، وتفتح عينًا احترقت البشرة من حولها وسال منها الدم والعرق. كانت تسجل بعينيها كل تفاصيل هذا المشهد المتفجر والشهب التي صنعها ورق الكتب تمطر الشارع. كانت تنظر إلى كل شيء بانبهار وخوف لم ينجح قناع السُخَام ولحم وجهها المجروح من إخفائه. كانت منبهرة. لم أرها بهذه السعادة في حياتي.

Twitter: @ketab_n

ظل "دانيال" في المستشفى عشرين يومًا، لعلاج الحروق التي في وجهه وظهره ويديه، ولم يبقَ منها بعد ذلك سوى علامة صليب بُنِّية على جبهته، علامة دائمة، كما خلصوه من كتلة سائلة من الدمامل المائية والمجهرية التي غمرت رئتيه ومعدته. بعد ذاك عاش مع بقية عائلته – الكل عدا "صوفيا" – في منزل استأجروه إلى أن يعاد بناء المنزل. وكانت كتبه الناجية نواةً مكتبة جديدة، وفي هذه المرة أقنع والديه، وهو يبين لهم قدر ما ضاع من مال في الحريق، أن هوسه بجمع الكتب والمجلدات البالية يصلح لتجارة رابحة. ولأن والديه كانا على استعداد لتلبية أي طلب له حتى يخرجاه من اكتئابه وتعاسته، فقد وافقا على منحه ما يكفي من المال لبدء مشروعه. قال لي ذات يوم إن الحريق اندلع في غرفة نوم أخته، وكانت السنيورة "أولجا" قد سمعت حوارات كوميديا العبث المعتادة قبل كل حريق صغير يشعله "دانيال" مع البنت الصغيرة – وتلك الطقوس البدائية التي تبقيها هي وبقية الخدم صامتة بأوامر من "دانيال"، ولكن اللعبة انقلبت هذه المرة إلى مأساة تقشعر لها الأبدان. هذه المرة لاحظت "أولجا" أن الصوت لا يأتيها من الشرفة الخلفية، وأن صوت "صوفيا" هو الوحيد في هذيان الأناشيد الدينية والصيحات، وهو أمر لم يحدث من قبل. بادرت المرأة بفتح باب غرفة النوم بقوة فدفعتها للخلف دفقة هواء ضبابي ساخن قوية نحو أعلى السُلَّم. ومن هناك، في الجزء الخلفي من الغرفة، شاهدت "صوفيا" تنخرط في ضحك هستيري، ووهج البراءة في عينيها واللهب البرتقالي والأصفر يتراقص ليضيق عليها الخناق عند خزانة الملابس وراء الجدار الجانبي، حاولت "أولجا" الإقتراب من الباب مرة

Twitter: @ketab_n

أخرى ودخول الغرفة، إلا أن رفًا عاليًا من الدُّمى والعرائس المحترقة سقط عليها، مما أجبرها على الهرب.

أرجعت بعض الصحف الحريق إلى هجوم إرهابي، وربطت بينه وبين عدم استجابة والد "دانيال" لابتزاز جماعة مخربة. حكى لي "دانيال" هذه الحكاية وسط ضحكات لم يمكنني تفسيرها، فهو ضحية اكتئاب جعله يثرثر بقصة تلك الليلة كما لو كانت حكاية من زمن بعيد، تبث في نفسه السكينة.

حكت الخادمة الأخرى أن "صوفيا" كانت قد انتظرته طيلة الظهيرة، جالسة فوق فراش غرفة النوم - المكتبة، وهي تردد المونولوجات والحوار الذي سيكون جزءًا من كوميديا ذلك اليوم، وتجهز ماكيت برج الساعة، والذي سيكون ضحية الطقوس في مشهد الذروة. وبعد ساعات، يبدو أنّها بسبب الملل والمزاج السئ بدأت تصرخ بلعنات بصوت كاريكاتوري، وبذاءات أقلقت سنيورا "أولجا"- ولكن لم يدفعها هذا كفاية لتذهب لترى ما كان يحدث - وكانت "صوفيا" قد هبطت إلى القبو، وهي مستغرقة في ترديد ترنيمة غير مفهومة في مجملها والتي تصيب كل من يسمعها بسعادة مرحة، عدا اسم "دانيال" الذي قالته بغضب شديد، وهو ما ذكره السائق، الذي شاهدها هناك في القبو. حملت ماكيت المنزل الذي كان في القبو، ماكيت المنزل الذي يعيشان فيه، أول ماكيت لمنزلهما. "يكون الوطن حيث يوجد القلب"، هكذا علَّق "دانيال" بحزن - وصعدت به إلى غرفتها، وهي تقطع الطريق من القبو إلى الغرفة عبر الجراج ثم الطابق

Twitter: @ketab_n

الأول ثم الثاني، قبل أن تشعل النار فيه. كانت النيران التي أحرقت البيت المصغَّر هي التي أحرقت المنزل الحقيقي عن بكرة أبيه.

ومع مرور الأيام، بدأت "صوفيا" تختفي من حوارات "دانيال"، والذي بدا لي أنه يتحاشى ذكراها كلما جسدت له صورة الفتاة أمام عينيه. وفي أكثر من مناسبة سألته عنها، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة، أو كان يحول دفة الكلام ثانيةً إلى ما كان يتحدث عنه.

وذات يوم، خطر لي، ولا أعرف لماذا، أن أذكره بتلك الليلة، لحظة أن لمحنا أولى ألسنة اللهب، حينها كان يسألني، "أسمعت بفنادق الموتى في "ميونيخ"؟"

فكَّر "دانيال" لثانية، قبل أن يقول:

- بالتأكيد، كنت بصدد أن أحكي لك عنه لحظة أن رأينا الحريق.

سند بظهره على وسائد سريره، وأكمل كلامه وهو يتنحنح محاولاً تقليد صوت شخصية الحكاية:

- في "ميونيخ" القرن التاسع عشر تفشى وباء غريب، أو بالأحرى كانت حالة ذهان جماعي قد انتشرت. كانت هناك سلسلة من الحوادث وكأنها فرت حالاً من رواية قوطية، أناس لقوا حتفهم في يوم، وفجأة، بعد يوم أو يومين، وخلال مراسم التشييع التي تسبق دفنهم، ووسط أقاربهم المتشحين بالسواد، ينهضون من توابيتهم وعلى وجوههم تعبيرات حيرة وأسى، ويتساءلون عمَّن دبَّر لهم هذه المزحة السمجة المجنونة. وسرعان ما ينصرفون في تذمر لمنازلهم لإتمام ما كانوا قد بدأوه قبل وفاتهم. تم تشخيص حالتهم بأنها غيبوبة عابرة، صرع، جمود شديد ولكنه لحظي،

Twitter: @ketab_n

وكانت الصفة العشوائية والمثيرة للفضول هي تكرار الحالة لدى كل مريض في أماكن معينة وخلال فترة قصيرة من الزمن. ورغم محاولة الأطباء تقديم تفسير لما يجري، إلا أن قناعة الناس كانت هي أن هذه أفعال الشيطان أو ربما هو نذير من السماء. كان الأمر سيان لأن تلك الحالات أظهرت الموت للناس في حالة خادعة وهشة، وتحدث صدفةً، وفي أحيان أخرى يكون الموت قصير العمر، ولهذا السبب بالذات أصاب مصممي التوابيت هوس جعلهم يصنعون توابيت مزودة بأبواق وأجراس، حتى يتسنى للميت تنبيه الأحياء وهو قابع تحت الأرض، في حال استيقظ من موته مرة أخرى. وصارت القبور التي تُحفر مزودة بمهرب، وكانت التوابيت مُزودة بآلات شفرة "مورس" وتم توصيلها بخطوط تلغرافية عند سطح الأرض، ووصل مرض حب الموتى المجنون هذا إلى ذروته مع ظهور فكرة "Leichenhauser"، فنادق الموتى. كانت في البداية مساحات صغيرة من الأرض بها مخازن للطعام وآبار مياه، وغرف نوم مفروشة، وغرف معيشة، وحمَّامات، وفيها يتم إيداع جثث الموتى حديثًا لفترة معقولة من الزمن، ما بين أسبوعين وشهرين، أملاً في أن يستيقظوا مجددًا فيجدون عندئذٍ ما يحتاجون إليه لاسترداد قواهم، حتى يتمكنوا في النهاية من استقلال عربة من عربات الخيول عائدين إلى المدينة. ومع مرور الوقت، صارت الفترة الزمنية المخصصة تطول، ومعها ازداد تطور تلك الفنادق. وحوالي عام 1865، كما يذكر أحد المؤرخين، وإن بالغ، أن منطقة فنادق الموتى، والتي كانت إلى الجنوب الغربي من "ميونيخ"، قد اضحت تشغل مساحة تضاهي في حجمها مساحة وسط المدينة القديم، وصار بها مزارع دواجن وقصور من ثلاثة طوابق، وشارعان أو ثلاثة

Twitter: @ketab_n

مرصوفة بالبلاط القوطي، وأن الهياكل العظمية للبغال والجياد النافقة بقيت كما هي عند العربات أمام أبواب المنازل، بغية أن يستخدمها مُلّاكها الأموات عبر هذه الشوارع الكابوسية. وكان هناك ممر يربط بين "ميونيخ" وأرض الموتى، والمارَّة الذين يعبرون بين هنا وهناك، في اتجاهين متعاكسين، ولا أحد يعرف إذا كان من يلاقيه في الطريق حيًا في طريقه للموت أم ميتًا عاد إلى حياته، فلا فارق بين هذا وذاك، ولا أحد يمتلك مقدرة التمييز بين الموت وخياله. إسقاطات الموت، هي حياة الأحياء.

ترسم السنيورة "أولجا" الصليب بين كلمة وأخرى، كانت هي أول من حكى لي بالتفصيل ما حدث لـ"صوفيا"، وكان هذا بعد قرابة عام من الواقعة. ورغم أن الفتاة قد نجت من الموت، فإن الحريق شوَّه وجهها. وترك أثره على أطرافها وزاد عضلاتها وهنًا، وتحولت من فتاة متمردة، لعوب غضوب إلى كائن صامت ضعيف مستكين، مقلق لأولئك الذين يعيشون معه، خاصة وقد تجمد تعبير وجهها على ابتسامة طفولية قانعة منذ ليلة الحريق، فقد انطبعت على وجهها الذي صار بلا ملامح، يوقف شعر الممرضات من الخوف، ويصيب زوارها بالقشعريرة.

المرَّة الوحيدة التي تكلمت فيها كان كلامها مُوجهًا إلى "دانيال" أمام والديهما:

- الآن صارت غرفة نومي مركز العالم، وسوف تكون مساعدي. لقد دوَّنت بالفعل قائمة بأسماء الملعونين.

وفي تلك الليلة استقرت العائلة على قرار إيداع "صوفيا" إحدى دور الرعاية ما إن تخرج من المستشفى. وفي الأيام التي أعقبت ذلك القرار،

Twitter: @ketab_n

بحثت أمها بعد أن استشارت الأطباء عن دار مناسبة إلى أن وجدت واحدة للأطفال الأثرياء في ضواحي المدينة، في مكان صغير مُريب تحيط به أسوار حجرية. مبنى مُكوَّن من ثلاثة طوابق تميزه النوافذ المقوَّسة، ويسكنه عشرون من الفتيات شقراوات وحمراوت وسوداوات الشعر، ضحايا الشرور، غير قادرات على ربط أحذيتهن أو النظر في المرآة، والتحقت بهن "صوفيا" بعد أن سترت وجهها بحجاب أبيض لا ترفعه إلا بغرض تخويف الأخريات بتلك الابتسامة الدائمة والسبابة الممدودة في حركة سؤال صامت في كل مرة تنجح فيها إحداهن في إثارة غضبها بالغمز واللمز على جسدها ومشيتها. وبعدما تحدث موجة الفزع العابرة هذه، يعود لـ"صوفيا" مزاجها الرائق؛ فتنطلق بخطوات متسارعة نحو الحديقة، حيث تشدو بواحدة من ترانيم الحريق القديمة تلك وهي مستندة إلى شجرة، تعانقها بذراعيها، بأحضان بشوشة لا يعبر عنها وجهها، وتبقى على تلك الحال من دون حراك، وكأن الفتاة التي تحول لون بشرتها إلى مزيج من الأحمر والبني وحمل العديد من الندوب والجروح، قد توحدت مع جذع الشجرة، تريد أن تكون جزءًا منها، وحينما حاولت المرضات إبعادها من هناك، وإنهاء هذا الحضن المستمر، وإعادتها إلى الدار، تحولت "صوفيا" إلى أحفورة انطبعت على جذع الشجرة، وارتعدت المرضات حينما سمعن صوت تهشم عظامها الصغيرة وتمزق عضلاتها. يعقب كل حادثة يوم طويل في السرير، ترقبه "صوفيا" يمر وهي بلا حراك، تستقبل بابتسامتها الثابتة وعينيها المغلقتين وصول سرب الناموس، التائه في تيارات أشعة الشمس، ليرتطم بزجاج نافذتها، وبينما كانت في وضعها هذا، بدأت عظامها تلتحم مع بعضها ومفاصلها في العودة إلى

Twitter: @ketab_n

أماكنها، وتلتئم أنسجتها العضلية، ولكنها قد استحالت أقصر أو أطول من ذي قبل، وبعد بضعة أسابيع، عندما تمكنت "صوفيا" أخيرًا من الجلوس ومبارحة الفراش، كانت قامتها قد صارت أكثر غرابة وجذعها أحدب، ومشيتها تصيب من يراها بالصدمة.

عن نفسي، وجدت نهاية هذه القصة غير قابلة للتصديق لولا أن عديدًا من الصحف نشرتها: كانت "صوفيا" في عامها الرابع هناك، وتقترب من الخامس، تعيش في غياهب النسيان، حتى جاء صباح أحد الأيام ذهبت فيه الممرضة لتوقظها وتساعدها على تغيير ملابسها، كما هو معتاد بهذه الأماكن، قبل أن تصحبها إلى الإفطار مع بقية المريضات، ولكنها لم تجد الفتاة في الفراش، بل وجدته فارغًا مرتبًا، وعثرت فوق المنضدة على منزل مصنوع بعناية فائقة من الورق الشمعي، وقد ميزت نوافذه وأبوابه بألوان الشمع، وإلى جواره علبة ثقاب وبطاقة تحمل اسمها.. "صوفيا"، وقد ضخمت النقطة فوق الحرف "i" بقلم أحمر عريض، وكأنها نقطة دم اتخذت شكل قلب. ومنذ اختفائها عن المشهد بهذه الطريقة، التي اعتقد البعض أنها اختطاف، وآخرون اعتبروه هروبًا، وهناك من قال إنه انتحار أو قتل، التزم "دانيال" الصمت عن أي شيء يتعلق بأخته. وطيلة تلك السنوات الخمس عشرة، وحتى في اللحظات التي تترقرق فيها عيناه بالدموع، كان واضحًا لي أن صورة "صوفيا" قد استقرت في ركن سحيق من أركان ذاكرته فرض عليه السكوت. أما أنا، فلم أجرؤ على السؤال.

Twitter: @ketab_n

الثامن

قال لي "دانيال"، متابعًا كلامه في الظهيرة التالية، ونحن في المستشفى، وقد سادت شبورة خفيفة في الخارج، بينما سال خيط لعاب من جانب شفته السفلى:

- عليَّ أن أخبرك بما هو جديد. من كان يظن أن حياتي ستصل إلى هذا الحال من السوء؟ ولكن هذا ما جرى، ولهذا اتصلت بك.

عقد ذراعيه واستند بهما إلى الأرض، ثم دفع جسده لأعلى، ثم للأمام لينهض ويأخذ طريقه نحو الصالة الفارغة، يداه وساقاه ممسوسة بارتعاشة مستمرة، وبتجانس يذكرك برنين مفتاح بيانو مشدود للتو. وسرعان ما اختفى في الردهة ومشيت وراءه، نحو ضوء غرفته الأصفر. ومرة أخرى كنت أنا في الكرسي، وكان هو على الأرض، وحينئذٍ قرر أن يفسر لي سبب اتصاله بي بالأمس.

قال:

- في ذلك الوقت، وحينما انتهيت من قراءة حكايتي، وتفرقت الدائرة كعادتها كل ليلة، مضى المرضى الذين تخلوا عن جنونهم، بدأت تخرج من

Twitter: @ketab_n

أفواههم أصوات غير واعية مجددًا، واختفوا شيئًا فشيئًا وراء أبواب غرفهم، أي لا شيء غريب، الروتين العادي في العنبر.

ولكن "دانيال" بقي في مكانه يفكر في عبثية حكاياته:

- لقد سمعها الآخرون من دون إبداء أي تعبير، استحوذ عليهم المرض؛ الشيزوفرينيا والذهان تركا أثرهما، وكأنه طلسم هيروغليفي يستحيل فكه. كانت وجوههم أوراق تعج بكتابات، وحشرت فيها الهوامش والإشارات حشرًا، وأي عاطفة جديدة تتوه في تلك الشخبطة على السبورة العقلية التي انعكست على وجوههم. مكثت هناك للحظة. كنت أشعر بالحزن، ولديَّ انطباع معقد بأنني قد انفصلت قبل الأوان عن الشيء الوحيد الذي أمتلكه كليًا، وأنني قد فعلت ذلك ببداية غير منطقية، كانت مغلفة بكلمات لا تعبر عني، أو حتى تحميني، ولكنها ترتفع مثل جدارية في وعيي وعقلي الباطن، ولحظة أن نهضت بنية العودة إلى غرفتي أدركت أن الساحة لم تكن خالية تمامًا، فقد كانت هناك، راقدة على ملابسها زاهية الألوان، وقد أسندت رأسها إلى حجر مطلي، وعيناها دامعتان، وهي تئن بصوت مقهور: "هق".

رأى "دانيال" الفتاة، كانت لا تزال مستيقظة، وواتته فكرة سخيفة؛ قد تكون قد فهمت حكايته واستوعبتها؛ وإلا فكيف يمكن تفسير أنينها، ويداها المعقودتان فوق نهديها، تحاول طمأنة نفسها، كأنها مستغرقة في التفكير، حتى إنها تسعى بين جنبات عقلها تحاول سد أذنيها بأصابعها النحيلة - أشبه بمخالب القوارض الصغيرة، تدسها داخل أذنيها - كما لو أنها تريد أن تخرج تلك الكلمات التي سمعتها من رأسها في الحال. جلستُ

Twitter: @ketab_n

إلى جانبها. كان الجو ضبابي، مثلما هو اليوم، ووضعت يدي فوق يديها، وقلت لها مُواسيًا إنها مجرد حكايات، كلام، لا تشغلي بالك به. كنت أكلمها وأنا لا أدري ما يدور في عقلي من أفكار، وما إذا كنت في الحقيقة سعيدًا لأنني وجدت من قد يكون فهمني.. أيكون هذا هو الجسر الذي سيربط بين جزر الفزع هذه؟ أو ربما داهمني الأسى، والوهن والتعب، أو الفراغ، وأن الحقيقة هي أنني قد نقلت الحكاية من روحي إلى روحها، فأضحت ملكها الآن. هي تحسُّ بها أكثر مني، وتراها حقيقية، ولذلك تعاني بسببها؛ الأمر الذي عجزت عنه بعد كل ما تناولته من أقراص وأدوية لإجبار نفسي على نسيانها.

حدث هذا قبل أسبوعين؛ واستمرت جماهير الدائرة المجانين في الحضور بعد ظهر كل يوم، وبقيت ظلال تلك الشخوص الهستيرية تتحلق حول "دانيال"، وصارت حكاياته تتحدث عن الجنود والأبطال الشعبيين والجماعات الشعبية، والإرهابيين، والمُهمَّشين والمشردين والمهاجرين، والمشلولين، والعميان، في حكايات تنسج خيوطها من خرافات، ولكنها تجعل الفتاة مستغرقة في آهاتها، وقد اتخذت وضع الجنين في أبعد ركن من الفناء.

– غير أنه كان هناك تحوُّل ما؛ لاحظت ذلك والدائرة تتفرق في كل مساء، ففي الليلة التالية وجدت مجموعات المرضى جالسة محتشدة على الأرض، مكونة كتلاً من الظلال، يتمتمون ويهمهمون، أو يتفرَّقون ليتجمعوا من جديد وراء المصطبة، في حمى البوابة الرئيسية، مختبئين وراء رقع العشب

Twitter: @ketab_n

على حافة الصالة المرصوفة، وكأنهم يناقشون أمرًا ما، أو يتفاوضون حول صفقة بلغة أضحت فجأة وسيلة التواصل المثلى بينهم.

في كل مرة يراهم فيها "دانيال" وهم يرددون عبارات متقطعة، بعيدًا عن موضوع الحكايات التي كان قد قرأها عليهم، كانوا يهبُّون نحوه قافزين في وجهه: "الذاكرة تنغلق على ذاتها، مثل حية ملتفة على نفسها". سمع ذات مرة: "قوقعة الحلزون في أذنك صغيرة مثل ثقب رصاصة". فهم ذات صباح، وفي مساء آخر سمع أصواتًا أخرى: "الشيء الذي كان في هذا الجانب هو أنا: "آلة اغتصاب"، هذا مثال، وفيما بعد سمع: "عجينة مدبوغة ومجففة ومقسمة شرائح بكل جودة، هكذا تصنع الورق الناعم"، ولكن دائمًا، وفي نهاية كل جملة، وهم يشعرون بأن هناك من انتبه إليهم، كما يقول "دانيال"، كان المرضى يتحولون برؤوسهم نحوه، وعند رؤيته يسكتون برد فعل سريع وتلقائي، وسرعان ما يعودون وبكل قوة إلى الانغماس في أدغال الصمت.

- مشوا عبر الساحة، كعادتهم، وأعينهم زائغة في بلاط الإسمنت، ولكن فجأة يتجمَّع ثلاثة أو أربعة منهم معًا، في أي بقعة، وتصير أصواتهم مسموعة في كل جنبات المستشفى.. "كانت المدافن ضخمة لدرجة أنها طالت البيوت والشوارع"، فهمت عبارة كهذه ذات مرة؛ أحيانًا ما يقطع كلامهم ضحك هو وليد الصياح والغرغرة، ولم أتمكن من تبيُّن شخوصهم، ولكني أشعر بوقع خطواتهم وهي تتخافت عبر الردهة، ومن ورائها الضحكات، وكنت أسرع خلفها، ولكني أكتشف أن صفوف الأبواب البيضاء والرمادية مغلقة، ولكني أسمع الهمهمات والضحك الخبيث خلفها.. "أنا أعمى، ولكني رأيت (خوان)، الأخ الغائب"، سمعت وتعقبت خطواتي، وخرجت إلى

Twitter: @ketab_n

ساحة الحصى والرمال، وأمضيت الساعات أفكر تحت ظل وهمي لشجرة، بينما يصيح أحد المرضى من بقعة ما في العنبر يستحيل عليَّ تحديدها.. "كان عليك قتل المرأة التي أحبتك"، وعندئذٍ، وفي وخم المستشفى، هبت الرياح فوق العشب النابتة بين الحجارة، وانتظرت الساعات لتمر إلى أن حل الظلام، وبقيت أنتظر أن يغادر أعدائي مخابئهم، مرتدين وجوهًا مختلفة، ليتحلقوا من حولي ليسمعوا كلماتي من جديد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ذات مساء، غادر "جامع الكتب" برجه ليتمشى في المدينة، وسار في طريق طويل متعرج يضيق كلما مشي فيه، وكأنه حية ماكرة. مشي ومشي. وجهه في مجلداته، مستغرقًا في رواية أو في كتاب تاريخ، لا فارق: يقرأ "جامع الكتب" أسطورة رجل مصاب بجنون العظمة قام بتقسيم شعب مملكة إلى جيشين ثم أقنع الفريقين بأن يتقاتلا. وهكذا توالت المعارك الصغيرة، وفي نهاية المعركة الأخيرة بقي الطاغية وحده واقفًا وسط المدافن. وهو يقرأ هذه الجملة الأخيرة، قرع "جامع الكتب" باب منزل، أو هو فندق، يصعب عليه التمييز، ولمح بالكاد ظل امرأة وراء نافذة، بين زهور صناعية وصوت الموسيقى، وصوت أناس آخرين من ورائها، وسمعها ترحب به، وتناديه أن يصل إليها، ونظر إلى المرأة باحترام يخلو من أي شك، وتأملها لحظات، ثم سار مبتعدًا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

التاسع

- ها نحن ذا وصلنا، نعم هو وصول متأخر، لكنه أحسن من عدمه.
- هل توجد معك فكة؟
- سائق التاكسي الناصح لا يحمل الفكة.

منذ سنوات ليست بعيدة، اختفى المبنى الذي يضم "لا فيرداد" في وسط ظلال المباني الملاصقة له، وحاجز مزدوج من شكائر الإسمنت وعربات الشرطة، وتلمح طوابقه الثلاثة الضيقة وشرفاته الخشبية البالية، ونوافذه الزجاجية التي لطختها فضلات الطيور التي تتخذ منها مدرج إقلاع نحو الشارع والمارة. عدد كبير من الغرباء يعبر الشارع، طوال الوقت وفي أي وقت، وجوههم منكسة، مسرعين أو هائمين، وكأنهم يجتازون أرض معركة ويخشون أن تنهض جثث الأعداء من موتها لتنقضَّ عليهم تفترسهم.

"سباستيان ميرو"، مؤسس الجريدة ورئيسها التنفيذي، من الأرستقراطيين الذين يتبعون حزب المحافظين، وهذا الأمر جعله يبدو كالبطة لسوداء في مجتمع يرى كل من ينضم لحزب المحافظين مغفل

Twitter: @ketab_n

يدافع عن مجموعة من المغفلين البرجوازيين الوضعاء، والذي بالطبع كان أسوأ كوابيس الأرستقراطية. خلال السنوات الأكثر عنفًا، لم تغير الصحيفة من نهجها المتغطرس، وموقفها العدواني الذي جعل منها خصمًا لتسعة وتسعين في المائة من البلاد، وهاجمت الحكومة والأحزاب السياسية بنفس الحدة التي كانت تهاجم بها النقابات والجماعات التخريبية، ولذلك كان من الصعب تحديد الجهة المسؤولة عن الانفجارين اللذين حطما جراج الصحيفة ومستودعها والنوافذ الزجاجية الملونة في القاعة الأمامية. كانت معجزة معمارية أن تبقى البناية والمنارتان في وسط الشارع قائمة؛ ولكن المحررين والمصورين وطاقم السكرتارية يقولون إن السر هو أن "ميرو"، أول شريك في "الدائرة"، وهو رجل ضئيل الجسد تخطى السبعين، يسير محني الظهر كالخُطَّاف، ولا يزال قادرًا على صعود السلم المكون من ثمانين درجة والذي يقود من الرصيف إلى مكتبه خماسي الجدران في قمة المبنى، حيث ينجز مهام عمله: مكتب هادئ لا تعرف ما يدور بداخله، ولكنه مع هذا له سلطة كبيرة، وفيه يوجد شيء غير مستقر وغير متجانس يحتل نصف مساحة المكتب والذي يبدو كأنه بيانو من نوع ما، تغطيه ملاءة بيضاء. وتنتشر على الجدران صور تعرض جميع مراحل عمر الرجل العجوز من فتوة الشباب وحتى ذبول الشيخوخة: "ميرو" وهو صبي صغير وسط الوزراء والسفراء في عصر قديم، وهو رجل مع زوجته التي رحلت عنه منذ سنوات عديدة، ومع طفل يبدو أكبر سنًا منه، وهو عجوز مع ابن أخ صغير كنت أعالج مشكلاته اللغوية منذ فترة. وهناك التقيته، من دون ازدراء، ولكن أيضًا من دون ود، حينما توجهت لزيارته منذ بضعة أيام، بعد حواري الطويل مع "دانيال" –

Twitter: @ketab_n

والذي أردت استكماله في ظهيرة اليوم التالي – وكنت أقصد من الزيارة، أن أتحدث إليه عن صديقي وعن "جوليانا".

تقابلت هي و"دانيال" في هذه الجريدة، في تلك الأيام، عندما كنا نذهب مبكرًا صباح كل أربعاء لتسليم أعمدته الصحفية إلى "ميرو". كانت كتابات غريبة بعض الشيء، مغايرة للموضة الصحفية التي كانت سائدة، حيث كان "دانيال" يستخدم نظريات الآخرين للرد عليهم، حتى يشرح، مستعينًا ببعض اقتباسات خالدة، ذلك النظام المركب للجرائم وأعمال الانتقام المتزايدة الذي يشكل، كما يقول، تاريخ البشرية. كان "ميرو" سعيدًا بنشرها، ويتخيل الضجة التي ستحدثها قراءتها. كانت "جوليانا"، في ذلك الوقت، في الثالثة والعشرين. وكانت قد نالت حديثًا شهادة الفنون الجميلة، وكانت الوظيفة في الصحيفة هي أول وظيفة لها. تسلمت مكتبًا بسيطًا جميلاً في الطابق الأرضي، مع طاولة مضاءة كبيرة ولوحة رسم مستطيلة، فوقها زجاجات الألوان والفرش ورزم الورق الأبيض والبطاقات، مع مصباح مخروطي صغير على كل سطح، وكانت مهمتها الوحيدة هي تقديم الرسوم التوضيحية التي تصاحب مقالات الرأي الافتتاحية. ولهذا السبب، طلبت منه أكثر من مرة أن يوضح لها مضمون مقالاته الحماسية الثورية البهيجة، فيشرح لها مبتسمًا بأمثلة مراوغة، مع ارتعاشة عصبية في يديه وصوته، بطريقة تدفعها إلى أن تصرف النظر عن مزيد من الضغط عليه، بل وقد تشعر بالذنب لتفكيرها في طلب ذلك الشرح، وكان يتركها دائمًا في حالة شك من أن "ميرو" قد منح لهذا المجنون تلك المساحة في الصحيفة بدافع الشفقة أوكنوع من المزاح، أو أن هذه واحدة من الحالات التي تحمل مفارقة أن يحوز إنسان ذكاء متقدًا، بينما يفتقر إلى أبسط قواعد التواصل

Twitter: @ketab_n

مع من حوله، أصم أبكم تفوح منه رائحة العرق، ينتقل من حالة الصمت المشلول إلى الثرثرة الصاخبة في لحظة، من دون أن يتسنى لمن حوله أن يتبين السبب العجيب وراء هذه النقلة المفاجئة.

على مدار السنوات الثلاث الأخيرة، لم أبتعد عن "دانيال" فقط، ولكن كذلك عن أقرب أصدقائه، خشية أن يلومونني بسبب هجري له بعد انهياره ومقتل "جوليانا". أما الآن، وقد أنهيت حالاً زيارتي للمستشفى، وبعد حكاية "دانيال" الطويلة المهمة، والتي لم تفسر لي أي شيء، بل تركتني مصدومًا مشوشًا، شعرت بحاجة ملحَّة إلى تعويض ذلك الزمن الضائع: كما لو أن الحكاية التي حكاها "دانيال"، مليئة بالرسائل الرمزية والتلميحات المبهمة، قد صدمتني فأيقظتني، كما هو حال أنواع علاجات معينة لأولئك الذين يكبتون عواطفهم.

فجأة، وبعد سنوات من الابتعاد، شعرت بضرورة أن أتحدث عن "دانيال" وأن أسمع ما يريد أصدقاؤه أن يقولوه عنه وعن علاقته بـ"جوليانا". ورأيت أن يكون أول لقاء مع شخص، مثل "ميرو"، كان حاضرًا زمن أن التقى الزوجان ببعضهما لأول مرة، وكان يشعر نحوها بالإعجاب؛ شخص كان على وشك أن يتنصل من أي صلة به، وقت أن وقعت الجريمة. تمامًا كما فعلت أنا. ولم يندهش "ميرو" من حضوري، كما أنه لم يكن متفاجئًا عندما شرحت له الدوافع وراء زيارتي له؛ فقد بادر باصطحابي في رحلة عبر الزمن يحكي لي خلالها عما يتذكره مما جرى.

قرر "ميرو" أن يبوح لي بالسر الذي أخبرته إياه "جوليانا":

Twitter: @ketab_n

- ذات صباح خلال سنواتهما الأولى، غادرت المكتب مبكرًا عن المعتاد، ومشيت مسافة عمارتين متجهة إلى حيث ركنت سيارتها، وحينما وصلت إليها في موقف السيارات المجاور، رأت "دانيال" جالسًا على دكة فوق الرصيف، وسط كومة من الكتب المفتوحة كما هي عادته، وبيده دفتر وإلى جواره فنجانان من القهوة، ورغم أنها حاولت أن تراقبه من دون أن يراها، فإنها وجدته يناديها باسمها، "تعالي، لا تذهبي، تريدين قهوة؟ لقد طلبت هذا الفنجان لكِ"، فجلست إلى جواره، وهي تشعر بسذاجتها لاقتناعها بطلبه، ولكنها أدركت بعد أكثر من ساعة أنها لا تزال جالسة إلى جواره، تسمع حكاياته. وفي لحظة معينة، رغبت في أن تسأله عن السبب وراء هذه النقلات المفاجئة ما بين القلق والحماس، وبين الصمت وغرابة الأطوار، وهو ما يجعل "دانيال" في نظرها أشبه بدمية محشوة ملقاة في صندوق سيارة يقرر لاعب العرائس فجأة أن يسحبها لتؤدي دورًا مرسومًا قبل أن يعيدها من دون سابق إنذار أيضًا إلى مكانها الأثير، ولكنها لم تسأله، فقد اكتشفت أن "دانيال" يقرأ أفكارها، حينما أجاب عن السؤال الذي لم يسمعه منها متطوعًا: "يبدو أن الناس تظن أنني أعيش فوق سطح القمر، وأنني مغيب عن كل ما هو حولي، وأن عالمي صغير محدود، وأنني غير متزن ومشوش بسبب كل هذا الجنون الذي أجده في الكتب، والأشياء التي أطرحها في مقالاتي، أو ما أجمعه في منزلي أو في مكتبتي. الحقيقة أن كلامهم صحيح في جزء منه. أعترف لك بأنني مهووس بالتاريخ والفلسفة والأدب، ولذلك يراودني إحساس بأنني أضحِّي بكل مهم لأجل تلك اللحظات من الماضي، وهو إحساس لو تعلمين أليم، وأصارعه كل يوم، فأدفن نفسي بين الورق لأخرج بين الحين والآخر

Twitter: @ketab_n

بفكرة جديدة، تكون في الغالب بعيدة كل البعد عمَّا يسميه الناس الواقع والحياة، حتى آمن الكل بأنني لست سوى مخبول هائم على وجهه وسط ممرات مكتبة بابل. الحقيقة لست كذلك. أنا لا أرفض أن أتعامل مع العالم من حولي؛ ولكنني أرفض أن أتظاهر بأنه أهم من أي شيء، تفهمين؟ تلك اللحظات من الماضي أو من المستقبل، تلك المشاهد غير الواقعية من الحكايات، والأحلام، والمشاريع التي ينحيها المرء جانبًا كل يوم، ولكنها تبقى موجودة رغمًا عنا. كلها عوالم لا تقل عن هذا العالم في شيء، وأنا لا أتجاهلها أو أحط من شأنها. لذلك رأيت أنني لو عشت في عديد من الأمكنة في وقت واحد، فعندها يكون لي عذري لو أنني غبت عن هذا العالم من وقت لآخر، ما رأيك؟".

استطرد "ميرو" في حكايته بصوته المبحوح الذي تشعر بأنه يتحول إلى غبار ما إن يفارق شفتيه:

- "لم يسبق لـ"جوليانا" أن استمعت إلى "دانيال" أبداً وهو يتحدث عن نفسه، ووجدت نفسها مهزومة أمام رغبتها في التعاطف مع صديقنا، أغرتها كلمات "دانيال"، فانغمست فيها تمامًا وكأنها مستغرقة في رواية. قال لها "دانيال": "سأخبرك بنظرتي لنفسي، أو بالأصح كيف أحب أن أرى نفسي: أنا شخص له عدة أجساد في آنٍ واحد، يجمع بينها شبكة معقدة للغاية تتماس مع العديد من العوالم الموازية في عدد لا حصر له من النقاط. أما وظيفة هذه الأجساد السيامية فهي أن تتلامس مع كل شيء، لتتحد مع كل شيء، لتشمل كل شيء، ولهذا فإنه من الضروري أن أدربها، حتى تتعلَّم الأجساد شحذ حواسها، ولتعتاد على الطرق التي يجب أن تتحرك بها مفاصلها، وأن على أطرافها أن تكون مطاوعة، وأن تكون

Twitter: @ketab_n

بطونها مشدودة، حتى يتسنى لها أن تستطيل فتصل إلى أي مكان. وأنا عندما أقول جسد، فإنني أعني الروح: لا بد أن تصل روح الإنسان إلى كل مكان. أليس هذا منطقياً؟". أجابته "جوليانا" بأن هذا ليس من ضروريات الأشياء.. "لا بأس، دعيني أعرض لك مثلاً. أراهن أنك لم تسمعي من قبل عن متلازمة (اهلرز دانلوس)، تعرفينها؟".

غلبني الحزن حينما وصل "ميرو" إلى هذه النقطة: لقد كانت متلازمة "اهلرز دانلوس" هي المرض الذي ابتليت به "صوفيا"، ذلك المرض الذي أجبرها على حياة غريبة الأطوار منعزلة، ولولاه لكانت حياتها طبيعية مثل أي فتاة. "دانيال" الذي لم يأتِ أبدًا على ذكر أخته كان يتحدث عن ذلك المرض كثيرًا. وباختصار، هكذا حكى لها القصة: "لقد كانت متلازمة (اهلرز دانلوس" موجودة دومًا، ولكنها لم تعرف بهذا الاسم إلا بدءًا من عام 1908، عندما قام طبيبان، الدانماركي "إدوارد اهلرز" والفرنسي "هنري ألكسندر إيلر"، في جمعية المسعفين والأمراض الجلدية في باريس، وكان لكل منهما ولد بتشوهات خلقية، بالبحث في أسباب هذه العيوب الخلقية حتى توصلا إلى تشخيص طبي دقيق لها. أولئك الذين يعانون من متلازمة "اهلرز دانلوس" جلودهم مرنة إسفنجية. ويمكنهم أن يشدوها بأصابعهم حتى تنفصل بشكل واضح عن عضلاتها، وأحيانًا لمسافة قد تصل إلى ثلاثين أو أربعين سنتيمترًا. وبوسع المصاب بهذا المرض أن يشد جلده بعيدًا عن ساعديه، حتى يصير مترهلاً متدليًا عن جسده، ويمكنه فعل الشيء نفسه بجلد بطنه وكتفيه، حتى يبدو كما لو كان يرتدي معطف مطر من اللحم البشري يمكن بسهولة أن يخلعه عن

Twitter: @ketab_n

جسمه ويطويه ويضعه في كيس. وكذلك مفاصلهم، مرنة للغاية، مثل عظام جنين، ولهذا السبب يمكنهم ثني الركبتين والمرفقين والكاحلين أو حتى الرقبة بطرق مستحيلة في نظر الناس العاديين، كما لو أن كل شيء في أجسادهم قابل للتهشم في أي لحظة عند أي حركة وقابل أيضًا للالتئام في الحركة التالية، وكأنهم كائنات غريبة الأطوار لا تنتمي للبشر. وبالتأكيد فإن هذا ما يعتقده الناس في أكثر الأحيان. هكذا وصف "أبقراط"، في القرن الخامس قبل الميلاد، جلد ومفاصل محاربي "الجيتاي" من تراقيا الواقعة في جنوب شرق البلقان، وجلود "السكيثيين"، وهم شعوب منحدرون من أصول إيرانية والبدو الذين جابوا الأراضي على طول نهري "الدانوب" و"الدون". وقد ظن هو ومعاصروه أن بمقدورهم التحول إلى ماء أو دخان أو إلى فقاعات أو بخار، والتسلل إلى منازل أعدائهم أو الامتناع عن التنفس أو الشرب أيضًا. وقد كان اختراعًا قائمًا على الخرافة، بالطبع، ولكنه، وكما هو الحال دائمًا، كان مبنيًا على بديهية عميقة: أن المرونة الكاملة سمة من سمات إما الرب أو الشيطان. وفضَّل "دانيال" أن يختتم تفسيره، مع بعض فروق طفيفة، بطرح نفس السؤال ولكن بنبرة مازحة: "ألا نتحدث عن المرونة ونحن نقول إن الرب موجود في كل مكان؟ فماذا إذن؟". عقَّب "ميرو" قائلاً لي:

- قال لها: "جوليانا"، ما لديَّ هو نوع من متلازمة "اهلرز دانلوس"، ولكنه لا يؤثر في جلدي أو عظامي، ولكن في خيالي.

سألته وهي ترتشف القهوة من الفنجان، بنبرة مُغازلة، ولكن بحذر:

- أتقصد أنك وحش، ذهنيًا؟

Twitter: @ketab_n

- ربما كنت كذلك، ولكنني لا أجد أي فارق، فكلنا وحوش، بطريقة أو بأخرى؛ ولكنها حكاية انغماس في عيوب الميلاد، ولكن كلما صار المرء وحشًا أكبر كان تميزه أشد عمقًا.

خفت صوته وهو يقترب من "جوليانا":

- ولكن إذا كان الاختلاف يزعجك، فهي ليست مشكلة أيضًا. المسألة هي أن يتحول هذا التشوه في مرحلة من المراحل إلى قدرة خارقة. أكيد أنتِ تعرفين "نيكولو باجانيني"، صح؟ قبل أن يصبح أعظم عازف كمان عرفه العالم، كان "باجانيني" سببًا في كثير من التعاسة لأهله في "جنوة"، وذلك لرخاوة جسده، فلم يكن قادرًا وهو صبي على أن يقف منتصب القامة لفترة طويلة، أو أن يستند إلى سطح أي شيء من دون أن يتخذ جسمه شكل ذلك الشيء. لقد عانى الرجل طيلة حياته من درن في رئتيه والتهاب تسوسي في عظام فكه السفلي، حتى إنه كانت هناك عظمة ظاهرة في فكه، وكانت لديه البواسير والالتهابات البولية، وبعد ذلك الزهري، وأصابته نقاط الزئبق التي كان يتناولها للعلاج منه بتشوه جلدي جعل بشرته أقرب إلى لون حبة مانجو فاسدة، وتحول لون وجهه إلى الأرجواني الداكن مع تشققات وسحجات. أضيفي إلى هذا بعضًا من داء السكري، وهو ما أضعف قرنية العين وعضلاتها، لدرجة أنه خلال حركات الذروة للفرقة الموسيقية كان هذا الرجل ذو الإرادة الحديدية، والذي تفوح منه رائحة الأدوية والمراهم يرتعش ويرتجف ويفقد السيطرة على جسده فوق خشبة المسرح، وتصدر منه أصوات لم يسبق لأحد أن سمعها أو حتى حلم بها في أسوأ كوابيسه من قبل، ويغلق عينيه ويدعهما تدوران في مدارهما ببطء وما إن يفتح عينيه ثانيةً حتى تري أمامك كرتين بيضاوتين ليس إلا. واحتار الجمهور هل يفر

Twitter: @ketab_n

بجلده فزعًا أم يقف ليصفق حتى تلتهب الأيادي حماسةً وإعجابًا بذلك العزف الذي أمتعهم به هذا المخلوق الشيطاني. وهو بالطبع لم يبعْ روحه للشيطان حتى يهبه هذه الموهبة، كما كان العامة يصدقون، أو كما كان هو يود أن يعرفوا عنه ذلك: لم يكن "باجانيني" إلا ضحية أخرى لمتلازمة "اهلرز دانلوس"، وكان يمكن أن ينتهي إلى مصير طفل "فيكتور دانلوس" نفسه، والذي تحول إلى كائن بشع يعرضونه في السيرك، أو إلى مصير طفل "أليكسي اهلرز"، معلقًا يتدلى من عارضة داخل أحد مواخير بوردو، ولكنه نجح في العثور على عالمه الموازي الذي يتحول فيه جسده المشوه الهالك إلى كيان خارق: بآلة كمان يسندها تحت خده، وهذا لأن "باجانيني"، وبسبب ليونة مفاصله، كان قادرًا على تحقيق تلك المرونة المنشودة وكأنه دمية يسهل تطويعها، بل وكذلك كانت أصابعه تمتلك حرية كاملة بسبب خلوها من الأوتار، وهو ما جعله يبدع نغمات وطبقات موسيقية لم يسمعها أحد من قبل، وهكذا أمكنه من خلال الموسيقى أن يرتقي إلى أمكنة كونية لم يحلم أي إنسان بالوصول إليها.

داعبته "جوليانا" التي أمتعتها الحكاية:

- هذا ما تنوي تحقيقه؟

- يمكن، ولكن الطريقة مختلفة.

- آه، أي طريقة؟

- لا أعرف، وتلك هي المشكلة، ولكنني أتخيل أن أضع يدي عليها في يوم. طرف الخيط؟ أعتقد أن هناك طرفًا: فمثلي مثل جميع المرضى بهذه المتلازمة، سأجبر نفسي على البحث في الهواء وفي البحر وفي البر، عن شيء يكون مناسبًا تمامًا لحالتي، فأصنع منه مفتاحًا يفتح لي بوابات عالم آخر.

Twitter: @ketab_n

- تقصد عوالم أخرى؟

- بالضبط.

- يبدو لي هذا العالم كئيبًا.

بقي "دانيال" صامتًا للحظة، قبل أن يدعوها للتمشية عبر تلك الشوارع وعبر واحدة من البقع الخضراء القليلة على بعد عدة بنايات. متنزه له سور، وكأنه "جيتو خاص" للطبيعة ينعزل بنفسه عن عالم الخرسانة المقيت من حوله. أخذ يعرفها الأسماء العلمية للأشجار والأزهار، وأنواع الطيور والحشرات، ومع الوقت، تحوَّلت هذه التمشية إلى طقس يشتركان في إقامة شعائره.

من بين جميع أصدقاء "دانيال" كان "ميرو" الشاهد على قصة الحب، وكان بيده سلاح الكلمات، فسجل حكايات أساسها ما عرفه من "جوليانا": حكايات خرجت من بين شفتيها مثل "مونولوج"، ولكنها خرجت من هذا العجوز بمذاق جديد. أخبرته بأنني قد عجزت عن فهم طبيعة العلاقة بين "جوليانا" و"دانيال": فهي بسيطة، ناعمة، سلسة، من النوع الذي يمقت التناقضات ويتوتر أمام الحالات الاستثنائية، بينما كان "دانيال" – الذي نعرفه – متناقضًا واستثنائيًا.

ضحك "ميرو" لأول مرة في تلك الظهيرة، وقال لي بصوته الضعيف المبحوح:

- أتذكر أننا كنا ذات ظهيرة في منزل "جوليانا"، عندما تذكر "دانيال" واحدة من حكاياته، وعلى الرغم من كونها خارج الموضوع الذي كنَّا نتحدث فيه تمامًا، فإنه بدأ يحكي: كان هناك حداد كولومبي لا يصنع

Twitter: @ketab_n

سوى فردة الحذاء اليسرى فقط، وذات يوم تلقى طلبية لصنع أحذية لكتيبة جنود تستعد للمغادرة إلى أرض المعركة، فقال لنفسه: "لماذا أصنعها بينما هي موجودة لديَّ بالفعل؟" في تلك اللحظة من الحكاية رن جرس التليفون وراح "دانيال" يرد عليه، وبقينا كلنا ننتظره لنعرف نهاية القصة، وفي تلك اللحظات أخبرتنا "أديلا" – أتذكر "أديلا"؟ خادمة "جوليانا" – وهي تنظر إلى وجوهنا المأخوذة ألا نفكر كثيرًا، فنهاية القصة سهلة: "في تلك الليلة، مشي الجنود حفاة داخل المعسكر في طابور منفرد عبر ممر مترب ضيق، وعلى بعد ياردتين فقط منهم سقطت عليهم قذيفة من السماء، وعندما تبدد الدخان وهدأت النيران، كان أولئك الذين لم يموتوا أو تمزقهم القنبلة قد فقدوا سيقانهم اليمنى، وفي ظهيرة اليوم التالي وصل الحداد لتسليم الفردة الشمال فقط من كل الأحذية المطلوبة". هكذا أتمت "أديلا" الحكاية وانصرفت، من دون أن يبدو عليها أي تأثر بقسوة هذه النهاية، وحينما رجع "دانيال" حكى النهاية، نفسها، كلمة كلمة. هكذا سكتنا جميعًا ووحدها "جوليانا" كانت تبتسم وقد تمكنت من اصطناع الدهشة والانبهار بالنهاية التي حكاها هو، وقالت: "دانيال" هذا، لا أعرف من أين يأتي بحكاياته". صحيح إن "جوليانا" كانت تحتاج دائمًا إلى وضع حد لأي بوادر غرابة تحاول اقتحام حياتها، وتشتيت انتباهها، وترفض الاندهاش، ولكنها – "جوستابو" – كانت عاجزة عن كل ذلك معه. تعرف قصدي؟ يمكن كان باطن "دانيال" أبسط بكثير من ظاهره، ويمكن كانت "جوليانا" أعقد بكثير عمّا نظنها؛ وبالنسبة لي، وأنا أعرفها بصورة جيدة، أشهد بأن هذه الفتاة المسكينة حملت من الأسرار أكثر بكثير مما نعرفه عنها: أقول لك، "جوليانا" كانت عبارة عن امرأتين،

Twitter: @ketab_n

ولو كنت فعلاً تريد أن تحل لغز قتل "دانيال" لها، لا بد لك من البحث عن المرأة الأخرى.."جوليانا" الأخرى.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

العاشر

منذ ثمانية أيام، لاحظ "دانيال" أن الدائرة التي اعتادت التكون حوله قد بدأت تتفكك حتى أصبحت بارة عن نصفي دائرة يحيط كل منهما بشخصية مركزية: واحد على اليسار؛ عجوز ذو وجه مسرور وخدين صغيرين، تتراقص عيناه وتتجهان فوق سطح إحدى المصاطب، بشفتين نصف مفتوحتين، وواحدة على اليمين، وهي امرأة في عقدها الرابع، مزكومة الأنف، تمسك بأصابعها فرعًا مكسورًا.

يحكي لي "دانيال"، كاهن هؤلاء الغيلان:

- أقرأ كما اعتدت دومًا، ثم أسكت متأملاً ردود الأفعال على وجوه جمهوري، ونظراتهم المتعبة؛ فتبدأ تلك المرأة في الضرب على صندوق خشبي لونه بلون اللحم بتلك العصا، كما لو كانت ساحرة اختلط سواد شعرها بالأبيض في قبيلة بدائية؛ وعندئذٍ واصلت القراءة على الفور، ولكنني لمحت بطرف عيني ذلك التغير في حركاتهم وتعبيراتهم بصورة لم أعهدها من قبل، وكنت متأكدًا من أمر واحد: هناك جماعة من المرضى بدأت تحدق في العجوز، وجماعة أخرى تحدق في المرأة، وتجاوبوا مع قراءتي مطيعين أوامرهما، التي كانت تتمثل في إيماءة أو إشارة أو غمزة.

Twitter: @ketab_n

صرت متيقنًا من أن العجوز ذو الوجه الملائكي الطيب والمرأة التي اختلط شعرها الأبيض بالأسود ذات الأنف السائب يقودان محاولة جماعية لإصابتي مجددًا بالجنون.

مِن هذين العجوزين (لا أعرف من هما؟) صدر أمرًا – كان "دانيال" متأكدًا – بأن يصدر الجميع رد فعل، وهو أن يقوم الجميع بتكرار حركة واحدة بعينها: التلاوة الجماعية المستمرة، بصوت عالٍ وشديد، لعبارات استخرجوها بكل قسوة من ذاكرتهم الجمعية. وفي كل مرة تتفكك الدائرة من حوله، يبدأ بسماع الأصوات التي يقومون بها، يسمعها تقول جمل مثل، "هل هذا ما أتيت من أجله؟"، أو "أي جحيم هذا الذي انتهيت إليه؟"، وهكذا يحاول كل ليلة أن يعرف مصدر هذه الجمل والكلمات المتشرذمة، يحاول أن يعرف من قالها منهم، وهل من قالها كان يقولها بإخلاص أم بسخرية. الآن، كل ليلة.. بل كل الليالي، كانوا يحاولون بينما هم مختبئين خلف الصخور أو نائمين تحت الأغطية الملونة، أن يعيدوه إلى حالة الجنون مجددًا.

– دخلت ذات ظهيرة إلى مكتب الطبيب، كعادتي كل أسبوع، منذ أن اضطروني إلى فحص عينة دم، وكنت أحمل إليه عينة بول في علبة خضراء، أخفيتها في حزام سروالي، ولكني لم أجد أحدًا في المكتب، ولا حتى المرضة، لابد أنهما في قاعة الاستراحة، وفي تلك اللحظة سمعت شهقة عصبية، وكأنها أظفر يخدش سطح سبورة، فتوجهت نحو آخر الغرفة، وسحبت الستارة التي كانت تفصل سرير الفحص عن بقية الغرفة، فوجدت "هق" هناك، وجهها متحفز ومتوتر قليلاً، "كما لو أن أحدهم قد

Twitter: @ketab_n

ثبته إلى جمجمتها بثلاثة مشابك شعر"، سمعتها تقول ذلك، أو خيل إلي أني سمعتها، لا فارق، وعلى جانبيها جلس العجوز ذو الوجه الملائكي والمرأة المزكومة، سمعت جملة "رأيتهم يدفنون العظام عند مدخل الجحيم"، سمعت، ثلاثتهم وهم واقفون، جنبًا إلى جنب، شفاههم مزمومة، وأعينهم مغلقة، ويمسكون بأيدي بعضهم، ومن خلفهم جائني صوت واحد يقول بكل وضوح: "أول قطعين سيفتحان مؤخرة أعناقكم".

وفي اليومين التاليين طال الكابوس. كان المرضون يهربون، بدافع من الشعور بالذنب أو لكونهم وببساطة على عجلة من أمرهم، في كل مرة يقترب فيها "دانيال" – شبح الإنسان المتنكر في صورة غراب – منهم؛ وفي الوقت نفسه كانت أصواتهم قريبة منه، قريبة جدًا، وسمعهم يذهبون مع الريح بكل قوة في الاتجاه العكسي: "سمع قطع حديدية تصطك" في مخيلته أولاً، ثم في أذنيه، وبعدها صنع رجع الصدى هواءً من الهواء ثم اختفى.

– جاء عليَّ وقت طاردتني فيه كلمات المتآمرين في كل مكان، تتبعتني إلى كل ركن من أركان العنبر، ومكتب الطبيب، وغرف الفحص، وسعتها بين جدران الحمام، "البحر بالأسفل". واستيقظت ذات مرة في عتمة غرفتي، كان الوقت منتصف الليل، ولا أضواء، وجفوني مغلقة تمامًا بقوة الخوف والبرد، وسمعت الصوت "لا ينبغي لأحد أن يتفوَّه بأي شيء عن الماضي"، صوت واضح كالشمس، "الأظافر تحفر في أصابعي"، صرخة تردد صداها فوق غيرها، وبعد دقيقة جاء ممرضان ليحقناني بمهدئ، وحاولا ربط ذراعيَّ وساقيَّ بالأحزمة المشدودة إلى حافة الفراش، "مواجهًا السماء"، من دون أن أنطق بكلمة، "غرفة التعذيب الأسطورية"، قلت لنفسي، ثم شعرت بيديَّ تدفعان جسدي عن الأرض، ليتدحرج جسدي في الغرفة، أتلمس

Twitter: @ketab_n

جسدي، دمية لا حول لها ولا قوة، بل جيفة دمية، وببطء انجرفت إلى حلم مكون من لكمات وآهات، لم يكن يختلف أبدًا عن يقظتي.

وفي الصباح، زاره طبيب، وتحدث معه لدقائق. أخبره وسيجارة غير مشتعلة تتراقص بين شفتيه أن لا شيء هناك، فقط توتر يزداد قبل أن ينخفض، اذهب واسترخِ في الساحة، تخلص من توترك، وتمشَّى لتتخلص منه. أطاع "دانيال" أوامره، وذهب يتريض في الساحة في صمت يغلفه صمت، لا يقطعه بين الحين والآخر سوى أصوات الأغنام وثرثرة من هنا وهناك، كانت روتينية طبيعية تمامًا، وفي تلك الليلة تجرَّأ بالبحث عن كتاب فوق الأرفف في غرفته (وجد أن أعدادها تتناقص، لا بد أن أحدهم يسرقها، واحدًا اليوم، وآخرًا في الغد، لا يهم)، وجلس للمرة الأخيرة – فهي فعليًا ستكون المرة الأخيرة – في وسط الساحة، ليكون على رأس رعيته التي تتجمع من حوله تدريجيًا ليقرأ لهم قصة.

ولكن خلال تلك القراءة طقطقت رقبته واستقرت نظارته فوق أنفه:

– كنت متيقنًا من أن الأمور لم تعد كما كانت: جلست "هق" على بعد أقدام من المجموعة، كما لم تفعل من قبل، تنشج بهدوء، وعندئذٍ فقط كنت متأكدًا: كانت هي الوحيدة التي تفهمني، فبعد بضع دقائق من بداية الاجتماع نهضت وهي تسحب بطانيتها على الأرض، واختفت متضايقة في مدخل الصالة. راقبها الآخرون وهي تبتعد، ثم تحولوا بأعينهم إليَّ، وبعدها قال العجوز ذو الوجه الملائكي والمرأة المزكومة وواحد منهم، لا أعرفه، "ما الذي تراه في هذه الفتاة؟ لماذا تتبعها ليلاً ونهارًا؟ فراودني الشك في أن تكون "هق" في خطر.

Twitter: @ketab_n

وبعد ساعة كانت القراءة قد انتهت، وتفرقت الدائرة شيئًا فشيئًا، وتلكَّع بعض المجانين هنا وهناك، وعباراتهم غير المتماسكة تتلاشى تدريجيًا. وقبل الساعة الثامنة، أغلقت جميع الأبواب، وأطفئت كل الأنوار، واختفت جماعة من المرضين خلف باب غرفة الفحص، التي تغلقها ذراع معدنية معلَّقة، وأخرج "دانيال" رأسه من جديد، متنبهًا إلى كل صوت، مترقبًا شلَّال الأصوات التي استغرب عدم سماعها في تلك الليلة، هكذا حكى لي. مشي بحزن نحو الباب رقم واحد، غرفة "هق"، وألصق أذنه التي يحيطها بيده إلى بابها، خافضًا حاجبيه، وكأنما بهذه الحركات يزيد من قدرة حاسة السمع لديه، ويده النحيفة تتشبث بمقبض الباب، في شك، وبذل جهدًا كبيرًا حتى يسمع أي شيء.. ولكن جهده راح سدى.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

ذهب عجوز إلى فراشه، ولدهشته وجد نفسه وقد استيقظ داخل حاوية مليئة بالقش والخشب؛ مكعبة طولها ثلاثة أقدام وارتفاعها ياردة ونصف. معتمة، عدا ثقب صغير في كل جدار منها، وأحد تلك الثقوب يطل على معسكر للجيش، عبر مرج لونه مختلف بين رقعة خضراء وأخرى صفراء قاحلة. ينظر العجوز عبر الثقب فلا يتعرف على أي شيء، ولكنه يسمع رنين معدني جعله ينتبه: فهناك في المرج مئات من النسوة والفتيات، ممددين على الأرض، ووجوههن شاخصة إلى السماء، بينما تنتقل أجسادهن خلال منظومة معقدة من المضخات والتروس؛ إنها غرفة التعذيب الأسطورية وتلك آلة الاغتصاب. يرتفع صوت: "اقتلني، لماذا تتركني حية؟"، عندئذٍ راح العجوز في سباته، ليستيقظ بعدها بأربعة أيام في الريف، وقدماه قد غاصتا في وحل ضفة البحيرة، وتتراقص بينهما سمكة رمادية ضخمة. وهكذا أمضى النهار في الصيد والاندهاش، متسائلاً عمَّا ساقه إلى هذا المكان. وما هي إلا ساعات حتى أخذه النوم مجددًا، ليستيقظ داخل نفس الحاوية التي كان فيها الليلة الماضية، تحيط بها جدران معسكر الجيش، ولكنه وجد في هذه المرة كشافًا في أرضيتها، فوجه شعاع ضوئه المصفر نحو المرج، حيث شاهد جزءًا من الماكينة وسلسلة معدنية مرصعة بمسامير صغيرة من الصلب وبكرات تحدث صريرًا كلما دارت، وعند نهاية ذلك السير الجلدي شاهد جسد امرأة يرتجف ويتلوى، كانت واحدة من تلك النسوة، ثم شاهد وجه أحد القتلة، وتعرف عليه.. كان وجهه هو.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحادي عشر

"هناك شارع في وسط المدينة يمتد بطول عمارة... La Calle Tres (Espadas)".

"يمكنني الوصول إلى هناك مغمض العينين".

"أفضل أن تذهب إلى هناك وعيناك مفتوحتان".

"الأمر أمرك".

تقع المكتبة التي يسمونها "الدائرة" عند ناصية مميزة بأشجار ضئيلة الحجم ولافتات مضيئة ومقاهٍ وحانات متألقة، عند تقاطع شارع ضيق قديم وشارع ذي أرصفة متكسرة يقطنها الحمام والعصافير والنوارس، وكأنها علامة على قرب المسافة من البحر الذي أضحى في تلك المنطقة مقبرة للأسماك الميتة ووعاءً لتفريغ نفايات المدينة. طابقها الأول ضيق، ومغلقة في الجزء الخلفي بمجموعة من الطاولات يعد زبائن المكتبة فوقها الشاي لأنفسهم ويدخنون السجائر، بينما يتصفحون نسخ الكتب التي من شأن عناوينها أن تمنحهم تلك الهالة المرموقة أمام أقرانهم. وهناك يثرثرون حول مواضيع مثل حياة راهب من القرون الوسطى من بنات أفكار الشاب "توماس تشاترتون" أو رائعة من روائع "أوسيان" الوهمي.

Twitter: @ketab_n

قبل أن نسمي هذا المكان "الدائرة"، حينما لم تكن هناك علاقة لـ"دانيال" والآخرين بالتجارة، كان مسرحًا شهد مواعيدي الغرامية الأولى مع امرأة، والتي قُدِّر لها أن تكون ولزمن قصير زوجتي؛ ولم يكن الاختيار اختياري، بل اختيارها، فقد كانت معجبة، بل شغوفة بالمكان الذي اجتذب العديد منا إليه، ومن قلبه يرتقي السلم كأنه قناة تفضي بك إلى الطابق الثاني، والذي كان أشد غموضًا من الأول، فهو محجوز دائمًا للصفوة المختارة. تعمدت تجنب هذا المكان طيلة ثلاث سنوات مضت، لا لكي أهرب من ذكريات، بالرغم من شبه نجاح حققته في ذلك، ولكن لأني كنت أخشى أن أصادف شركاء "دانيال" أو والدته في المكتبة أو حولها، وأن يكتشف أحدهم أنني قد تخليت عن صديقي منذ تلك الليلة التي تحطمت فيها أعصابه وفقدها للأبد – ليلة أن قتل "جوليانا".

كان "دانيال" قد اندمج بعد تخرجه في الجامعة تمامًا في شلّة أصدقائه من هواة الكتب والذين جمع بينهم هذا الفارس الكوميدي الذي صبغ بحثهم عن تلك الكتب. وبفضل سلسلة من الصفقات التي لم يسبق لها مثيل، استطاع أن يمتاز عنهم بكونه صاحب المجموعة الأقوى من بين مجموعات هؤلاء الباحثين عن المعجزات.

وخلال الأشهر القليلة التي أمضاها في "بيركيلي"، حيث درس ترميم المخطوطات القديمة، وهي الفترة التي وهنت فيها علاقتنا، أصيبت زوجتي بالمرض: كان السرطان يلتهم عظام جسدها لدرجة أنها لم تعد قادرة على حمل وزنها، وتبدد لدينا كل أمل حينما أظهرت صور أشعة إكس وهن هيكلها العظمي. لقد أصبح لها هيكل فتاة صغيرة لا حول لها

Twitter: @ketab_n

ولا قوة، إلى أن حانت لحظتها وفارقت الحياة. وحينما عاد "دانيال" كان عازمًا على شراء المكتبة وتحويلها إلى ما صارت عليه اليوم: معقلاً للباحثين المتحمسين، والطلاب الذين وهبوا حب هذا المجال، وكذلك صيادو الكنوز القديمة بطبيعة الحال.

وبعد أن هاتفني، وبعد زيارتي لميرو وثرثرته معي في المستشفى، والتي لم أنته من حكيها بعد، امتلكت شجاعة أن أعود إلى هذا المكان مجددًا، وهناك التقيت "خوان جالفيز"، أحد شركاء "دانيال"، عند ناصية المكتبة، وفي يسراه واحدة من تلك الأدوات التي لا تألفها سوى "الدائرة" – خنجر نحاسي مقبضه مزخرف، صغير من النوع الذي تتخيله في يد قاتل من شخصيات "ألف ليلة وليلة"، غير أن هذا المحامي المتقاعد العجوز كان يستخدمه في فتح صناديق الورق المقوى المكتظة بالكتب.

في ذلك الصباح، أثناء زيارتي لـ"جالفيز" ظلت ابنته بصحبتنا، وكذلك تلك البومة السوداء المعلقة على الدولاب بعيونها الزجاجية، وتعبير الطمع المرسوم على وجهها ومنقارها الخشن في انتظار ذلك الزبون المعين الذي سيأتي ليأخذها. لم يندهش الرجل لرؤيتي. وبادرني بالكلام وكأنما يستأنف حوارًا لم نكمله أمس، وبينما توخيت طريقة حذرة للغاية حتى ألزمه بتلك الدقة الجراحية، مثلما يتعامل مع الطيور التي يهوى تحنيطها قبل أن يثبتها بدبابيس على الطاولة، ليحدثني فيما أريد وليس بسلسلة من الحكايات الباردة وكأنها محض إفادات، ليس لها أي علاقة، أو هكذا بدا لي، بسبب زيارتي.

قال "جالفيز":

Twitter: @ketab_n

- "دانيال ديفو" على سبيل المثال، لم تكن لديه أذنان: كانت جمجمته ناعمة، كروية، مستدقة وكأنها بيضة نعامة، ولا يقطع انسيابها سوى أنفه وشفة سفلية أشبه بشفاه الحيوانات. هل كنت تعرف هذا؟ أراهن على أنَّك لم تعرف هذا.

تحت باروكته هذه، كان "جالفيز" يشبه السمكة.

- ولكنك إذا ما قرأت كتبه لن تجد امرأة واحدة يبدأ جمالها وينتهي عند أذنيها الكاميلتين بطريقة خارقة للطبيعة، تمهيد وخاتمة في منتهى الجمال. أما "نيكولاي جوجول" فقد ميزه أنف وحشي كبير، وضخم حتى أن طرفه ينتهي بين شفتيه. كان "جوجول" يستيقظ أثناء الليل فيكتشف أنه كان يمتص أنفه، وكأنما ارتد رضيعًا في حضن مرضعته الأوكرانية. في إحدىٰ قصصه، جعل أنفه البطل، حيث ينفصل عن الوجه ويذهب ليتمشى عبر الشارع، وكأن هذا أمرٌ طبيعي معتاد. الرومانسيون كانوا يعانون من لعنات كهذه. وأقرب مثال هو بايرون، الذي كان ضحية حالة من الشلل السفلي التشنجي في قدميه عندما كان طفلاً، حتى أضحت قدماه أشبه بحافري طائر الناندو، ولذلك كان يصر على ممارسة الجنس من دون أن يخلع حذاءه، وإن خلعه فكان يلتحف بملاءة تغطي ساقيه تمامًا. أمَّا عن تأثير هذا على أدبه فقد جاء على النقيض من "جوجول" و"ديفو": فقد كان لا يظهر من شخصياته إلا المنطقة التي تنتهي عند الخصر. وهكذا نرى أن الأولين قد عمدا إلى تصحيح صورة العالم، بينما قصد الأخير تشويهه، أليس كذلك؟ أما "تولوز- لوتريك" فله حكاية أخرى: فقد كان يواري عن العالم ساقيه بالغتي النحافة ورأسه الضخم الأشبه بثمرة قرع العسل، حتى جاء عليه وقت قرر فيه أن يستعرضها تعويضًا عن صغر حجم قضيبه عندما

Twitter: @ketab_n

كان يخوض غمار بيوت الدعارة في باريس، بين البغايا ولاعبي الورق ومدخني الأفيون الذين التهمهم الزهري، بل هو لم يخجل من استعراضها في أعماله الفنية. وسواءً حبس نفسه في جحيمه السعيد أو عرضها في لوحاته، فإنه قد أعطى لعاهاته معنىً مختلفًا؛ أقرب إلى الاعتراف بالمسخ داخله. فإني في نهاية المطاف أرى أن كل الفنانين وحوش.

أضاف "جالفيز":

– وهذا هو نفس المبدأ الذي آمن به "دانيال". أقول هذا لأني أراهن على أنك تريد الحديث عن "دانيال"، أليس كذلك؟ تعلم أن "دانيال" كان شغوفًا بالاختلاف، الحاجة الملحة لمعرفة الطرق التي يستطيع بها الإنسان المختلف عن الآخرين أن يقوم بتعديل العالم أو أن يجعله ملائمًا له حتى يستطيع البقاء على قيد الحياة، ويمكنه أيضًا أن يقرر عزل نفسه عن العالم ويدمر نفسه كمهرب من هذا العالم. ليس من الصعب تخيُّل أن هوسه هذا نتج عن مأساة أخته "صوفيا"، أخته الصغيرة المسكينة، والتي أظنك تعرفها، ولكن هوسه هذا مرتبط أيضًا بفكرة أن "دانيال" لم يتوقف عن رؤية نفسه للحظة كإنسان غريب الأطوار. حقيقة الأمر هي أن فكرة "الفناء كمهرب"، وهي أكثر فكرة متطرفة للهروب من هذا العالم، هذه الفكرة هي أكثر فكرة آمن بها "دانيال" تمامًا، وقد كانت بالنسبة له كالضوء الذي قاده إلى هلاكه.

أكمل قائلاً:

– لقد وجد في الكتب مجالاً لتنفيث غضبه، وشهادات على لهفة الإنسان إلى تحويل أو إبادة كل شيء من أجل بداية جديدة، ولكن ما هو أمامنا هنا هي لهفة متناقضة، هذا لأن الكتب بدورها مسؤولة عن الحفاظ على التقاليد

Twitter: @ketab_n

والاستمرارية. لهذا يهتم "دانيال" بالنوعية الغريبة من الكتب، والتي قد تبدو بلا معنى: فلو صح أنه شغوف بتقليد بعينه، فهو الإفراط في الاستغراق والاختلال. وعندما يعاود قراءتها ينزلق بروحه في هلوسة "دون كيخوتية"، حيث يختلف باطن كل شيء عن ظاهره، وحيث سلسلة من التشوهات والأخطاء والبارانويا، فهو يرى فيها جميعها الوضوح والجلاء.

ويستمر:

- تعرف أنه بعد أخذه لجرعات المهدئات في المستشفى فقد القدرة على الكلام لفترة من الزمن، أتعرف هذا؟ ولكني أراهن على أنك لا تعرف أنه عندما تلقى مجموعة الكتب الأولى من أمه في المستشفى كان يحاول الفرار من حالة الهزال التي أصمته وأبكمته، كما وصفها هو، وعلى الرغم من أنه قد قلّب في كتبه باهتمام فإنك لو سألته عمَّا يقرأ، أيًا كان الكتاب الذي في يده، فإنه لا يردد سوى حكاية وحيدة، هي نفسها دومًا، والعجيب أن تلك الحكاية لم تكن أبدًا ضمن صفحات الكتب التي يحتفظ بها في غرفته.

حكى لي "دانيال" هذه الحكاية:

- في إقليم "تشانجو" الصيني توجد بلدة اسمها "تيانج سو"، وفيها وُلِدَ صبي اسمه "فينج منلونج" في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر. ووقت أن صار يافعًا، أصبح شاعرًا رحَّالة ومؤلفًا لحكايات خلابة نشرها عام 1604 تحت عنوان "Yushing Mingyang"، أي "كلمات لتعليم العالم". وفي عام 1615، رُزِق طفلاً يعاني من تشوهات خلقية، وذات يوم من أيام 1617، بعدما أيقن أن طفله يعاني من إعاقة ستبقيه قزمًا طيلة حياته، فما كان من "فينج منجلونج" إلا أن قتل زوجته بسكين

Twitter: @ketab_n

يستخدم في ذبح الكباش وتركها جثة هامدة في مكانها، مسندًا ظهرها إلى شجرة، عند تقاطع طريقين في ضواحي "تيانج سو"، حتى تكون طعامًا للغربان. وبسبب مصير ابنه، بنى "فينج منلونج" في داره غرفة مستطيلة جعل أركانها من خشب البامبو، وعزز البنيان بخشب الكستناء، وصنع الجدران من ألواح الكافور قبل أن يكسوها بخلطة من الرماد، وفيها حبس الصبي. ويسقيه مرتين في العام شرابًا منومًا اشتراه من قرية مجاورة، حتى يتسنى له استغلال ساعات الليل في هدم الغرفة وإعادة بنائها من جديد، وفي كل مرة ينقص نصف قدم من كل جدار، وكل لوح، وكل ركن من أركان السقف، فيستيقظ الصبي في صباح اليوم التالي فيخيل له أن جسده قد كبر بقدر نصف قدم خلال تلك الليلة. ولأنه الوحيد الذي يعرف السر والذي بمجرد مرآه تنفضح الخدعة، عمد "فينج منلونج" على ألا يراه ابنه أبدًا، وأبقاه سجينًا في تلك الغرفة التي من دون أبواب ولا نوافذ أو أي شيء خلاف فتحة يأتيه عبرها الطعام والشراب مرتين يوميًا، وكذلك كوة في ركنها حيث يقضي حاجته فيها، ولا ينظفها أحد سوى والده في كل مرة يعيد فيها بناء الغرفة. وحينما مات "فينج منلونج"، وبما أن أحدًا في "جيانجتسو" لم يكن يعرف بأمر هذا الصبي أو حتى وجوده في هذا العالم، حيث ظن الجميع أنَّه اختفى مع والدته، فقد بقي الصبي أسيرًا لهذا العالم الافتراضي الذي بناه له والده، والذي أضحى في ذلك الحين مجرد مكعب لا يتجاوز ارتفاعه النصف متر بأي حال: وما هي ألا أشهر حتى أصبح كفنه الذي حمله فيه أهل القرية ليدفنوه.

Twitter: @ketab_n

ألقى "جالفيز" نظرة على مكتبه، حيث تجلس ابنته وتلك البومة كان منظرهما معًا يعطي إيحاءًا بالكراهية، قال:

- الغريب في الموضوع أن "دانيال" كان يبدو وهو يحكي هذه القصة وكأنه روبوت لا يعي فحوى ما ينقله من كلمات. ولكن هذه الحكاية توجز الصلة التي ربطت بين "دانيال" و"جوليانا"، هل تفهم ما أقصد؟ فقد كان "دانيال" هو ذلك الأب الذي لا يتردد عن تغيير العالم بأكمله من أجل إسعاد ابنته، والأسوأ أن "دانيال" كان يرى أن التهديد الوحيد بينهما هو "دانيال" نفسه. كان أشبه بالوحش المسجون في قفص، والذي ظن لفترة ما أنّه وسجّانه يمكنهما بالفعل أن يعيشا معًا، وهم أنهما زوجين طبيعيين. لا أقصد زيجة سعيدة، ليس هذا: بل مجرد علاقة عادية. فقد كانت "جوليانا" امرأة لا تثقل عقلها بالمشاغل والهموم، ولم تفهم أبدًا أن علاقتها مع "دانيال" كانت من النوع الذي يستحيل أن يستمر. فمن هي؟ هي رسامة محدودة الخيال، مصممة صحفية، ومعلمة في مدرسة، وابنة عائلة من عائلات تجار الأقاليم، تربت في مدينة ليس لها اتصال كبير بالعالم من حولها؛ فتاة صغيرة لا تشوبها شائبة، على دراية بطبيعة حياتها وراضية بها. كانت تجد البهجة في كل ما هو حولها، وتجاهلت أحيانًا إبداعها فقط لتستكين إلى حياة عادية روتينية. كانت المغامرة الوحيدة التي تصبو إليها هي تلك التي تمكنها من العثور على مفاتيح جوانب حياتها؛ حياة هادئة وديعة، وكان تعبيرها الأقوى عن القوة هو أن تقوم بكل ما في وسعها لكي تميز نفسها عن الخدم. هل تتذكر، مثلاً، عندما استأجر لها "دانيال" خادمة واتضح أن اسمها "جوليانا" أيضًا،

Twitter: @ketab_n

فقررت "جوليانا" أن تغير اسم تلك الفتاة، وسمتها "أديلا"، وقد أرعبها أن يجمع بينها وبين تلك البنت المسكينة أي شيء؟ هاه؟

أكمل "جالفيز":

- لا أزال أتذكر "أديلا". فتاة حسنة المظهر، وكثيرًا ما كنت أتساءل عن مآلها الآن. كان عليك أن تناديها ثلاث مرات قبل أن تنتبه إليك، هذا بسبب الاسم "القسري" الذي أجبرتها عليه "جوليانا" لمجرد أن يكون هناك فارق بين الاثنتين. أتتذكرها؟

- بالطبع أتذكرها.

قلت هذا، وقد كانت الحقيقة، فمن الصعب عليَّ أن أنسى تلك الخادمة التي كانت تضحك من قلبها وتصافح الضيوف بلا تكلف وكأنها حسناء لعوب، وكأنها على وشك أن تدعو كلاً منهم إلى أن يراقصها في حفل، بعينيها الماكرتين، وأسنان تذكرك بأسنان مصاصة دماء، وشفتين تحرص على أن تميزهما بأحمر شفاه ملتهب اللون. انتهزتُ فرصة اقتناصي لطرف خيط الكلام، فسألت "جالفيز" عن آخر شيء ذكره لي "ميرو":

- يقول "ميرو" أن شخصية "جوليانا" كانت أشد تعقيدًا من الانطباع الذي أخذه كل من عرفها عنها، وأنه بداخلها كان يوجد امرأتين مختلفتين تمامًا.

قال "جالفيز":

- أنا حقيقةً لا أدرك ما يقصده "سباستيان" بهذا الكلام: لقد كانت شخصية "جوليانا" واضحة كصفحة بيضاء، كانت تبحث عن الأمان، وبين الحين والآخر تنخرط في عالم أشد رضا وأكثر اعتدالاً من عالمها. أنت تعلم أنها من عائلة لجأت إلى المدينة فرارًا من الحرب، ولا أقول إنها كانت

Twitter: @ketab_n

مثل أولئك اللاجئين التعساء، بل كانت عائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، من الريف، حيث كانت لها مكانة وهيبة في عقر دارها، وهو الأمر الذي افتقدته العائلة بوصولها إلى المدينة، ولم يعد هناك ما يميز بينها وبين بقية المهاجرين؛ مجرد أشباح مجهولة لا قيمة لها. وأعتقد أن هذا هو ما حدى بها إلى أن تستكين إلى حياة سكينة مطلقة. وكان على "دانيال" أن يتحكم في نفسه في حضور "جوليانا"، أن يخنق شخصيته الحقيقية، حتى يخفي عنها حقيقته، وكل ما تنطوي عليه شخصيته من تدفق كرنفالي للخيال والأفكار، وهوسه القطعي لرؤية الأشياء عبر كل قطعة كريستال مشوهة يعثر عليها. قرر أن يبذل هو الجهد، وقررت هي أن تنخرط بطريقتها في اللعبة: ويوم أن سقطت "جوليانا" انهار العالم بأسره، واستحالت الجنة التي بناها "دانيال" لها إلى مجرد كفن.. تمامًا مثل حكاية "فينج منلونج".. مجرد كفن.

Twitter: @ketab_n

الثاني عشر

أكمل "دانيال" حكايته:

- في الصباح، عثرت إحدى الممرضات على "هق"، جالسة في فراشها في الغرفة رقم واحد، وقد ضمت ساقيها إلى بطنها، وأحد ذراعاها تحتها والأخر أمامها، وأصابعها معلقة بخديها، أظافرها مكسوؤة، وأناملها ممزقة، وقدماها ملتصقتان، وجهها للخلف، ورقبتها متورمة، وقد فتحت عينيها وفمها على الاتساع، وانسدل الشعر الأسود على كتفيها، بينما تورمت عينها اليسرى وتحولت إلى كرة من الدم، ويظهر أثر كدمة فاتحة اللون ممتدة لتغطي نهديها في خطوط غير منتظمة تصل حتى أسفل الحوض؛ على جبهتها ذبابتان، ورموشها تسقط عن جفونها، وأسنانها مكسورة، وركن فمها مجروح، مقصوص بمقص وجدوه فوق الوسادة، بينما تورم الخدان. فارقت روح تلك الفتاة التي كادت أن تكون امرأة، جسدها وتركته في نفس الوضع الذي كانت تتخذه وهي تمضي أيامها هنا، جالسة في الصالة، وكان تحتها في هذه المرة أيضًا بطانية زاهية الألوان فوق اللحاف، وقد طوتها على شكل مثلث.

Twitter: @ketab_n

خرج المرض، وهو شاب صغير وبالكاد أكبر سنًا من "هق"، وهو يرتجف في هلع إلى الصالة، وعلى وجهه كل رعب الدنيا، حتى أنَّه نسيَ أن يُغلق باب الغرفة خلفه. وكان "دانيال" أول من دخل الغرفة بعدها (أخبر الشرطة فيما بعد أنه قد أتى بعد أن سمع صرخة، وهو الأمر الذي نفى المرض فعله)، ولكنه سرعان ما غادر، بدافع الاشمئزاز والأسى معًا، وفي طريق عودته صادف الرجل ذي الوجه الملائكي والمرأة مزكومة الأنف، وكانا قد هرعا بدورهما إلى الصالة، ومعهما سرب من المهووسين، والمساعدين والمرضى، وكانا يضحكان بشكل يغيظ، وقد امتزج العقل بالجنون بالخوف وبالسرور والاستمتاع. ومكث "دانيال" هناك لساعتين، يراقب الغرباء عن المكان وهم يدخلون إليه ويخرجون منه، شرطيون بزيهم الأسود، ومسعفون بزيهم الأبيض. بشر كثيرون امتلأت بهم الصالة، وحقائب، ودفاتر، ونقالة حضرت فارغة ورحلت وعلى متنها جثمان نحيف، طويل، رقيق، جثمان "هق"، لا يظهر من جسدها شيء. سمعت – أو خيل إليَّ – من يقول: "الوقت ليل وقد غطَّاها حارس بملاءة". نفس الملاءة الخضراء التي شوَّهتها بقع الدم. أخذوها ورحلت إلى الأبد.

قال "دانيال":

– في مساء ذلك اليوم، منع ممرضان والدتي من دخول المستشفى، وطلبوا منها أن تعود في الغد. "لماذا، ماذا حدث؟".. "لا شيء سيدتي، عودي فيما بعد". وأخذوني إلى المكتب في القبو وأبقوني هناك، هيكل فوق كومة من الورق المملوء بكتابة بحبر أزرق، وحوله النوافذ الضيقة الطويلة ذات القضبان، والتي تنتهي عند مستوى الرصيف في الخارج. مرت ساعات

Twitter: @ketab_n

عدة، حتى وصل شرطيان، أحدهما سمين والآخر نحيف على شفتيه قروح وعلى ظهر يديه برص، بغرض استجوابي، ولكنهما كانا في ثياب مدنية.

كان أخصائي التشريح قد فتح جثة "هق" ووجد بداخلها كتلة لزجة نصف متحللة، أجزاء منها ناعمة، وأجزاء أخرى هشة، احتلت المسار الهضمي كله، حفنات كروية صغيرة من مادة صارت الآن صلبة إسفنجية داخل معدتها وسائلة في البنكرياس، ولزجة في القولون، غير معروفة وغير مفهومة. وعندما أخذ يشق بمبضعه لأعلى، في مريء "هق"، وجد الطبيب المزيد من الكرات من تلك المادة، وكانت جافة تقريبًا ولم تفسد بالهضم: ورق، عشرات الصفحات، مئات القطع الصغيرة من الورق، وخيوط وأقمشة تغليف الكتب، وعلامات القراءة. كانت صفحات من العديد من الكتب، ومن مجلدات، متفسخة ومتحللة. ومن خلف ذلك، عندما فتح الطبيب المشدوه بمشرطه جلد حلقها، كان هناك المزيد، قصاصات من الورق مطوية بدقة وعناية. تخيَّل "دانيال"، أو سمع، لا فارق، "ورق سجلات كبير، وأفرخ ورقية أكبر، وأغلفة ورقية، ومخطوطات من فالينسيا". وصف له أحد الشرطيين، الأبرص، بقية المشهد بنبرة مقت ممزوجة ببهجة:

- كان الطبيب قد بدأ في استخدام الملاقيط، ثم استعان بأطراف السكاكين والمشارط الدقيقة، قبل أن ينتهي من رحلته في جسدها بأن أدخل خنصره في مرارتها ليخرج ورقة أخرى، وكتلة من القصاصات المتحللة والتي بدأت تذوب، وفي الأعلى، في فمها، وجد صفحة كبيرة مطوية من الورق المطبوع، وكانت الوحيدة السليمة.

فكَّر "دانيال"، أو سمع، "لا بد أنها قد بدت له مثل مستند محفوظ للأبد في مكتبة دائرية دافئة".

Twitter: @ketab_n

قال "دانيال":

- أما فحوى تلك الصفحة، إن كان لها فحوى، وكذلك إذا ما كانت كل هذه التفاصيل التي أوردها الأبرص حقيقية أم لا، فهذا أمر لن يتسنى لي التحقق منه. غير أن الأسئلة انهمرت عليَّ فورًا. بادرني الضابط النحيل وبابتسامة متكلفة مرسومة على شفتيه المتقرحتين، وقد ميزت فمه تلك القرحة المفتوحة تحت أنفه: هذه هي فعلتك الثانية. كان يضع ساقًا فوق الأخرى، ويربت بأصابعه على نعل حذائه بإيقاع المارش العسكري. سمعت أن جيشين مجهولين احتدمت بينهما المعركة في الضواحي، هكذا سمعت، أو هكذا خيل إليَّ. ومن بعده تكلم الأبرص، بنبرة متعوس يعاني من تقرحات هضمية عملاقة، بسلسلة لا تتوقف من الأسئلة: أكنت أنا أقرب شخص إلى "هق"... ما نوع العلاقة التي ربطت بيننا... كم مرة تعديت عليها؟

اقترب بوجهه من وجهي، وصوته سابح في الهواء عبر ضوء آخر أو ربما عبر هزيم رعد الأصوات الأخرى:

- بماذا هددتها حتى أقنعها، ولماذا عذبتها؟ كانت أسئلته تتطاير بيني وبينه عبر المكتب، كلمات بيضاء داخل أخرى سوداء، هكذا أحسست بها، مزيج من النور والعتمة.

"لماذا فعلتها؟"، سمعه "دانيال"، وداخل تلك العبارة سمع عبارة أخرى، مثل شعاع ضوء داخل ظلمة ممر: "رطبة في المعدة، سائلة في البنكرياس".

أكمل "دانيال":

- كنتُ القاتل الوحيد في العنبر، والكل رآني وأنا أتعقب الفتاة، طوال النهار، وأسبوعًا بعد أسبوع، ولاحظ المرضون والممرضات الهلع المستمر

Twitter: @ketab_n

في عيني الفتاة المسكينة، وكيف أن الفزع كان يصيبها بالشلل في كل مرة أحضر فيها إليها، وتنهار على الأرض وترتجف أينما كانت، ويقولون – رغم أن هذا غير صحيح – إنني كنت أعذبها ساعة تلو الساعة بقراءة فقرات مرعبة وحشية من الكتب التي أحتفظ بها في غرفتي، فسألني الشرطي عن طبيعة تلك القصص وعن كيفية إجباري لها. كما أخبرني أن الطبيب والممرض اللذين تحدثا إليه في الساحة قد شهدا على تمردي وعصياني ورفضي الدائم للكلام، وتحدثا عن الطريقة التي أرد بها على أسئلتهما، بفقرات من الكتب، بنفس الطريقة التي أجبر بها المرضى الآخرين على التحدث بصراحة عن الأمور التي تصيبهم بالاضطراب، وتقلقهم، وتحدث لهم، وكيف أنني قد أفسدت حلقات العلاج الجماعية التي أجراها الطبيب الملائكي الوجه والممرضة مزكومة الأنف في الساحة الرئيسية، في كل ظهيرة، وما هو ردي على كل ذلك.

– "هل ستتظاهر بالجنون مرة أخرى؟"، هددني الشرطي الأبرص، "إلى متى؟"، أما الشرطي متقرح الفم فكان يضحك، "عيب على تلك الفتاة". "كيف خدعتها وأقنعتها بأن تفتح الباب لي، وما هي الأكاذيب التي سقتها لها حتى تدخلني الغرفة، وما هو شعورها حينما أجبرتها على أن تفتح فمها، وكيف أقحمت كل هذا الورق في جسدها، كم ساعة مرت عليها وهي تعاني قبل أن تفارقها روحها، كيف تسنى لي أن أدخل يدي إلى تلك المسافة، وكيف لم تعضني المسكينة، وتقضم الأصابع التي كانت تقتلها، وفي أي لحظة من الليل استسلمت، وهل كنت أنظر إلى عينيها وأنا أخنقها، ولماذا تركت المقص على الفراش، وكم كتابًا استخدمت، وأين بقية

Twitter: @ketab_n

الكتب. في البداية كان صوت الأبرص، ثم صوت متقرح الفم، ثم صوت صاحب عسر الهضم، ثم أصوات أخرى كثيرة.

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

في كل مساء، وبعد الاجتماع الأول، ينهض "جامع الكتب" من بين رزم الورق ليصعد في السلم الحلزوني، وكتاب أمام عينيه، مخفي عن أعين المارة والشحاذين الذين يتدفقون إلى أرصفة المدينة المزدحمة إلى حد الجنون، ويمشي ويمشي إلى أن يصير وجهًا لوجه أمام باب مُفضٍ إلى منزل أو فندق، أو نباتات بلاستيكية، أو همهمة وتمتمة البشر، ونفس المرأة عند النافذة، ذات الأظافر الحمراء، والعينين السوداوين الصغيرتين (أو أشبه بقطعين أحدثهما مشرط جراح)، ذراعاه خاويتان، قالت له "اسمي (جوليانا)، وما اسمك؟"، فيحاول أن يتذكر.. شكوك.. فيهرع إلى منزله يحتمي بداخله، وينزوي حول نفسه في وسط مكتبته، وكتبه من حوله ملقاة مفتوحة، يعلو بعضها بعضًا، لتصنع أعمدة ارتفاعها خمسة أقدام، في دائرة من حوله، وكأنها عقبان ونسور تترقب، لتنتهز الفرصة.. فتنهشه نهشًا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الثالث عشر

- ألا تمل أو تكل من اللف والدوران في هذه المدينة اليوم كله؟

- هاه! سؤال غريب؟

- غريب؟

- أنا لا أعرف أحدًا في هذا العالم يقوم بشيء مغاير لما أقوم به، سيدي.

بيت "فرناندو باستور" أقرب إلى صندوق خشبي متداعٍ في الطابق الثاني من بيوت حارة سد. أمام مدخله تتسكع الكلاب والقطط، بينما انخرط جيشان من الأطفال الحفاة في الركض واللهو ببنادق ومسدسات بلاستيكية، أو يجعلون أصابعهم على شكل مسدسات، بينما يتفادون برك الزيت والحفر الخرسانية التي استسلمت للحرارة والرطوبة، وأخرى ارتفعت وتحدبت كما لو كانت تحاول أن تلامس أغصان نباتات المطاط المتداعية اصطفافًا بطول الدرب. "باستور" ضابط بحري متقاعد وغريب الأطوار، فهو لم يخدم أبدًا على أي سفينة أو حتى زورق، وبسبب ضعف طفيف في إبصار عينيه خلال سنوات خدمته الأولى، ناهيك عن شغفه الرهيب بالكتب والتاريخ، أوكلت إليه وظيفة روتينية؛ إداري لمتحف صغير مغمور للبحرية. على مبعدة خطوات من رصيف الميناء التابع للبحرية

Twitter: @ketab_n

حيث يتسنى له انتهاز فرصة ساعة الغداء ليذهب ليتأمل هرج ومرج وصول الأفراد ونزولهم من السفن التي تمنى لو تسنى له أن يكون على متنها ولو مرة. وفي المتحف، وسط نماذج مصغرة لسفن عند الشاطئ، وملابس عسكرية عتيقة تحمل آثار رصاصات مميتة، وسيوفًا مكسورة وأعلامًا مستسلمة، ودفاتر يوميات السفن التي تركت مفتوحة إلى الأبد على الصفحة التي تصف كيف غرقت السفينة، مكث "باستور" خاملاً لاثني عشر عامًا، وقت أن كانت بقية ربوع البلاد مسرحًا لحرب فاقت – في ارتباكها وقسوتها – أي من تلك اللحظات التاريخية التي تحيط به والتي حبسها المتحف في جرار وخزائن وأجراس من الزجاج والبلاستيك، حتى حل صباح تلقى فيه مذكرة استدعاء إلى مطار القاعدة البحرية، حيث سيتم إلحاقه على قوة في إحدى المناطق القتالية.

بقي يفكر طوال ثلاث ليال، قبل أن يقرر أخيرًا أن يطلب تسريحه من الخدمة، ولكن البحرية حاكمته وسجنته لستة أشهر قبل أن تقرر تسريحه. وعقب ذلك لجأ إلى شبكة معارفه التي صنعها خلال سنوات عمله بالمتحف، وسرعان ما بدأ في تجارة الكتب، لينخرط في شبكة ضيقة ولم يمر وقت طويل قبل أن يكتسب العديد من الأصدقاء والأعداء في هذا الكار، واستحوذ على حصة في "الدائرة".

في داخل غرفة المعيشة في بيته، والذي يمكنك أن تعتبره امتدادًا للمتحف، شق عمود من ضوء يحتضر المكان ليضخم من الهواء به، ومن حوله سحابة من الناموس الحائم الذي يداعب قطعة مبتلة من الجبس

Twitter: @ketab_n

المسوّس والتي بدا أن أحدهم قد اقتلعها من جدار حصن ساحلي ووضعها بهذا الشكل المفكك في وسط الغرفة.

قال "باستو":

- كانت أول مرة ألتقي فيها "دانيال" و"جوليانا" معًا في هذا المكان، منذ أربع سنوات مضت. كان هو كمن على رأسه الطير، وكأن أحدهم أمسك عليه ذلة فأسكته؛ بينما رسمت هي ابتسامة مصطنعة كنت أعلم أنها تود بها أن تتصنع اللامبالاة. كانت سبابة "دانيال" اليسرى معلقة بين إبهام يد "جوليانا" وإصبعها الأوسط: علامة على علاقة مذبذبة يعلم كلاهما أنه أسيرها.

حكى لي "باستور" عن تلك الليلة وليالٍ أخرى عديدة غيرها، سواء في بيته أو بين "دانيال" أو "جوليانا"، منوهًا بـ"أديلا"، التي وصفها بكونها الإنسانة خالية البال خفيفة الروح التي خالطت كائنين من الموتى الأحياء: قال لي إن "أديلا" كانت تغني له – في الأوقات التي يغيب فيها "دانيال" و"جوليانا" عن المكان – "سلباني اسمي، لكنهما لن يسلباني السعادة".

كما تذكر "باستور" تلك الأمسية، عقب أول لقاء لهما بعام تقريبًا، عندما حضر "دانيال" إلى هذه الغرفة، وقد التصق شعره بجبهته المتعرقة، وقد استحال لون يديه وعيناه إلى البنفسجي الداكن، وخداه وأنفه وشفتاه كتلة واحدة شمعية من الدموع والعرق، ويفوح من أنفاسه عبق الخمر، وقد كان محطمًا تمامًا، ويقول إنه قد ارتكب فعلة شنعاء لن يغفرها له أحد.

قال لي "باستور"، بصوته المقبض اللزج:

- كانت "جوليانا" قد هاتفتني قبل وصول "دانيال" بخمس دقائق. وأخبرتني بصوت باكٍ: "فيرناندو، "دانيال" آت إليك وقد جن جنونه،

Twitter: @ketab_n

سكران وغائب عن وعيه، ويهذي باستمرار. أنت تعلم أنه لا يشرب الخمر، أليس كذلك؟ لا أدري ما الذي جرى له. رجعت البيت لأجده جالسًا سكرانًا على أرضية الحمام، والصيدلية مفتوحة وقد تناثرت منها الأقراص في كل مكان... فوضى تامة. "دانيال"... "دانيال" المسكين... يهذي، ولما رآني نهض من فوره وهرب، قطع السلم قفزًا وركض خارج المنزل. هو لم يأخذ السيارة لحسن الحظ، وظننت أنه سيتوجه إليك، بما أنك تعيش بالقرب منا. أنا أتصل بآخرين، ولكني ما عساي أن أفعل غير هذا؛ وما زاد الطين بلة أن "أديلا" ليست هنا، لا يوجد أحد هنا ليساعدني".

- وبالفعل، ما هي إلا دقائق وكان "دانيال" عندي، وفي حال أتعس بكثير مما وصفتها هي: يرتدي فردة حذاء، والقدم الأخرى مجروحة يسيل منها الدم. أكيد قطع المسافة من منزل "جوليانا" إلى هنا ركضًا؛ ويُحتمل أنه داس على سلك شائك في الطريق؛ أو داس على شظايا زجاجات مهشمة قرب الأثر؛ أو يمكن أن تكون عضة كلب حراسة: خلَّف "دانيال" وراءه خطوات دامية على درج السلم قبل أن يجلس على هذه الأريكة تحديدًا، يرتجف، وكأنه صبي يحاول التخلص من خوفه ومن آلام تعتصره من الداخل، ولكنه يرفض أن يبوح بها. في تلك اللحظة بالذات نطق "دانيال" بالجملة المروعة التي لن أنساها ما حييت: "قتلت (جوليانا)، قتلتها للتو، بالسكين، بهذه السكين". مد قبضته نحوي وفتح أصابعه ليكشف عن راحة يده، ولم يكن بها أي سكين يا "جوستابو"، ولكنه بقي يحدق باهتمام كبير في راحة يده الخاوية، وكأنه يريد أن يؤكد لي أن هذه هي أداة الجريمة.

Twitter: @ketab_n

- ذُهِلت، ولم أعرف كيف أتصرف. كان أول رد فعل لي بعد الصدمة - التي جعلت جسدي يرتجف بدوره أيضًا - هو أن أسحب "دانيال" من عنقه وأدخله إلى غرفة النوم ثم ألقي به على الفراش، قبل أن أهرع إلى منزل "جوليانا"، ولكن ما هي إلا خطوات على السلم للأسفل حتى توقفت وسألت نفسي لماذا أصدقه، لا يمكن أن يكون قد ارتكب فعلة مثل هذه أبدًا، هي هلوسة، مجرد هلوسة. ثم أنني تحدثت إليها عبر الهاتف للتو. وحتى لو كان "دانيال" رجع إليها بعد المكالمة وهاجمها قبل أن يفر ويأتيني إلى هنا، فمن المستحيل أن يتمكن من قطع هذه المسافة في هذا الزمن القصير. وهكذا عدت للداخل.

مد أصبعيه وكأنه يصور خطواته عبر الغرفة، وعيناه شاردتان وكأنها تفتش في ذاكرته عن ذلك المشهد بالذات، في نفس اللحظة التي فارقت فيها سحابة من الناموس رأسينا.

- قررت الاتصال ثانيةً بـ"جوليانا". رن جرس الهاتف عدة مرات، ومع الرنة الأخيرة علا صوت طرقاته على باب غرفة نومي والذي انفتح وانغلق فجأة. مصدومًا سكرانًا، بقدمين ملطختين بالدماء، كان واقفًا عند الباب يحدق في، بينما أتاني صوتها عبر السماعة. كانت تتساءل: "آلو؟ من معي؟ "دانيال"؟ "فرناندو"؟

- بقي "دانيال" يحدق فيَّ للحظة، وعيناه تفتش في عينيَّ، إلى أن علا صياح "جوليانا" واخترق السماعة لتمتلئ به الغرفة، ويهيمن عليها وعلينا. عندئذ تكلم "دانيال" بصوت خاوٍ هادئ، في لحظة هدوء ظاهرية نادرة في تلك الليلة:

- لا تصدقها... هذه شبح.

Twitter: @ketab_n

– كنت مضطرًا إلى الاستماع إلى هذيانه، الذي ينقلب غضبًا أو أسى، ما بين صياح وصراخ ووصف لتفاصيل الجريمة المستحيلة مرة تلو المرة، وكانت كل مرة تختلف عن الأخرى. "وجدتها مع رجل آخر... انتظرتها في منزلها" أو "تعقبتها في الشارع" أو "رأيت بعض الصور فجن جنوني".

– ولكن رغم كل هذا التضارب والتناقض بقيت نقطة واحدة هي القاسم المشترك؛ وهي أنه اعترف بقتلها بتلك السكين، وأنه أراني يديه الخاويتين القذرتين. وبعد بضع ساعات تحول هذا السكر والهذيان إلى تعب وإنهاك، واستسلم "دانيال" للنوم في فراشي. طلبت مني "جوليانا" عبر الهاتف أن أدعه يستريح. "سنعرف كل شيء في الغد". أخذت بنصيحتها، واستيقظ "دانيال" مبكرًا جدًا في الصباح التالي منهكًا تمامًا، أو هكذا أتذكره الآن. قدمت له فنجانين من القهوة وطعامًا لم يأكله، وبعد دش سريع ارتدى حذاءًا لي وغير ملابسه، وهو يعلق ساخرًا بأنه قد صار الآن وحرفيًا "في حذاء شخص آخر"، ولكن السخرية خرجت منه حزينة. وعاد إلى ما اعتاده من ثرثرة يقفز خلالها من موضوع إلى موضوع في مونولوج طويل.

نهض "باستور" وأخذ يجوب أرجاء الغرفة. تبعته حتى النافذة التي تطل على خرابة عند الناصية. لا يزال الصبية يلعبون لعبة الحرب. جيشان يطاردان بعضهما البعض، من دون راية أو علامة تميز هذا الجيش عن الآخر. يتقافزون، ويطلقون التحذيرات، ويتظاهرون بالإصابة والألم وبالانتصار والفرحة. بينما تناوشهم الكلاب وهي تلهث أو تبتعد عنهم وهي تعوي وتبحث عن ساتر لها داخل إطارات السيارات.

Twitter: @ketab_n

- في ذلك الصباح، وحينما ظهر لي أن "دانيال" قد استفاق سألته عمَّا جرى في الليلة الماضية، ولكنه عجز عن الكلام، أو يبدو أنه لم يأخذ سؤالي على محمل الجد؛ وطلب مني التليفون فناولته وسمعته يجري اتصالاً. لم يترك لي فرصة التساؤل، واعتذر مني زاعمًا أنه يحتاج إلى مكالمة "ياناوما".

- أنت تعرف "ياناوما"، صح؟ ذلك الصديق القديم من درب المكتبة.

- طبعًا... كابيسيتا نيجرا[٩].

- هذا هو. لم أعرف مضمون المكالمة، ولكن ربما لم يكن هناك ما يستحق السماع. وبأي حال أعتقد أنها لم تكن ذات صلة بفضيحة الليلة السابقة، وهو الأمر الوحيد الذي كان يهمني في ذلك اليوم. أخبرني "دانيال" أنه كان يبحث عن كتاب بعينه وأن "ياناوما" يوشك أن يعثر له على نسخة. لا أتذكر الآن اسم الكتاب، ولكني أتذكر أن "دانيال" قد انتهز الفرصة ليغير دفة الحوار مجددًا: "هناك قصة في هذا الكتاب أرغب في أن ألقي نظرة عليها. حكاية رجل محبوس في سجن ولم يسمح له باصطحاب سوى ملخص لحكايات خيالية. ومع مرور السنوات عليه وهو في سجنه تولدت لديه قناعة أن في هذه الحكايات يكمن سر الإنسان الذي سيصير إليه يومًا ما. وهكذا، أخذ صاحبنا يقرأ ويقرأ الكتاب بحثًا عن تلك المعلومة التي ستكشف له شفرة مستقبله – أو أمل حريته. قرأه مرات عديدة، بكل عناد وإخلاص الدنيا، لدرجة أن عقله قد فرغ من بقية الأفكار الأخرى، ثم صار عقله محايدًا، قبل أن يصير عقله مرآة للكتاب

---

[٩] لقب يطلق على المواطنين المختلطي الأعراق في بيرو.

Twitter: @ketab_n

ليس إلا: مكون من صفحاته وكلماته، ومنتظم بنفس ترتيب الحكايات الخيالية. وبعد أن سقط في الموجة الثانية من فقدان الذاكرة، يبقى صاحبنا على اعتقاده أن مفتاح ماضيه الذي نسيه يكمن في هذه الصفحات – ليستعيد الرجل الذي كان حرًا في الماضي. وهكذا آمن بأن مهمته هي قراءة الكتاب إلى أن تمكنه القراءة من حل اللغز.

– حكى "دانيال" الحكاية من دون أن يتوقف لحظة، وارتشف آخر رشفة قهوة قبل أن يغادر ويودعني من دون أي تفسير. وبعد أربعة عشر يومًا، كانت "جوليانا" مقتولة بحق وحقيقي هذه المرة. وما زلت حتى الآن لا أعرف ما إذا كان ما شهدته في تلك الليلة علامة أو نذيرًا، أو هو محض خدعة مسرحية فظيعة بالغ "دانيال" في تمثيلها، ربما من دون وعي منه، حتى يطلب مني المساعدة. لوم يكن بوسعي ولا بوسعها أن نفسر ما يجري. ذهبت لرؤية "جوليانا" في تلك الليلة فطلبت مني أن أنسى ما جرى، هكذا وحسب، ومن دون أي توضيح. لم تكن تريد فتح الموضوع من جديد.

– وهل التقيت "دانيال" مجددًا قبل مصرع "جوليانا"؟

– أجل، التقيته ذات ظهيرة في المكتبة. كان يفرغ صندوقًا. كنت أريد أن أعرف منه ما إذا كان قد تسلَّم الكتاب من "ياناوما"، فاكتشفت أنه لا يعرف ما أتحدث عنه، وبدا في غاية الاستغراق بذاته، يفتح الصندوق بسكين مكسورة كانت في يده، ما إن رأيتها حتى ارتجفتُ خوفًا. "لا أدري شيئًا عمَّا تحدثني عنه. أنا لم أتحدث مع "ياناوما" منذ عدة أسابيع.

اصطحبني "باستور" إلى الشارع، ومشينا سويةً ونحن نتفادى المعركة المندلعة في الخرابة عند الناصية. لاحظت عليه التوتر والحزن، فرأيت أن أخرجه من هذه الحالة بسؤال خطر لي لحظتها:

Twitter: @ketab_n

- كيف برأيك يميز هؤلاء الصبية بين الجيشين؟

رفع "باستور" رأسه وتطلع نحوهم في حيرة، قبل أن يرد:

- طرحت على نفسي هذا السؤال، ولكني عرفت فيما بعد أن تلك كانت قواعد اللعبة في طفولتي، وليست هي القواعد اليوم: فكل واحد منهم الآن يقاتل وحده ودفاعًا عن نفسه.

أخرج من جيبه مفتاح البوابة المفضية إلى الشارع، وبينما كنت أخرج عبرها قال لي وهو يعض على شفتيه وكأن حشرة صغيرة انسلت بينهما وبدأت تزحف فوق لسانه إلى الداخل:

- هل حكى لك "ميرو" عن "جوليانا"، وأنها امرأتان في امرأة واحدة؟ أعرف أن ذكر الإوز الكبير هذا قد أخبرك، أما السبب فهو أن هناك سرًا لا يعرفه إلا هو. تلك هي شخصيته. الحقيقة التي تبحث عنها لديه هو... ولو كنت مكانك... لعدت إليه من جديد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرابع عشر

أكمل "دانيال":

- بقيت الشرطة تحضر كل يوم منذ مصرع "هق"، واستجوبت كل ممرض وممرضة وكل طبيب وطبيبة. بلا جدوى. لا أحد يبقى في الردهة ليلاً. يبقى فقط نبطشيان أثناء الليل إلى أن تغلق الأبواب بعد الساعة الثامنة، ولكنَّ أحدًا لم يسمع شيئًا. بعدها قرر الأبرص وذو الشفة المتورمة استجواب جميع المرضى واحدًا واحدًا. أجلسوهم في المكتب، والجمجمة فوق رزمة من الأوراق، وكان المرضى ينخرطون شيئًا فشيئًا في لغة المجانين وهذيان له شفرته الخاصة التي لا يحكمها قانون، مستغرقين في معركة ليس لها نهاية مع طيف خفي، يستخدمون فيها أياديهم التي تتحرك مثل تروس طاحونة هواء، وأعناقهم تتحرك بلا انقطاع؛ وجحوظ العينين يعني قرب الإفصاح عن فكرة جديدة، أو عبارة مكتملة لم تسمعها من قبل. غير أن المحقق، وهو مقتنع منذ البداية أنني الفاعل، لم يحتمل سوى استجواب سبعة أو ثمانية منهم قبل أن يقرر أنه لا طائل من وراء هذا الهراء.

Twitter: @ketab_n

- لكن هذا ليس صحيحًا، أنت يا "جوستابو" تعلم أن هذا ليس صحيحًا. فأنت متخصص في اللغة وتعاملت مع أمثالهم. وبوسعك أن تستخرج المعنى من وسط تلك العبارات المجنونة، وأن توجِد لها نمطًا بعينه، وأن تستبعد منها الهذيان الذي تفرضه عقولهم الصدئة على ألسنتهم. وأنت قادر على فهم ما يقصدونه حينما يفتحون أفواههم لتندفع منها تلك الجمل القصيرة المريضة منطلقة من بقعة ما في عقولهم، وهو الأمر الذي يعجز عنه أي شخص آخر، بما فيهم أنا وذلك الشرطي.

سرد "دانيال" أحداث تلك الليلة مئات المرات: النبطشيان الجالسان عند نهاية الردهة، يلعبان الورق، أو ربما يشاهدان التلفزيون. هما رجل وامرأة (ربما كانا عاشقين، يتطارحان الغرام في تلك اللحظات... فهما يرتبان دومًا ليكونا معًا في نفس النبطشية). المرضون والممرضات، كل منهم في غرفة، والأبواب مفتوحة، جميعها تقريبًا، وعددها أربعون، أو ثمانية وثلاثون من دون باب "هق" وباب "دانيال". بوسع أي منهم أن يدخل إلى الصالة، وأن يدخل خلسة إلى الغرفة رقم واحد، الأقرب إلى المكتب، قبل أن يرحل براحته تمامًا. كما أن التمشية في الصالة ليست بالأمر المستغرب، فهناك من يذهب إلى الحمام، أو من يريد فقط التمشية لمجرد التمشية. صحيح أن القواعد تمنع ذلك، ولكن لا أحد هنا يطيع تلك القواعد. تمامًا مثل قواعد العيادة، فهناك نوعان: تلك التي لا يحترمها أحد وتلك التي لا فائدة منها، فهمتني؟

سألني "دانيال" وهو يومئ بذقنه.

Twitter: @ketab_n

- منعوا الأجهزة الكهربائية في غرفتي، وسدوا فتحات الكهرباء، يقولون إنها خطرة، وإن مصيبة ممكن تحصل، وإن ممكن أؤذي نفسي أو غيري، مع أنهم تركوا لي مصباح جاز، وسبرتاية كيروسين، وزجاجة كيروسين بحالها. يعني أنا قادر على إشعال المستشفى كله في غمضة عين إذا أردتُ هذا، وأقضي عليهم جميعًا.

"أطفئوا المحارق منذ قليل... رماد وفحم"، هكذا سمع "دانيال" (قال لي: في هذه اللحظة سمعت صوتًا، إنهم هنا).

كتب "دانيال" قائمة بمن تبقى من المرضى، الثمانية والثلاثين، ثم استبعد منها بليدي العقل والمغيبين، وكذلك من لا يرددون سوى عبارة واحدة، نفس العبارة دائمًا، وفي أي موقف وفي أي ظرف، مثل "هق، الفتاة المسكينة التي بالكاد أصبحت امرأة. وكذلك محا من قائمته مذهولي العقل، والمكفوفين، والصم والعجزة، وحتى لا يضيع الوقت شطب السيدة العجوز التي تأكل دائمًا نفس قطعة الخبز، والتي لا تنطق أبدًا بأي شيء، ومعها الرجل العجوز الذي لا ينفك يربط حذاءه من الصباح وحتى الليل. ثم حذف منها أولئك المحبوسين في غرفهم بالأمر في كل مساء، وأولئك التائهين داخل عقولهم، حتى لم يتبقَّ في القائمة سوى ثلاثة أسماء. ، قال لي:

- هل يمكنك التحقيق في الأمر؟ ثلاثتهم يقيمون في غرف قريبة من غرفة "هق"، كما إنهم – لا تضحك – عقلاء.

قالها ثم ضحك ضحكته الغريبة وأكمل:

- أخبرك بألا تضحك وأضحك أنا، ماذا بوسعي أن أفعل؟ كل شيء عبثي.

ثم أطلق ضحكة حزينة طويلة، ثم قال:

Twitter: @ketab_n

- بوسعك أن تتحدث معهم، هم بالطبع غريبو الأطوار، ولكنهم مسالمون. في البداية، كان من الصعب أن أفهم سبب وجودهم هنا: فعندما تسمع لهم تجد لكلامهم معنى، ولكن لبضع دقائق فقط، إلى أن تلحظ الخدعة: فكل واحد منهم يحكمه منطق شخصي، الذي يتناسب وحجم هذا البعد من العالم. لكل منهم جزيرته الخاصة التي يسكنها من دون شريك. ولكن لا تفهمني خطأ، فهم ليسوا مجانين، هذا مؤكد، وهم واعون بما يجري حولهم، ولكنهم يعبرون عن ذلك بطريقتهم الخاصة. أنت تعرف عن هذا أكثر مني. ستقدر على فهم ما يريدون أن يقولوه لك، فإذا كان أحدهم قد رأى أو عرف أو سمع أو خمن شيئًا ما فلديك من المقدرة ما يتيح لك التعرف على ذلك، هذا إن تكلمت إليهم. أرجوك، لهذا اتصلت بك. أنت خبير بأمورهم، هذا عملك. وأنا أخشى من أنهم سيقومون عاجلاً أم آجلاً بمنعى من الاتصال أو الكلام مع أي أحد.

أكمل:

- افعل هذا بالطريقة التي تريحك، هذا إن كنت تريد مساعدتي. ستسألني عن سبب استبعادي لجميع ممرضي العنبر المجاور: هناك أربعون غرفة، بها أربعون شخصًا، وهو عنبر الخطرين، ومن لهم سوابق في العنف، وأغلبهم جاء من السجن إلى هنا؛ ولكن اسمعني "جوستابو"، وأعتقد أنني قد قلت لك هذا بالأمس: لا سبيل للوصول من ذاك العنبر إلى هذا العنبر، إلا إذا نجح أحدهم في المرور عبر هذا الممر من هذا الجانب وعبر غرفة تبديل الملابس الخاصة بالموظفين ومن بعدها أكشاك البستاني، وبعدها اتجه مباشرة نحو مكتب الاستقبال، ليمر أمام الحرس والممرضين

Twitter: @ketab_n

(ولو كان هذا ممكنًا لكان من السهل على الجميع أن يهربوا من هذا المكان في كل يوم)، وبعد ذلك يمر عبر كافيتيريا الموظفين قبل أن يقطع الصالة إلى هذا الجناح من العيادة، ناهيك بأنه سيكون مضطرًا إلى قطع هذه المسافة وكل تلك العقبات مجددًا في طريق عودته. ألا ترى أن الأشباح وحدها هي التي يمكنها أن تنجح في ذلك؟ والآن أخبرني، أرجوك، هل ستساعدني؟

سألني وهو يخرج من جيب قميصه ورقة مطوية على هامشها ثلاثة أسماء وثلاثة أرقام مكتوبة بقلم رصاص.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

"يقتحم حشد منزل أحد الأقزام: أربع قوائم من خشب الكافور، وعارضة واحدة، وأثاث أشبه بنماذج مصغرة. أخذ المقتحمون يتشممون المكان، وهم محنيو الأظهر، ويفتشون أسفل وفوق كل شيء، ووراء الأواني، وداخل أباريق المياه السوداء، حتى وجدوه في آخر الأمر - رجلاً ضئيل الحجم للغاية - خلف المنزل، مختبئًا في المرحاض. غادروا المنزل يسحبون القزم على الأرض مسحولاً، وحينما تيقن من رحيلهم، خرج ابنه من أسفل فراش – عيناه غاضبتان، أخضر الأسنان واللسان، صبي، بنفس حجم والده، وربما في تلك اللحظة توقف جسده أيضًا عن النمو. انطلق الصبي مقتفيًا آثار العصابة، وهو يبكي ويصرخ، واستمر على تلك الحال نهارًا وليلة، إلى أن قاده الأثر الذي اقتفاه في الليلة التالية إلى أحد الكهوف: وفي وسط العتمة وجد إصبعًا، وكعبًا، وأنفًا. أدرك من فوره أن هذه أشلاء أبيه، وأمضى ثلاثة أيام يجمعها، ويرتبها، ويعيد تشكيل جثة والده، ولما انتهى جلس إلى صخرة عند مدخل الكهف، وأسند يديه إلى ركبتيه، ناظرًا إلى جيفة القزم: بدت عملاقة بعدما جمع أوصالها الممزقة: ثلاثون عنقًا، ستون عينًا، وستمائة إصبع".

قلِّب "جامع الكتب" الصفحة، وانتقل إلى الحكاية التالية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الخامس عشر

- ما هذا؟

- لا شيء. مجرد ضوء إشارة مرور يخرج على شكل شبكة معلقة.

- هممم. لهذا وضعوا القوانين، أليس كذلك؟

سألني "ميرو":

- أترى هذا، "جوستابو"؟ هل تعرف ما هو؟

كان يقف في زاوية مكتبه خماسي الأضلاع بمبنى الجريدة، وكان العجوز قد أغلق للتو ضلفة في قطعة عملاقة من الأثاث الخشبي والتي لم تكن مكتبًا يعود إلى القرن الماضي، كما خمنت، أو بيانو كبير الحجم، بل كانت آلة هزلية مصنوعة من بقايا الصفيح وأنابيب ومصابيح كريستالية، ذات مقابض على كلا الجانبين، وغطاء زجاجي شفاف على الحواف التي يبرز منها نصلان معدنيان ملفوفان بالفايبر، وبينهما شيء أقرب إلى منظار غواصة. رفع "ميرو" رافعة ارتفاعها يصل إلى ركبته، فأصدرت أقماع القصدير أنينًا قاسيًا خشنًا، وبعد ارتعاشة لحظية، بدأت تدور في اتجاهات متعلكسة. نوّرت صفحة من ضوء قطري في المنتصف، لتنير الغبار في الهواء وجناحان سوداوان فضيان لفراشة طارت عن المصباح في

Twitter: @ketab_n

ذات اللحظة لترفرف حول الشعاع المنير. انطلق النور ليتراقص بين صفين من المرايا المقعرة المثبتة فوق الآلة، وبادر "ميرو" بتغطية الجدار بقماشة ذات لون كريمي مصفر سحبها من أعلى المكتبة الصغيرة التي تسد النافذة الخامسة في مكتبه. أما بقية النوافذ الأربع فكانت مغلقة من قبل. عندئذ التصقت صفحة النور بتلك الشاشة، وبدأ بريقها يشكل مجموعة من الأشكال التي صارت تضح شيئًا فشيئًا، وكأنما هي كائنات تم استدعاؤها من بُعدٍ آخر.

قال "ميرو" (بينما تتضاعف الصور الواقعة على شبكية عينه التي زاغت):

- في البداية كانوا يسمون هذه الآلة "زوتروب"، ثم سموها "براكسينو سكوب". ولهذا كانت في نسختها الأولى أصغر حجمًا بكثير. وقام مبتكرها، وهو رسام وميكانيكي فرنسي اسمه "إميلي رينو"، بتطويرها بهذا الحجم الهائل في نهاية القرن التاسع عشر، وأطلق عليها اسمًا كالحلم: المسرح البصري للظلال المنيرة. وارتحل آلاف الناس عبر غربي أوروبا ليشاهدوا هذا السحر، في معمل "رينو"، بنفش شغف أطفال صغار يدخلون خيمة ساحر لأول مرة في حياتهم، وشاهدوا صورًا متحركة لأقزام كوميدية رسمها "رينو" ولونها بنفسه: أقزام مستلقية على ظهورها وتنخرط في حركات بهلوانية بالكرات والمكعبات، وتقوم بحركات خطرة وتتقافز وقد عقدت أذرعها خلف ظهورها. وكان على المتفرجين الانتظار في طوابير لساعات، وذلك لأن النسخة الأولى من المسرح البصري للظلال المنيرة كانت تحتوي على عين واحدة. "مثل هذه التي تراها أمامك".

كان "ميرو" يحكي لي بفخر، وهو يشير إلى تلك الآلة العملاقة:

Twitter: @ketab_n

- هذه الآلة هائلة الحجم امتلكت القدرة على عرض صورها المتحركة على شاشة بيضاء: وهو ما يعني أنها قد صنعت عقب عام 1892.

ثم أعلن بنبرة تشويق وهو يلضم طرف شريط بخرطوش مثبت بالآلة:

- ما أنت على وشك أن تراه الآن هو أقدم فيلم سينمائي في العالم كله.

ظهر رجل سمين يرتدي قبَّعة سوداء مستديرة ويميز وجهه شارب ضخم يكاد يقسم وجهه إلى نصفين، وكأنه فم رهيب لدمية ماريونيت شرقية. وجهه البشوش، ويداه، وملابسه، وتعبير الملل في عينيه. ومن خلفه ديكور بدائي لمشهد ريفي صنعته ضربات فرشاة، بينما يتمشى الرجل بتؤدة، وينظر نحونا بإصرار وفضول، حتى توقف أخيرًا، ونحن لا نرى منه سوى نصفه الأعلى. وبغتة، وكأنما نبهته إشارة ما، بدأ يصنع بوجهه مجموعة متضاربة من التعبيرات الأقرب إلى "التراجيكوميدي" مع حركات غريبة بيديه. يتلاعب بحاجبيه في المنطقة بين أسفل جبهته ومنبت شعره الذي بدا وكأنه قطعة لامعة من الجلد. يحرك شفتيه من دون أن يصدر صوتًا، بينما تضخمت شرايين وأوردة عنقه وهو يطلق صرخات هيستيرية، ويتردد رأسه بأكمله بحركة بندولية ويلف من دون أن يلتف عنقه، فبدا جسده وكأنه مصنوع من الحديد

قال "ميرو" بعد أن أوقف العرض:

- اسمه "فيليكس جاليبو". كان ممثلاً كوميديًا اشتهر في جنوب شرقي فرنسا وشمال إيطاليا وإسبانيا بعروضه في الشارع والتي يقدم من خلاله شخصيات من خياله، كانت مزيجًا من خصال اشتهرت عن بعض الحكام الأوروبيين، وكان بالأخص يقلد بمبالغة كوميدية "أمبيرتو الأول"، ملك إيطاليا وأمير بيدمونتي.

Twitter: @ketab_n

أعاد "ميرو" العرض فاستمر الرجل يتقافز لبضع مرات، وعيناه جاحظتان تحدقان في بقعة لا نراها، ثم أكمل:

- في عام 1896، وبسبب اضطرابات عسكرية في "أبيسينيا"، قرر "أمبيرتو" التوقف عن توسعاته الإمبراطورية، ولقي هزيمة اضطرته إلى جباية كل عائدات الزراعة لدعم المجهود الحربي، فعانى فقراء إيطاليا من مجاعة رهيبة قتلت الآلاف منهم. وفي بلدات الشمال، مثل "نوفارا" و"أليساندريا"، وكذلك في "تورينو" في الشرق، أراد الناس الانتقام من الملكية فوجدوا ضالتهم في "جاليبو"، والذي كان من حظه أنه قادر على إذكاء حماس العوام بتلك التعبيرات البلهاء التي يسخر بها من الملك؛ فهو يشبهه إلى حد عجيب.

حدق الرجل في سماء وهمية، ومد أصابعه المتسخة، وزم شفتيه في غضب، وأخذ ينفخ ويزفر: كان يستهل خطبة ملكية ساخرة. قال "ميرو":

- لما يقرب من الثلاثين عامًا تقريبًا، وبعد اختراع "البراكسينوسكوب" (جهاز الرسوم المتحركة) رفض رينو استخدام الفوتوغرافيا كمادة خام لأفلامه. بل كان يفضل عمل رسومات ومنحوتات، مقتنعًا بأن قيمة هذه الوسيلة الجديدة لا تكمن في محاكاتها الدقيقة للعالم، بل في التشويه الذي تصنعه يد الإنسان في تلك النسخة من العالم. ولكن، ومع نهاية القرن، ابتكر "أديسون" "الكينيتوسكوب"، ليقضي تمامًا على مسرح "رينو" البصري. فقرر الفرنسي، الذي كان على وشك الإفلاس، الاستعانة بـ"جاليبو" وسجل عبر آلاف الصور الخام جميع الحركات التي اشتهر بها شبيه "أمبيرتو الأول".

Twitter: @ketab_n

(في تلك اللحظات كان الرجل على الشاشة يميل برأسه جانبًا، بينما عيناه تحدقان في المنطقة بيني وبين "ميرو").

قال لي العجوز وهو يحول صفحة الضوء إلى الجانب الآخر من الغرفة:

- لم يكن "رينو" راضيًا بأن يكون مصير آلته مجرد آلة نسخ، ورغب في إكساب شخصياته بعض التعقيد حتى لا ينتهي بها المطاف إلى أن تكون صورًا مسطحة ضحلة على جدار. كان البشر في أفلام "أديسون" أشبه ببقع بدت ولعجب الكثيرين وقتذاك أقرب إلى مخلوقات من لحم ودم، وكان دائمًا يقول إنه لا شيء أكثر إثارة من هذه المحاكاة. ولم يرغب صاحبنا في شيء كهذا، فابتكر آلة مدهشة.. انتبه.

كنت قد قصدت "ميرو" وفي عقلي سؤال وحيد، وسألته ذلك السؤال عند وصولي إليه، ولذلك كنت قد بدأت أتململ من كل هذا اللف والدوران. عاد العجوز المستغرق في كل هذا الشرح وفي يده شريط جديد. وأعده للعرض. واختفت صورة السمين ذي القبَّعة المستديرة لتحل محلها صورة لرجل يشبهه، ولكن وجهه غارق في الدموع ونظراته مضطربة. قال "ميرو":

- إن هذا هو "فيليكس رينو" مبتكر الآلة. إنه بورتريه متحرك. ولو أمعنت النظر فستجده قد اتخذ وضعية "جاليبو" بكل حرص وعناية، وسوف يقوم بتقليد كل حركاته، ولكن ليس تعبيرات وجهه. تتجه صورة "رينو"، تمامًا مثل الصورة الأخرى، إلى سماء وهمية، وترتفع أصابع منهكة، بينما تعبر الشفتان عن حنين وشغف: قبل أن يلقي بخطبة. أكمل "ميرو":

- لقد قام "جاليبو" بتأصيل تلك النسخة من "أمبيرتو الأول"، المارقة الحاقدة، دون أي مشاعر أخرى سوى الغضب والعنف، وقد تصور "رينو" هذه النسخة الأخرى؛ نسخة الإنسان الوحيد اليائس الحزين. وقد

Twitter: @ketab_n

كرر الحركات بدقة ملليمترية؛ أما التناقض في التعبيرات فكان فطريًا. والآن، أنظر إلى ما يحدث عندما نضع الشريطين فوق بعضهما البعض: سوف أضع هذا هنا وأضع الآخر خلفه. فإذا قمنا بتشغيل الجهاز، عرض الشريطين في ذات اللحظة. ها نحن ذا. هل تلحظ أن الشريطين معًا يكمل إحداهما الآخر، فتصير الشخصية أوضح؟ ومع هذا فإن الفوارق الطفيفة تمنح الوجه الجديد صبغة شبحية.. هل ترى؟

بينما يشرح "ميرو"، شاهدت على الشاشة وجهًا ثالثًا يبدأ في الظهور، بسبب عرض الشريطين معًا. كان طيفًا شبحيًا: ملامحه مشوشة في أطرافها، وكأنما يخرج من حوض ماء، ولكنه غير مستقر أو ثابت. بدا التواؤه نتيجة لصراع حميم، وأوحت قوة إيماءاته بتعبيرٍ عن الشك، وتعبير من الخوف والألم ظاهرٌ بوضوح على دمى الظل الأرابيسك على يديه، بينما تتحرك حول الوجه: فهذا الملك ليس سوى جبان؛ هذا المستبد مجرد طفل كاره للبشر؛ وكل واحدة من تلك الإيماءات تناقض الأخرى.

أكمل العجوز:

- لم يحقق "رينو" نجاحًا بهذا التنقيح لـ"البراكسينوسكوب". لقد كانت هناك حاجة إلى "فرويد"، لكي يجعل العامة يتعرفون على خبايا أمثال تلك الشخصيات المنحطة التي تناقض ذاتها، والتي تتصرف على العكس مما تشعر به، والتي تعكس بوجهها وجوهًا عدة معقدة ومركبة، قد يكون من بينها وجه أقرب إلى الثقة والتصديق؛ أقرب إلى الإنسانية.

قلت له بعد أن نفد صبري:

- كل هذا شيق بلا شك، ولكن هلا عدنا إلى سؤالي؟

Twitter: @ketab_n

أوقف "ميرو" الآلة، فثبت وجه "رينو" - "جاليبو" المزدوج بمزيج من الحماس والأسى على الشاشة خلف ظهره. بقت العثة ترفرف بجناحيها حول شعاع الضوء.

- ظننت أنني قد أجبتك بالفعل. لقد أخبرتك أول أمس أن "جوليانا" كانت مزيجًا من امرأتين، وأرى أنني قد أوضحت لك الآن ما أقصده. ولكنك لست من النوع الذي يستوعب المجاز. هذا هو الفارق الأهم بينك وبين "دانيال".

- ولكن هذا ليس مجازًا: ما تقصد قوله هو أن هناك "جوليانا" كامنة داخل "جوليانا" التي تظهر لنا؛ "جوليانا" أجهلها، ولم أعرف سوى تلك الخارجية، تلك الطافية على السطح، إن صح التعبير.

- حسنًا، كلامك صحيح وممكن تطبيقه على كل من التقيته في حياتك، حتى نفسك. ما أقصده، "جوستابو"، بأن لكل منا وجهان هو أمر آخر. لقد كان هناك اثنان "جوليانا" في حياة "دانيال"، وتلك الأخرى هي مفتاح السر الذي تبحث عنه. كانت الاثنتان تعيشان في المنزل نفسه. وواحدة منهما ماتت قبل الأخرى بأربعة عشر يومًا، وهي تلك التي تفتش وراءها، صديقي، تلك هي خطيبة "دانيال". وأدت وفاة واحدة إلى وفاة الأخرى. كان يحب الاثنتين معًا، ولم يحب واحدة دون الأخرى. أيقن "دانيال" أن كلتيهما وجهان لعملة واحدة: وتلك التي اشتاق إلى أن تكون معه لم توجد في هذا العالم: تاق إلى أن يعيش مع صورة "ستيريوسكوب" لـ"رينو" و"جاليبو" معًا، إن شئت أن أقرب لك الصورة بهذا الشكل، وليس مع صورة أحادية دون سواها.

Twitter: @ketab_n

كنت ساخطًا متحيرًا، ثم ازددت سخطًا أكثر من ذي قبل. وحده عجوز خامل مثل "ميرو" قادر على أن يطرح ألغازًا عن شيء من هذا القبيل، وكنت على وشك أن أصارحه بذلك لولا أن سمعت منه حشرجة لم أعرف إن كانت شهقة أم "زغطة" أم هي سعال، قبل أن يشرع مجددًا في تشغيل "المسرح البصري للظلال المضيئة". وفي بريق شعاع الضوء الذي لمع في عينيَّ، تبينت وجه "ميرو"، وصوته الذي لم يتغلب على صوت الآلة، وهو يقول إنها ليست لعبة تخمينات أو فوازير:

- هي ليست فزورة، "جوستابو"، فأنت تعرف المرأة الأخرى. تلك التي لا ترد عليك حينما تناديها "أديلا"، وذلك لأنه لم يكن اسمها. أتذكرها؟ خادمة "جوليانا"، تلك الفتاة اللعوب التي تصم أذنيها عنك إن ناديتها بالاسم الذي أعطته إياها مخدومتها: "جوليانا" الثانية، الحبيبة التي جلبها "دانيال" بنفسه إلى منزل الأولى، ربما تحت أمل أو وهم أنه حينما يضع الاثنتين معًا تحت ضوء النهار، وفي البقعة الصحيحة، فلسوف تجسدان له معًا المرأة التي حلم بها.

في تلك اللحظة، ومع الصورة على الشاشة والصورة الكليلة لـ"ميرو"، الذي انحنى ممسكًا صدره عند المكتب، وهو يحاول كبت السعال، تخيلت البورتريه ثلاثي الأبعاد لـ"جوليانا" الأخرى، "أديلا"، تلك الفتاة الصغيرة الشقية المتبسمة والتي بدت الكائن الحي الوحيد في ذلك المنزل الذي يجوبه "دانيال" وخطيبته كشبحين يكفران عن ذنوبهما. وتذكرت تلميحات "دانيال" الصامتة، ولهفته غير المفهومة في كل مرة تكون فيه المرأتان في ذات المكان، وفوق تلك الصورة التي تخيلتها أمام عينيَّ رأيت "دانيال" وهو يفتح قبضته ليُري "باستور" تلك السكين الخفية التي قتلها بها.

Twitter: @ketab_n

– التقاهما "دانيال" معًا في ذات الفترة الزمنية: كانت صديقتنا تعمل هنا، بينما الأخرى على مبعدة ثلاث أو أربع عمارات، في شارع صغير معتم كنت أنت من عرَّفت "دانيال" على وجوده في المنطقة لأول مرة، منذ سنوات عديدة مضت. كانت راقصة في كازينو، وأراد هو أن يخرجها من ذلك المكان، ولكن فضوله نال منه، وبدلاً من أن ينقذها وضعها في منزل الأخرى. وعقب ذلك حوَّل المنزل إلى حقل تجارب كانت نهايته مفجعة كما تعلم. إنني لا أخون "دانيال" عندما أخبرك ببقية الحكاية، "جوستابو". ولكنك سوف تروّع، كما كان حالي، حينما تعرف أن صديقنا لم يكن بذلك القاتل الذي ارتكب جريمته بعدما أعمته الغيرة، بل هو مجرم قتل بيديه مرتين على الأقل، وعليك أن تعرف سر هذا بنفسك: لقد اعتدت بالفعل أن أتعايش مع تلك الفكرة، والآن قد حان دورك لتسبر أغوار كل شيء وأن تفهمه. وهناك شخص واحد لن يؤنبه ضميره حينما يخبرك بالحقيقة كاملة، هذا بقدر علمي: عليك أن تقصد ممر المكتبات لتسأل "ياناوما".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

السادس عشر

لو نظرت إليه اليوم، لظننت أنه تابوت هائل الحجم قلبه أحدهم على جانبه، وانفتح غطاؤه أثناء ذلك. له زاوية تجعله أكثر ارتفاعًا في جانبه الأيسر، هنا، وهو ذو سطح غير متساوي، وهو قصيرٌ من ناحية الجناح الأمامي، بينما يستطيل نحو المؤخرة، هنا. وبداخله، كما سوف ترى، يقسمه جدار حجري إلى نصفين، وتغطيه الآن محارة إسمنتية، وبه عيون سحرية – مسدودة الآن – كان الحرس المتمركزون يستخدمونها في السنوات الأولى لهذا المكان. لأنهم عندما وضعوا أساس هذا المبنى لم يكن مستشفى. فقد كان "سرايا" منذ قرابة ثلاثمائة عام، ومن بعيد كان يبدو على هيئة مكعب منفرد هائل الحجم من القش، جدرانه من الستوكو أو الطوب اللبن، وتيزنه من الخارج كرانيش وأفاريز مزخرفة بورود صفراء. قسَّموه من الداخل إلى مجموعة كبيرة من الغرف الصغيرة المتماثلة. بناهُ واحدٌ من الأثرياء عُرِف عنه بغضه لبقية البشر، وشكه في كل أحد وكل شيء، وكان يرتجف غضبًا وسخطًا وخوفًا في كل مرة يرى فيها تجمع

Twitter: @ketab_n

للهنود والسود والخلاسيون[5] في الشارع، ولذلك قرر أن يعيش حياته منفصلاً عن المدينة – ففي ذلك الزمان كانت هذه المنطقة خارج حدود المدينة – وأمر بأن يبنوا له هذا المنزل بجوار الوادي، فوق رحبة صخرية، أمكنهم فيها أن يكفلوا للمنزل احتياجاته من المياه عبر حفر بئرين دائمتين. اعتاد الرجل أن ينام وحده في السرايا، ويقضي كل ليلة في غرفة مختلفة، وفي النهار لا يسمح بدخول أحد عليه سوى خدمه. وهكذا ارتاح إلى هذه السكينة والهدوء وأمان بعد المسافة، وقضى ما قدر له من سنوات في تلك الوحدة المريرة، كان خلالها يرسل خدمه إلى المدينة لشراء الحاجيات والعودة إليه بأخبار المدينة؛ عمدة جديد، شارع جديد، كتاب جديد. لم يكن يحب القراءة، بل كان يعاديها. (لم يسمح لكتاب بعبور عتبة السرايا). غير أنه وجد نفسه على الرغم من كل هذا تحت وطأة الخبر الذي كان يخشاه، وبدون مهرب: ذات خريف، وبينما هو جالس في شرفة من شرفات غرف نومه العديدة، أيقن أن المدينة هي من قررت أن تأتي إليه، بكل دهمائها وهوائها العطن. فلم تكن قد مضت سوى سنوات قليلة عليه وهو هنا يسكن أعلى تبة عند حافة الوادي حينما رأى بعينيه كتلة المدينة السوداء وهي تتوسع يومًا بعد يوم، متسللة إلى الريف، ومتغلغلة نحو حدوده. ولحسن حظه، لم تكن المدينة تنمو في دائرة موحدة النمط، مثل موجة انفجار، ولكنها كانت تندفع بالزخم الذي بدأت به، واستمرت تمتد من خلال ذاك

---

[5] هم أناس من أصول مختلطة من الأوروبيين والأفارقة، ينحدر معظمهم من مستوطنين أسبان أو برتغال من جانب والعبيد الأفارقة من الجانب الأخر وذلك خلال فترة الاستعمار.

Twitter: @ketab_n

الشارع الحلزوني الكبير الذي نبع من وسطها، ليغير من كل بلدة يمر بها ويفتح فيها الأزقة في التقاطعات والنواصي، واستمر يتدفق على جانبيه.

- انظر: إذا كان هذا منزل العجوز - ذلك الذي هناك، أتراه؟ - وكان هذا الوادي، هنا في القلب، فأريدك أن تتخيل أن المدينة كانت في هذه المنطقة، بعيدًا: وفي المساحة بينهما امتد الشارع الحلزوني، بينما يقترب كل تقوس من تقوساته أكثر من سرايا الرجل. هل ترى؟ قام الناس ببناء أكواخ ودروب للخيول على جانب هذه الطريق الصاخبة، بطريقة أضحت معها هذه الطفرة دورية: فمع البيوت يأتي الضجيج، والصخب، وحشود سكان المدينة البائسون. وفي كل مرة يظهر أنهم قد أخذوا الخطوة الأخيرة في عملية غزو أراض هذا الثري كاره البشر ووديه الخاص في هذا الوادي المفتوح، ويستمر الشارع في امتداده والتفافه حول الجانب الآخر من التلال، ليصنع حلقة جديدة، أقرب فأقرب.

بعد مرور عدة سنوات، زاد عدد الحلقات، وزاد اقترابها، حتى كان يوم آمن فيه صاحب السرايا أن الدفعة الجديدة من الغرباء ستصل إلى حدود ممتلكاته، وستستولي على السرايا، فقرر أن يحولها إلى حصن، وبنى سورًا عاليًا حول قطعة الأرض المستطيلة التي يمتلكها. وأشرف لشهور على البنيان: وكان يطل برأسه من نوافذ غرفه العشرين ليصيح بملاحظاته على الأخطاء، ويحدد الأبعاد والخامات المطلوبة من على البعد، ملوحًا بعصاه العاجية من عُلو، من دون أن يفكر ولو للحظة في أن يخرج بنفسه من حصنه الحصين. ولما اكتمل البناء، اصطف الرجال الملطخون بالدماء والطين على طول السور الأمامي للحصن، قريبين من عربات تقودها

Twitter: @ketab_n

البغال تنقل القصب والمونة المستخدمة في بناء منازل جديدة، وكتائب البشر الذين يتضورون جوعًا، والذين في طريقهم إلى وضع أيديهم على أراضٍ لا يمتلكها أحد بين المدينة والبحر. ونما الشارع حتى تاخم الجدار الجانبي للبناء العملاق. وهكذا صارت هناك عقبة في طريقه، وفي ظل وجود تلك الغابة الممتدة خلف السرايا، فكان لزامًا أن ينحني الشارع ويصنع حلزونًا جديدًا في الاتجاه المعاكس، وبدلاً من أن يتسع أخذ ينغلق على نفسه، وكأنه ثعبان مكسور النفس. وأضفى على المدينة الجديدة شكلاً دائريًا مكونًا من حلزونين بالكاد يتلامسان عند هذه النقطة.

- تعالَ هنا، قف هنا، انظر إليها من فوق: فهمتني؟ على شكل رقم ثمانية إنجليزي، حلزونان يتقاطعان في نقطة وحيدة، وهذه النقطة كانت هي السرايا؛ واليوم هي المستشفى.

عندما تحولت سنوات العزلة إلى عقود، صار الرجل الهرم أكثر جنونًا. فقد أمر بتغطية الأرض بين الجدران، ليحجب الساحات الخاصة بالسرايا وأراضيه. وعلى جانبي التصميم المكعب الأصلي، صنع صفين من الغرف المتماثلة، وجعلها واحدة تلو الأخرى على امتداد صالتين مقوستين، وكانت كلاً من الصالتين على جانب من المنزل القديم، تحت ذلك السقف العملاق: مساران بيضاويان، يزداد انغلاقًا في كل مرة، جديلتان، حلزونان، يفضي كل منهما إلى ساحة مركزية، هي المساحة الوحيدة غير المكشوفة في الصرح كله، حتى بدأ البناء الذي نذر له حياته يأخذ الشكل نفسه الذي سوف تتشكل به المدينة لاحقًا ولما يقرب من قرن من الزمان.

Twitter: @ketab_n

- هذا هو السر وراء الشكل الحالي للمستشفى: فهو لمحة، وبعد نظر؛ ولغزًا محيرًا في آنٍ واحد. هل تفهم ما أعنيه؟ الأمر صعب من دون خريطة مفرودة أمام عينيك: فالمدينة والمستشفى صنوان. أنت، وبسبب عزلتك، بالكاد عشت في المدينة، ولكنك ستعيش في المستشفى، لذلك كان من الجيد أن تعرف الحكاية، وألا تنساها. أولئك الذين يعيشون في المدينة لا يسعهم الفهم؛ هذا مستحيل.

المدينة مقسمة نصفين، وكذلك المستشفى، ومن يعش في أحد نصفيها لا يتخيل أبدًا حال من يعيش في نصفها الآخر.

- هل تعلم لماذا قسموا المستشفى على هذا النحو؟ عندما مات الثري العجوز، من دون أولاد، ومن دون ورثة يحملون اسمه (مات ظهيرة سبت، ووجدوا جثته صباح الأحد، حينما وجدوه في فراشه، عاريًا، مرتديًا حذاءه طويل الرقبة والذي كان مغطى بما بدا أنه طين من الدغل المجاور للحصن)، تولت الكنيسة أمر البناء، وبعدها البلدية، والتي حولته في البداية إلى مستعمرة لمرضى الجذام، قبل أن يصير سجنًا. وطوال ذلك الوقت، كانت المدينة تشهد حرب شوارع، ومصادمات، واضطرابات وانتفاضات؛ فقد كانت الجمهورية قد تأسست ومعها اندلع القتال. ومن بين الصور العديدة لهذه الحرب قوى المعارضة التي كانت تسكن جانبي المدينة، ويقود كل جيش فتوة قوي، وكل جيش من تلك الجيوش ينادي بمبادئ تبدو في الظاهر مختلفة، هذا إلى أن توصلت تلك القيادات إلى معاهدة وخفتت حدة الصراع، وصار هناك تعايش معقول بين الكل. على أن هذا السلام لم يصل أبدًا إلى داخل السجن: فقد استمر الجيشان في الداخل في حربيهما؛ واعتاد السجن تلك الهجمات الخاطفة بين الجانبين، إلى أن أتى يوم قرر فيه

Twitter: @ketab_n

العمدة إنهاء كل هذا، وأمر بتحصين الجدار الذي يفصل بين الجانبين. وهكذا صار المكان مكانين، يفصل بينهما جدار صلد من الجرانيت والحجر، وتحته نفق اتبع المسار نفسه قدر الإمكان ليتيح الانتقال من فوق ومن تحت الأرض من جانب إلى الآخر، عدا وجود باب صغير للحرس. ومنذ تلك اللحظة، بقي السجن – الذي كان سرايا العجوز، وسيكون المستشفى – على ذلك الشكل، وأجبر سكان الجانبين على البقاء كل في مجموعته، في ممر واحد، حتى نهاية معاناته؛ أي حتى انتهاء مدته أو موته.

– هكذا، وعلى مدار نصف قرن، كان هذا سجنًا، وفصل السور بين "الجانب الشرقي" و"الجانب الغربي". وبعدها، وعلى مدى خمسين عامًا، صار مستشفى، به عنبر لذوي العدوى الخطرة، وآخر للمرضى الأقل خطورة: أولئك المصابون بالجرب، والأنفلونزا، والثآليل، والهزال، والزهري، وفقر الدم، والالتهابات، وغيرها. هذا قبل أن يتحول في آخر خمسة عقود إلى "سرايا صفرا". ولا يزال الجدار يقسم بين المرضى. وهو أمر تعرفه ما إن تدخل إلى المكان. أقول لك الحقيقة أنت لن تدرك الفارق عندما تدخل المكان. هل لاحظت الاسم الذي تحمله هذه "السرايا الصفرا"؟ إنها تحمل اسم العجوز الذي بنى هذا المكان. يبدو أن أحد الموظفين، أثناء عملية تغييره من سجن إلى مستشفى، قد قلَّب في السجلات والوثائق البلدية، وعرف اسم صاحب المكان، وظن أن هذا الثري الذي يمقت البشر واحد من محبي الخير، واقترح إعادة تسمية المكان، وصارت هذه عادة منذ ذلك الحين: تحمل المتنزهات والجادات ذلك الاسم، بل ويظهر في قائمة مؤسسي البلاد. ولكن هذا لا يهم. والآن، تعالَ معي إلى هنا. أريد منك أن تساعدني في حمل هذا. أمسك هذه الحافة وأنا سأجذبه. ها هو السطح. ها هو. أعتقد أن

Twitter: @ketab_n

بوسعنا وضعه بعيدًا بعض الشيء إلى جوار فراشك. هكذا. أبعد هذه المفارش.. اشكرك.. أووب.. ليس إلى هذا الحد.

هكذا، ومن دون السقف، كان من السهل علينا أن نتأمل في هذا الماكيت الذي صنعه تصميم الصالات، والغرف، والساحتين الرئيسيتين.

- ما أريد منك أن تفهمه بوضوح هو أنك عندما تدخل هذا المستشفى هو أن هذا الجدار الذي يقسم كل شيء إلى قسمين لم يتم بنائه في مكانه هذا صدفة: بل عن قصد وتدبير. تذكر هذا: عليك ألا تحاول أبدًا الوصول إلى الجانب الآخر. هذا خطر. لا تنسى، ماشي؟ لا تنسى.

- تريد أن تعرف لماذا تكبدت عناء بناء هذا الماكيت؟ بكل التفاصيل، وبكل الدقة، ومن دون أن أنسى باب أو نافذة أو خزانة أو حتى فخ للفئران؟ سأخبرك بالسبب. هذا لأن هناك حربًا طويلة أعقبت كل هذه الحروب. ومثلها مثل الحروب التي سبقتها، كان مسرحها المدينة، وترددت أصداؤها على جدران هذا المبنى. وحينما انطفأت نار الحرب، وحل السلام – سلام فحواه أكاذيب، قررت الحكومة أن تحبس العصابات المتصارعة في هذا المكان، وخصصت لكل عصابة عنبرًا. أما الذين لم يكونوا ينتمون لأي من تلك العصابات فتم توزيعهم على الجانبين، كل واحد ونصيبه، وهكذا صاروا ضحايا من جديد. ومع الوقت، ومع السنين، لم يعد أحد يعرف من الجاني ومن المجني عليه: تبدد الفارق بين الصيَّاد والفريسة، وفتح المستشفى أبوابه للمرضى من كل شكل ولون، بعد أن عدَّل معايير تصنيفهم. هكذا ترى أن هناك جناح للمرضى العنيفين، وفي آخر المسالمين، ولم يعد أحد ينظر في سجلاتهم الشخصية ليميز بينهم وفق الجانب الذي انتموا إليه أيام الحرب. فربما وجدت جيشين متصارعين وقد تم وضعهما

Twitter: @ketab_n

في العنبر نفسه، وأحيانًا ما ينتبهون إلى هذا؛ ويدركون الفوارق، ويستشعرونها، وتعتريهم عاصفة مراوغة من كراهية غير مفهومة نابعة من ركن منزوٍ في ذكريات حياتهم، أو يستحثهم صوت آتٍ من بعيد على تدمير بعضهم البعض، فيشرعون في هذا حتى من دون استفسار. وكما تتوقع، فإن القواعد في عنبر الخطرين صارمة، مما يجعل هذه الاشتباكات نادرة، ولكنها بقيت قائمة وموجودة. الأهم هو أنه لا يوجد سبب يدفع هذان العدوان القديمان إلى الاشتباك: فكل فرد في ذلك المكان قاتل مفترض. وكم يؤلمني أن أقول هذا، ولكن بالنظر إلى كل ما قمت به، فإني أقول لك إنه عليك التوجه إلى ذلك العنبر. لهذا كان من المهم بالنسبة لك أن تحفظ كل ما أريه إياك هنا: ولذلك السبب، ولأنني أعلم أن هذه الأمور تخلب لبك، وتبث فيك الراحة، صنعت هذا الماكيت للمستشفى. تأمله عن كثب، فقد صنعته لأجلك. سأتركه لك هنا حتى تدرسه. وتحفظه عن ظهر قلب. عليك أن تعرف الأمكنة التي لا ينبغي لك دخولها، والغرف التي يمكنك أن تختبئ فيها وتغلق كل الأقفال، ولا تنسى أن تدير كل المفاتيح يوم أن تسمع بشيء غريب، أو إن شك فيك أحد، أو إن باغتك أحدهم. وتذكر قبل أي شيء آخر ما أخبرتك إياه: لا تحاول أبدًا الانتقال إلى الجانب الآخر. فهذا خطر.. خطر على الآخرين.

Twitter: @ketab_n

تمر الليالي على "جامع الكتب" كما تمر عليه أوقات الصبح: ملفات على الأرض، ونقوش على قطع خشبية ومصابيح في المكتب، وخرائط للسماء والأرض، ورسوم تخطيطية للمباني التي تتألف من قبو وسندرة، فقط لا غير. يتأمل "جامع الكتب" التصميمات، وقصاصات مناديل ورقية مثبتة إلى جدار، في كل منها أربعة دبابيس، نماذج وتماثيل مصغرة لنوع من الحيتان - بعضها قابع هذه الظهيرة في قاعتي - تتزين بها حواف كل خريطة إلى جوار مفاتيحها. أيقونات الحيطة والحذر. بيده العدسة المكبرة، وأصابعه المرتجفة تعلن عن لحظة المغادرة إلى الشارع الحلزوني لتمشية حتى المنزل أو "الموتيل". وهناك، يسمع السؤال مجددًا: اسمي "جوليانا"، فما اسمك؟ والليلة، أخيرًا، يحين الوقت، ويرد عليها: اسمي "دانيال" - أنا "جامع أنتيكات" - ويمشي من خلفها إلى غرفة من ضباب وانعكاسات، ويلحظ جلد "جوليانا"، مدبوغًا ومقسمًا إلى شرائح، مناسبًا جدًا لصنع الورق، ولأول مرة، يسمع صوت قطرة ماء تندمج في أخرى، ويرى نور شمعة لم يشعلها أحد، ويكتشف أن هناك أشياء في هذا العالم لم يتم ذكرها في الكتب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

السابع عشر

- لكنَّ اللافتة تقول إن شارع "كالي تريس إسباداس" اتجاه واحد.
- على حسب.
- على حسب ماذا؟
- على حسب اتجاهك وأنت مارٌّ على اللافتة.

مرَّت عشرون سنة على أول زيارة، وصار الشارع الموازي للشارع الحلزوني أقرب إلى برج "بابل"، وأشد زحامًا، ولا يزال أسيرًا لباعة الكتب، وأولادهم وأحفادهم. واختفى الرصيف أسفل مزيج من التراب والزيوت وبقايا الطعام؛ والسماء من فوقه أضحت أقرب وأكثر وداعة. وبدت غيومها، الكثيفة كما قطرات النفط، صلبة وظهرت وكأنها تحتوي جثث المئات من الطيور التي نفقت وهي في منتصف الرحلة، منتشرة في أنحائها، وكأنها ستسقط على الطريق في نوبة المطر القادمة: تميمة هندية هائلة صُنعت من الريش الأبيض والعظام، معلقة فوق المدينة. كانت الشوارع تتغير على طول الطريق من بيتي إلى هذا الحي، وتتخلى عن طبيعتها المعتادة، لتتحول إلى كيان قميء من أكواخ كانت في السابق أنقاضًا

Twitter: @ketab_n

وأضحت الآن كوابيسًا وتعذيبًا وانتقامًا وسجنًا. الناس في مداخل البيوت بالكاد يتنفسون، بأعين ناعسة وأفواه مفتوحة، وبنظرات تتجنب عينيَّ في كل مرة أنظر فيها إليهم، بنظرة ليس فيها تهديد ولا يعتريها الخوف، كما لو أنهم رأوا فيها نية اختلاس كلمة سر وجودهم. وبدورهم، بدا الباعة المتجولون عند المفرق مزيجًا من الود والعدوانية في الوقت نفسه.

وكذلك تغير "ياناوما": فبعد عقدين من الزمان، صار الرجل عريض المنكبين مجرد مومياء للشخص الذي عرفته؛ وتحول الشعر الأسود الكثيف إلى بعض خصلات فوق جمجمته، وعلى الطاولة أمام كشكه بدلاً من الجمجمة يوجد تمثال نصفي لـ"جوته" منحوت في ثمرة جوز هند. كنت قد التقيت الرجل عدة مرات في السنوات الأخيرة، ولكنني لم أنتبه أبدًا إلى التدهور الذي أصابه. الشيء الوحيد الذي لم يتغير في هذا الشارع كان الأهرامات، والأكوام، والجبال، والأعمدة، التي صنعتها الكتب التي ترتفع من كل مكان متضخمة تفرض نفسها على المارة. بدت نبرة صوت "ياناوما" في أذني أقرب إلى صوت بوق إنجليزي، وكان يحرك يداه ذات الأظافر السوداء لتعزز من تأثير كلماته:

- اعتاد "دانيال" الحضور إلى هنا ثلاث أو أربع أو خمس مرات في الأسبوع. وبقي لسنوات ينقب الأرفف وأكوام الكتب وباهتمام شديد بالتفاصيل، كما لو أنه يحاول في كل مرة أن يعرف محتوى كل كتاب. أراقبه يفتش هنا وهناك، وأركز على عينيه الضيقتين، وكيف تتحول فجأةً بعيدًا عن خزائن الكتب، وتتسع حدقتاهما في وجود أي غريب يمر به، وكيف يرمق بهما شخصًا ما، كما لو كان في انتظار تحية منه أو أن يسمع

Twitter: @ketab_n

منه نكتة، أو أن يتوقف ليدردش معه، أو أن يسترق منه شائعة من النوع الذي ينتشر في أماكن مثل هذه.

أكمل "ياناوما":

- هكذا صرنا صديقين، فقد نجحت – كما نجحت معك، "جوستابو" – في الدخول إلى مكان عزلته بعد أن سمحت له بأن يدخل إلى نفسي، كما أن كلينا أدرك بسرعة أننا نحمل بين أضلاعنا نفس الشغف إلى التاريخ، ونمضي الوقت ونحن نحكي لبعضنا حكايات ننسجها من وحي خيالنا، وكلانا يعلم أن قيمتها لا تنبع من صدقها أو دقتها، ولكن من حبكتها، ومن عدد الخيوط التي ينبغي الإمساك بها قبل أن نخرج من الحكاية برسالة مفهومة. ولم يكن بيننا من محظورات إلا السكوت. لا بد أن السبب هو مرض ما، أليس كذلك؟

أجبته بعد أن سكت لثوانٍ متسائلاً إن كان ما طرحه حقًا سؤالاً:

- بلى. أقصد، كلا: فهناك العديد من الناس الذين يتحدثون كثيرًا بدافع قسري، ولكنَّ قليلاً منهم يكون مريضًا.

رغم أنني أدركت غباء الإجابة ما إن تفوهت بها، إلا أنني عقبت:

- يسمونها "هيبومانيا"، هوس خفيف، والغريب في هذه الحالة أنها عرض من أعراض الاكتئاب، ولكن يستحيل التمييز بينها وبين السعادة الصافية.

- هي "الهيبومانيا" إذن. فعندما كنا نثرثر لم أكن أعرف أبدًا ما إذا كنا سعداء أم تعساء.

- أنت تعرف سبب زيارتي لك، أليس كذلك؟

- أظن هذا، ولكن أحب أن أسمع السبب بوضوح منك.

Twitter: @ketab_n

أوجزت له جلستي مع "ميرو". وبقي ساكتًا لبضع ثوانٍ، وهو يغلق على إبهام يمناه ببقية أصابع يده. ثم ابتسم وهو يسألني:

- هل أخبرك أنه مصدوم لمعرفة أن "دانيال" قتل نفسين ؟ ليس "ميرو" بالشخص الذي تصدمه معرفة ذلك. هذا ما أعرفه عنه.

- ما قصدك؟

- لا شيء.

ثم رفع حاجبه الكثيف واتسعت عيناه، حتى بدتا بلونها البني وكأنهما حفرتان في رمال:

- لكن بقية الحكاية صحيحة: قتل "دانيال" امرأتين، وقد علمت بهذا فور أن حدث، ولكنَّ أصدقائه يعلمون هذا أيضًا، ولكنهم فضلوا السكوت، مثلي. والآن ها هم يرسلونك إليَّ، حتى يقع على عاتقي وحدي عبء كشف المستور. هكذا همم. لديهم دائمًا أصدقاء يعتبرونهم خدمًا لهما، وعليهم تنظيف قذارتهم. أنت عرفت جانب من الحكاية: تعرَّف "دانيال" على "جوليانا" في "لا فيرداد"، قبل أن يرتبطا، وهو الأمر الذي سعد له في السنوات الأولى، وأربكه لبعض الوقت أن يدرك أن إسعاد "جوليانا" يستلزم منه أن يتخلى عن عزلته، وأن يختلط بالمزيد من الأصدقاء بصورة لم يعتدها أبدًا في حياته، وأن يثرثر بالتوافه مع أناس يختلفون عنه تمامًا، وأن يواجه أباه، الذي كان يرى أن "جوليانا" غير مناسبة له ولثرائه ولذكائه، ولكنَّ الأب لم يتمسك كثيرًا برأيه في ظل سعادة الأم بأن ابنها الوحيد سيتزوج أخيرًا، وهو الذي لم تره أبدًا بصحبة فتاة.

قاطعت "ياناوما" بفروغ صبر، لأخبره أني أعرف كل هذا بالفعل.

Twitter: @ketab_n

- والآن أنت تعرف، من "ميرو"، أن "دانيال" قد حاول أن يتصنَّع التكيف مع علاقته هذه، ولكنه استسلم شيئًا فشيئًا لتلك النزوة العبثية، أم أني مخطئ في تفسيري؟ وأنت تعلم أيضًا سبب أنها نزوة. دعني أحكي لك كيف بدأت. فقد أراد شريكه "باستور" أن يقنع "دانيال" بأن حالته هذه طبيعية – وأنها نتيجة ما يصيب أي علاقة بين خطيبين من رتابة – وأن كل ما يحتاجه هو البحث عن تغيير، ولا يعني هذا أن يترك "جوليانا"، ولكن أن يكمل ما ينقص حياته بحياة أخرى موازية، فيها الكثير من المخاطرة والحرية، والقليل من الكبت. وصدقه "دانيال". هذا لأنه لم يكن يعي حقيقة مشاعره. أو ربما أنه صدقه وحسب، أو رغبة منه في تصديق أي شيء، وانطلق يبحث عن ذلك الشيء الذي ينقصه: من دون أن يعرف ماهيته. وأخذ "باستور" على عاتقه مهمة أن يصطحب "دانيال" إلى البارات والنوادي الليلية جميعها، مهما كانت وضيعة أو حقيرة!

أكمل "ياناوما":

- لقد بالغ "دانيال" حتى في ذلك الشغف الفكري الذي اعتراه في كل مرة أثار فيها شيء أعصابه. أنت تعرف ما أقصده: كان يقصد أمكنة نتنة بمعنى الكلمة، حيث العطر الرخيص والشراب الوضيع، بنفس الجدية والعزيمة التي يدخل بها مكتبة الجامعة، وينظر إلى المرأة عند البار، أو تلك التي ترقص، أو تنتظر مستندة إلى عمود، أو تتلصص عند الناصية، الداعرات كلهن، وكأنهن مجلدات نادرة، فيجلس إلى أريكة جلدية ويرمقهن بعينين حمراوين من أثر المصابيح الناعسة والظلال الضبابية، لينتظر اقتراب إحداهن منه. ومن ثم يحاول أن يفتح معها حوارًا، لا هو بالعملي ولا

Twitter: @ketab_n

المتكافئ، بلغة تبدو لأي واحدة منهن مجنونة، ولما يقرر أن يلمس جسدها يقوم بتمرير إصبعه على عنقها، من عند حلقها لأسفل، وكأنما يشقها نصفين، أو كأنه يمرر إصبعه على فهرس موسوعة. وبعدها، وعندما يلعب الشراب بعقله، يتخلى "دانيال" عن عادة الحكي. ويترك نفسه مع أي واحدة منهن، في حالة غشية ونشوة، فتنظر إليه فتاة الليل فتعرف المجنون اللاتي يتهامسن عنه، فتتركه وتروح لحال سبيلها، ويبقى هو يهلوس إلى نفسه، محولاً ما يشعر به من إثارة إلى كلمات، أو هي غثيان الرغبة التي عجز "دانيال" عن الإحاطة بها طيلة حياته، وسعى بدلاً من ذلك إلى أن يحصن نفسه ضد طبائع الأمور بتلك الحكايات التي لا ينفك يحكيها.

غير أن "باستور" كان مصرًا على أن يحوله إلى إنسان عادي داخل مثل تلك الأمكنة النتنة، وكان يحرص على رعايته مثل وصي عليه، ويضع على حجره الفتاة تلو الأخرى، وكأنهن روبوتات ليس أمامها غير الطاعة، فهن لسن سوى بالغات لا تعرفن عائلات، أو طالبات فقيرات، أو ريفيات ضعن في أضواء المدينة، أو مطلقات لا تمانعن في خوض هذا السكر والعهر حتى يلبين احتياجات الأولاد ويواجهن بؤس الحياة. مثل مصاصي الدماء: يتحولن عند حلول كل ليلة إلى كائنات مختلفة، بأردية مختلفة، ترتاد الأندية الليلية بحثًا عن الرزق، والذي قد يتجسد في مثل هذا البائس الجالس وحيدًا إلى أريكة في الركن يهذي بلغة لا يعرفن تفسيرًا لها، ولكنهن يجلسن إليه مشدوهات، ويومئن لبعضهن البعض علانة أنه مجنون، وأنه فرصة: وتستسلمن له. تأتي فتاة، ثم تأتي أخرى، هكذا دومًا، تدلك عنقه بديها، وتمرر أظافرها عبر خصلات شعره، وعلى مؤخرة عنقه، ويتكرر ذلك، ويتكرر، إلى أن كانت ليلة اقتربت منه فيها فتاة لم تمارس تلك الطقوس.

Twitter: @ketab_n

حدَّق "دانيال" فيها مندهشًا، وخاصة عندما طلبت منه ألا يتوقف عن حكاياته، وأنها تحب سماعها، وأنها كانت واقفة على قدميها طوال الليل، وأنها لم تنم منذ يومين، وتود أن تسمع منه حكاية أخرى، وقد جفت "الماسكارا" الطاغية وجف معها أحمر الشفاه البنفسجي، وعيناها بنيتان تميلان إلى الأخضر تحت حاجبين ثقيلين، وبأظافر يغطيها الأحمر، وميني جيب وحذاء، وبلوزة سوداء شفافة ذات نقاط لامعة تترك أثرها على الأريكة في كل مرة تتحرك الفتاة لتعدل وضعها فوقها:

- قل لي إن لديك حكاية أخرى. ويمكنني أن أخبرك حكايتي أيضًا، فقد مر وقت طويل منذ آخر مرة جلست فيها جلسة كهذه. ولو رغبت يمكننا الخروج من هنا إلى مكان آخر أكثر راحة. لا يهمني إن كنت ترغب في الكلام ولا شيء غيره، فأنا لا أذكر آخر مرة تحدثت فيها مع أحد حديثًا مثل هذا.

كانت تلك الفتاة هي "جوليانا" الأخرى. لم يعرف "دانيال" اسمها في البداية (لا أحد في تلك الأمكنة يستخدم اسمه الحقيقي: فالبوح به يعني خلع القناع الذي من ورائه يمكن للرجل أن يكون زير نساء وللمرأة أن تكون غانية، ويصير الرجل مجرد وحيد بائس والمرأة عاهرة وحسب)، ولكنه بدأ يعرف عن حياتها شيئًا فشيئًا، في البداية كانا يتحدثان في النادي فقط، ثم صارا يتحدثان عبر الهاتف، ويلتقيان مساءً في "موتيل" في أحد تلك الميادين الصغيرة القديمة ذات البنايات الطويلة النحيفة، والتي تكلس بلاطها بفعل سنوات من الشمس الساخنة والهواء المشبع باليود، وسط مطاعم شبه مفلسة تنتشر عند كل ناصية شارع، وضباب بلوري كثيف يحل في كل مساء من جهة الشواطئ نحو شوارع وسط

Twitter: @ketab_n

المدينة: لا بد أن "جوليانا" الأخرى قد طلبت منه خلال واحدة من تلك الأمسيات أن تحكي حكايتها.

كان "ياناوما" يحدق في تمثال جوته القابع فوق الصندوق الأبلاكاش، وهو يتشمم بقوة وكأنما يبحث عن رائحة حيوان بين الواقفين أمام كشكه:

- أنا لا أدري طبيعة دلالة الكلمات التي سأخبرك إياها الآن وأثرها. تلك التي قالتها هي لـ"دانيال"، وقالها "دانيال" لـ"باستور"، وقالها "باستور" لي.

قال هذا، وخفض عينيه مجددًا وهو يقرض بأسنانه بعصبية جلد إصبعه الصغير، قبل أن يتكلم بصوت سكير، يتراكم لعابه بين لسانه وحنكه، ولا يزال يقرض في نصف إصبع:

- قالت له الفتاة في واحدة من تلك الأمسيات إن دورها قد حان لتخبره بحكايتها.

كانت هي و"دانيال" قد عثرا على "موتيل" بارد المعالم يطل على الناصية الشرقية لميدان صغير، خلف المكتبة، يحتوي على عشرين غرفة عادية ولكنها نظيفة: فراش مزدوج، ومنضدة عليها الإنجيل ودليل الهاتف، وريموت كونترول لجهاز تلفزيون غير موجود. قبَّلها "دانيال" بين ساقيها، ثم داعب نهديها بطرف لسانه، وهو يطارح جسد عشيقته دروس الغرام التي تعلمها مع خطيبته. ولكنه مع "جوليانا" الأولى، خطيبته، وفي المنزل، فوق الفراش هائل الحجم في ذلك المنزل الذي استأجره لها، وفي لحظات كهذه، يشعر بالدم يتدفق صاخبًا في عروقه، وبرغبة في أن تدوم متعة الجنس أبدًا، وألا يصل إلى ذلك الشعور بأنه فارغ، والذي يتغلب عليه في نهاية المطاف. ولكنه هنا، وفوق فراش

Twitter: @ketab_n

"الموتيل" الناشف، ومفارشه المتواضعة الجافة، ومع "جوليانا" الجديدة، كان يشعر برغبة تشوبها العجلة، وبتوق إلى أن يبقى في تلك الحالة إلى الأبد يصاحبه توق آخر إلى أن ينتهي بسرعة حتى يحتضنها بين ذراعيه، ويزيح خصلات شعرها الأسود من خلف أذنيها ليهمس لها بكلمات تبقى في أذنيها إلى ما بعد، قبل أن يسكت وينصت إلى ما ستقوله هي.

- قالت له الفتاة وهما في واحدة من تلك الغرف المتشابهة في "الموتيل": سأحكي لك حكايتي. كانت مستلقية عارية، تتكئ على مرفقيها، وتداعب عنقها بيديها؛ بينما "دانيال" يرقد مستندًا على وسادتين، متيقظًا، مترقبًا. قالت له: أنا من قرية ليست على الخريطة، وبعيدة جدًا عن هنا. والداها فلاحان، فقيران جدًا، ولكن هناك من هم أفقر منهم. قبّل "دانيال" يداها الجافتين ذات البشرة البرَّاقة. ولدتني أمي بعد أن تجاوزت الأربعين من عمرها، وكان والدي أكبر منها بكثير، ولكنها اعتادت أن تقول إنه قوي البنية، وبخلاف الأرض التي يزرعها كان يمارس الكثير والكثير من الأعمال المختلفة: يشتري الأرز والحليب في بلدة مجاورة، وينتظر الشاحنة لساعات في كل خميس، ومن ثم يعود متجولاً عبر العزب ليبيع بضاعته، في رحلات تدوم ليومين، يحمل خلالها أجولة وأكياس الأرز والحليب على ظهر حمار، وكان أحد إخوتي يساعده، ويحضر عند عودته جذور "القنّا" لجدتي، أم أمي، والتي كانت أكبر عجوزٍ بالبلدة التي كان سكانها يموتون قبل سن الشيخوخة. احتضنها "دانيال"، والتصق جسده بجسدها، ووجهه بوجهها العريض الذي تميزه عينان يتغير لونهما في الضوء، وبقي كذلك وهو يستمع إليها: كان لوالديّ ستة أولاد، مات منهما اثنان

Twitter: @ketab_n

بـ"التيفوس". أمضينا يومين كاملين نبحث عن القمل في كل أنحاء المنزل، وفي جلود الحيوانات لنتجنب العدوى، ولكن من دون جدوى، فقد توفي اثنان، ثم ماتت والدتي أيضًا. أغلق "دانيال" عيناه ودس أربعة من أصابعه بين ذراعها الأيسر وجانبها، وتأكد من أن أصابعه تناسب وبكل دقة تلك النتوءات أسفل أضلعها، فترك يده تستقر مرتاحة هناك، وكأنه يود أن يتأكد أنها باقية معه، وأن هذا صوت لا يخرج من جسد فارغ. هكذا بدأ يستمع، وهو يشعر بأن بقية القصة تغزوه من خلال أذنيه وأنفه، فيسخن جسده، وبقي حتى نهاية المساء هادئًا مهتمًا. لهذا السبب لم يكن هناك سوى أربعة منَّا عندما بدأت الحرب. الولد الوحيد في الرابعة عشرة، ومن بين البنات الثلاث كنت أنا الأصغر، عمري ثماني سنوات، وكانت أمي وأبي وجدتي على قيد الحياة: في ذلك الزمن البعيد، والذي أتخيله كذبة الآن، عندما استولى الجنود على البلدة.

كانت هذه البلدة هي محور الحكايات التي انتشرت في تلك الأيام، وقبل ذلك بأشهر. كان الناس من المناطق المجاورة يأتوننا بقصص عن الأرواح وأناس بلا رؤوس، وأشباح تظهر في المساء، ويتضاعف عددها بين الحقول والبرك في المراعي، وتشكل بغتة دائرة هائلة، تحيط بالمنازل قبل أن تتجه نحوها وهي تغني في انسجام أغاني مملة ذات عبارة واحدة متكررة. لم تكن ترحل إلا بعد أن تكون قد قطعت العديد من الرؤوس: تنحرها بالمناجل أو الفؤوس، وتقطع الأذرع أو تشق الأفواه، حتى يبدو الميت بعد ذلك وكأنه يضحك مع تلك الابتسامة التي ستلازم جثته حتى العفن. لم نرَ تلك الأرواح، ولكننا سمعنا قصصًا رواها أولئك الفارون

Twitter: @ketab_n

منها، وهم يمرون بالبدة مذعورين في جميع الاتجاهات. كانوا دائمًا أطفال بوجوه ملتاعة أو عجائز تلطخ الدماء سيقانها والجروح والخدوش والحروق على أيديها وأقدامها. بقينا لفترة طويلة لا نعرف عن الحرب سوى هذا الذي نسمعه من حكايات: شائعات، ونوادر عن أناس يتحولون إلى وحوش، ترددها العجائز واليتامى، وأخبار عن بلدات دمرت وعن مقابر جماعية، وقساوسة يلقون مصرعهم رميًا بالرصاص أثناء القداس، ونساء محبوسات ليغتصبن في المعسكرات – هي حكايات سأحكيها لك فيما بعد، هذا إن كنت تود سماعها. مرر "دانيال" يده على جبهتها وأخبرها أنه يود سماع حكايتها، فاستمرت تحكيها. قالت: اعتدنا أن نسمعها وكأنها تأتينا من عالم بعيد، وكأنما انفجر شيء ما في الجوار وأمطر رماده الذي ذرته الرياح على قريتنا. غير أن كل هذا تغير بغتة. فذات مساء، وصل صبي إلى البلدة عبر طريقها الرئيسي، وهو يسحب كلبه من أذنه. كان الكلب عبارة عن كتلة دم متخثرة، وهناك فتحة كبيرة مستديرة في منتصف بطنه. لم يكن سوى فراء وجلد وعظام، الأضلاع والأطراف المتدلية. وعلى الرغم من أن رأسه في مكانه، إلا أن بقية جسده (أو جثته) لا تبدو مثل كلب، بل أقرب إلى زي تنكري يتخذ هيئة الكلب. بعض من أحشائه متدلية، وبعضها الآخر يتراقص مع الحركة داخل بطنه. لقد قاموا بتقوير البطن وكأنها ثمرة قرع عسلي، وقد حكى من رآه أن بطنه كانت تحوي قلبين آدميين. كان الولد يسحب الكلب من أذنه بطول الطريق حتى وصل إلى وسط البلدة، أمام منزلنا تمامًا. هناك جرب أبيض تحت أنفه، وشعره بلون التراب، وشفتاه متشققتان داميتان. كان يغمغم بكلمات لا يفهمها أحد. أجبرته أمي ومعها أبي على ترك جثة

Twitter: @ketab_n

الكلب، واقتاداه إلى داخل المنزل، وبقطعة قماش مبللة غسلت وجهه وعينيه اللتين كانتا معميتين بقشرة سميكة كأنها دموع من طين. أما الكلب، فبقي راقدًا على الأرض في الشارع.

كان "ياناوما" يداعب تمثال "جوته" ولا يرفع عيناه نحوي سوى للحظات وكأنما يتأكد من أنني ما زلت موجودًا. كانت نبرة صوته محايدة، لا شفقة فيها.

– قالت الفتاة لـ"دانيال"، الذي تشتت تركيزه بين الحكاية وتضاريس الفتاة داكنة البشرة المستلقية على ظهرها: بدا الكلب أقرب إلى ممسحة أحذية بالية. وبدا لي مثل دمية ألقوها إلى جوار الفرن عند الفحم الخامد، حيث اعتادت جدتنا أن تخبز لنا بسكويت "الكنّا" أيام الأحد، وتوزع منه على العائدين من القداس في البلدة المجاورة. وبعد برهة، خرج الصبي بخطوات بطيئة وعاود التقاط الكلب من أذنه وهو يغمغم بنفس العبارة الخرقاء التي لم يفهمها أحد. مكث هناك لبضع ساعات. وعاد والدي من الحقل، وحينما أخبرناه أن الصبي لا يزال مع الكلب، توجه إليه وأمره بأن يتركه. أطاعه الصبي من دون شجار. وحمل والدي الكلب ووضعه فوق قبة الفرن، وفتح الثقب الذي في بطنه بإصبعين حتى يتأكد مما سمعه: كان بالداخل قلبان آدميان. نظر إلى الكل بتعبير وكأنه يقول والآن ماذا سأفعل بهذا. ما الذي يفعله أحد بشيء كهذا؟ وما هي إلا دقائق حتى جاء الجنود.

قدموا من نفس الطريق الذي أتانا منه الصبي. كانوا اثني عشر. لم تكن ظهيرة باردة، ولكنهم كانوا يرفعون ياقات ستراتهم حتى أنوفهم ويتردون أقنعة صوفية تغطي وجوههم. لذلك السبب تخيلتهم من على البعد وللوهلة الأولى اثني عشر صليبًا مثبتًا عند التبة البعيدة. كانوا قد

Twitter: @ketab_n

هبطوا في نفس الطريق مثل الصبي. استمروا في الهبوط ببطء عبر التبة وعلى جانبيها نبات "البلان" الشوكي، وعدد من جذوع الشجر الميتة التي احترقت جافة خلال فترة الجفاف الأخيرة. كانوا يقتربون في صمت، وعندما صاروا أقرب وجدنا أن بصحبتهم جثتين على ظهر حمار، أذرعهما تتدلى نحو الأرض كما لو كانت ترغب في أن تنتزع بأصابعها الزهور البرية الكثيفة على جانبي الطريق. وحينما وصلوا إلى الدرب، عند بداية البلدة، انفصل أحدهم عن المجموعة واتجه صوبنا، وبندقيته مستندة على ساعده، وفي يده الأخرى سكين جزَّار، بينما ينظر للأرض. مشي نحو والدي، وسأله بنبرة واثقة عمَّا لديه بالداخل، وكان يومئ نحو جيفة الكلب أعلى الفرن. فأخبره والدي ألا شيء مهمًا، وأنه مجرد كلب أحضره الصبي من مكان لا نعلمه. فجذب الرجل الكلب بيده، قبل أن يدسها في بطن الكلب ثم ينحني ليتقيأ. جفلت الخراف وهرولت نحو المنازل. عاد الرجل في اتجاه الحمار وفك رباط الجثتين، فسقطت كلتا الجثتين على جانبي الحيوان، وتتدحرجا حتى حافة حفرة تقف عندها جدتي ووالدتي وإخوتي والجيران. ثم قبض على إحدى الجثتين من قدميها وسحبها حتى تركها بجانب الأخرى، بمساعدة جنديين يتحركان مثل شبحين من دون صوت، وعلى وجهيهما تعبير ثابت هو مزيج من الصدمة والغم الشديد. بقيت الجثتان على ذلك الوضع؛ البطن لأعلى: الصدران كتلتان متخثرتان من الدم الأسود والطين البني، حتى أضحت هيئة الجثتين أشبه بتمثالين قذرين لخنزيرين وسخين تركهما صانعهما من دون أن يكملهما: وفي مستوى القلب ثقبان عميقان جعلا صدر كل جثة أشبه بجمجمة انفلقت وتصدعت: جمجمتان رمليتان محطمتان، ملفوفتان في جلد مصفر هو

Twitter: @ketab_n

الزي العسكري، وازدادت تعاسة هذا المشهد بذراعي الجثة الممدودين إلى جانبها. صاح الرجل في أبي من دون أن ينظر إليه ولكن بنبرة جهورية تردد صداها: وهل ستقول لي أيضًا إن هذا لا شيء؟ بدا وكأن مسًا شيطانيًا أصابه وهو يتجه بسرعة نحو الفرن ويأخذ الكلب وكأنما يحمل طفله المتوفي حديثًا، والدموع تنهمر على خديه. مشى به نحو الجثتين ثم أدخل يده في القفص الصدري للحيوان، وأخرج القلبين قلبًا تلو الآخر، فظهرا وكأنهما جذعان قذران تلطخهما الحشائش، وأخذ يحاول وضعهما مجددًا في مكانيهما داخل الجثتين، وهو يكابد الغثيان. أدار الجنود ظهورهم حتى لا يروا المشهد.

استمر "ياناوما" يحكي:

- قالت الفتاة: في تلك الظهيرة قتل الجندي والدي ذبحًا، وذبح بقية الجنود جميع رجال البلدة، بما فيها الصبية الصغار، وأخي والصبي صاحب الكلب. تركوا النساء تنتحبن حتى سكتن، ثم أجبروهن على حفر خندق عميق على بعد مائتي متر من البلدة. رموا الموتى فيه قبل أن يطلقوا الرصاص على الأرامل والبنات والحفيدات ويلقوا بهن في نفس الخندق. وكانت أمي آخر من قتلوها. جذبوني من بين ذراعيها: رأيتهم وهم يلقونها في الخندق بعدما استقرت رصاصة في رأسها. تركوني أنا وبنت أخرى نعيش، ولا أدري السبب. كانوا يريدون اغتصابنا، ولكننا كنا صغيرتين للغاية، وصعب عليهم اغتصاب جسدينا، ولم ينجحوا إلا في إصابتنا بالسحجات والكدمات والعضات والخدوش وجروح بالسكاكين، وآثار أظافر حادة ومخالب جائعة. وعندما رحلوا بعد ساعات، وهم يسوقون معهم طابور من الماعز ويحملون ست دجاجات تحت أذرعهم، لم يتناقشوا

Twitter: @ketab_n

حول اقتيادنا معهم أو قتلنا: تركونا هكذا ببساطة. سألني أحد الجنود: لماذا تبكين، هاه؟ تركونا في تلك البلدة التي امتلأت بالجثث والجيف، عدا بنتين وخنزيرين وديكًا جريحًا. كان ذلك هو اليوم الأول في تاريخي.

أكمل "ياناوما" رواية الفتاة على لسانها:

– قالت الفتاة: أمضيت والفتاة الأخرى الليلة في منزلي، مصدومتين في صمت، من دون أن ننظر إلى بعضنا، ومن دون أن نجرؤ على الكلام. وكان علينا في الصباح التالي تجميع الحيوانات والمضي نحو البلدة القابعة وراء التلال. كانت الشمس مثلجة في ذاك النهار. بدت الزهور لنا على جانبي الطريق أشبه ببلورات من الأخضر والأصفر، والنسيم يداعب العشب عند سفح الجبل. هذا ما أتذكره. هذا وحقيقة أننا لم نعرف أبدًا كيف نشرح لأهل البلدة المجاورة كل ما حدث لنا. ومنذ ذلك اليوم أضحى من الصعب علي أن أحصي الفترة التي كنا نقضيها في كل مكان، أو عدد البلدات التي مررنا عليها: لم نجد من يرغب في تحمل مسؤوليتنا، والكريم منهم كان يوافق على أن نبقى ليوم أو يومين، ويقدم لنا بقايا الطعام، وأن نبيت الليل في الزرائب جوار عشش الدجاج أو في مخازن من القش يمكن لهبة ريح أن تطيرها بكل بساطة. حتى وصلنا بلدة كانت أكبر مساحة من بقيتها، حيث نجحت الفتاة في أن تحصل على غرفة وطعام في أحد المنازل مقابل قيامها بغسل الثياب ومسح الأوساخ عن الأرضيات والجدران وطهي ما تجيد طهيه خبزًا أو قليًا أو تحميرًا من أنواع الطعام.

كان "دانيال" يسمعها بشغف وهو يداعب خصلات شعرها الأسود الفاحم:

Twitter: @ketab_n

- أما أنا فبقيت أبحث عن أي عمل في غياهب الأكواخ، وأتجول هائمة عبر الشوارع والميادين المعتمة، حيث يحل الليل قبل حلول المساء، وحيث غبار البشر والأحجار البارزة من الأرض بقوة وسط الحشائش في الحارات، والرائحة القوية لبول الكلاب وزغب الحمير المتطاير في الهواء. ربما مرت عليَّ سنوات وأنا على تلك الحال، أتعيش من إحسان أصحاب المحلات وشفقة المارة، وأقتات كسرات الخبز وفضلات الخضراوات في أطباق زبائن المطعم الوحيد في "الموتيل" الوحيد في البلدة، إلى أن جاء يوم وصلت فيه عربة عسكرية بدأ أفرادها في جمع المشردين وأطفال الشوارع، وأجبروني على الركوب واقتادوني إلى ملجأ لأيتام الحرب. مكثت هناك لثلاث سنوات وثلاثة أشهر، أحصيتها باليوم، أعيش وسط وحوش صغيرة تركها جنود لجنود غيرهم، في قلعة حقيرة لحيوانات قذرة وجوهها مغطاة باللعاب والمخاط والدموع، يتعلَّمون قراءة وكتابة وحفظ أسماء الأبطال، ومناطق الدولة، والإرث والميراث، وسلسلة طويلة من الهزائم العسكرية، وصلوات الليل، حيث نكون مجبرين على الدعاء للجنود حتى يكسبوا الحرب وأن يمسح الرب الأعداء من فوق ظهر الأرض. حتى كان يوم أتذكر أن ظهيرته كانت بلون الطين، وكانت هناك شاحنة تفرغ حمولتها من البضائع الجافة للمطبخ، ونجحت في الهرب بمساعدة جندي ضئيل الجسد أسود الوجه رق قلبه لما أبديته من ألم فلمح لي برغبته في الجنس، ففعلت، قبل أن يوافق على أن أصعد في الشاحنة وأختبئ، وحذرني من أنه لو عثر علي أحد فإنه سينكر أي معرفة له بوجودي في الشاحنة. وبعد يومين وليلتين في الطريق الذي قطعته هذه الشاحنة المتهالكة، وصلت المدينة. وكان أول ما عرفته عنها هو مدخل الشارع الحلزوني العملاق الذي ينغلق على نفسه، مثل أفعى، وذاك

Twitter: @ketab_n

الكم الشيطاني من المشاجرات والصرخات المندهشة، والضجيج الوحشي للسيارات، والتعبيرات المحمومة على وجوه الناس في الشارع، فأدركت من فوري أن هذا العالم أسوأ من عالم الحرب. هكذا كانت المدينة. وهنا بقيت، من دون تعليم، ومن دون أحد يعرف عني أي شيء، ومن دون أقارب، ومن دون أي شيء سوى اسمي ووجهي ووظائف جسدي: أعرف كيف أمشي، وأنام، وأتذكر. أعرف كيف أعرق، أبكي، وأسعل. أعرف كيف أنظف أظافري، وأصلي بلغتين، وأن أقتل العرسة بضربها بالحجر. أعرف كيف أقوم بما قمت به مع الجندي، وتعلَّمتُ أمورًا أخرى أفعلها بساقيّ ويديّ: وعندما صرت في السادسة عشرة أصبحت راقصة في بار حقير في حي "الضوء الأحمر"، وعندما صرت في السابعة عشرة امتلكت مجموعة من الزبائن، من كبار السن الذين أكلت الدمامل وجوههم، ومن المراهقين الذين أرادوا أن يدخلوا دنيا مع امرأة لا يعرفونها؛ وعندما صرت في الثامنة عشرة أخذتني "الجابونيسيتا" إلى بارها وحولتني إلى ما أنا عليه الآن، إلى ما تحتضنه الآن بين ذراعيك.

– هذا ما قالته الفتاة، وكان "دانيال" يسمعها مثلما تسمعني أنت الآن، "جوستابو"، بأذنين من خجل وبعينين من شفقة وندم.

– وماذا حصل بعد ذلك؟

– أنت بالفعل تعلم ما الذي حصل. أحبها "دانيال" وأراد أن ينتشلها من مستنقع اللحم الرخيص، ولكنه عندما عرف أن اسمها "جوليانا"، ورأى فيها تصاريف القدر، مال إلى فكرة غبية أعجب بها: أن يصطحبها إلى المنزل لتعيش مع "جوليانا" الأخرى، خطيبته، والتي غيرت اسم الفتاة

Twitter: @ketab_n

إلى "أديلا" واعتبرتها خادمة لها من دون أن تشك في أي شيء، أو أنها أقنعت نفسها بأن "دانيال" لم يكن يقصد من وراء ذلك أن يجرب أن يحظى بكلتيهما تحت سقف واحد. وبعد سنوات – وكما حكى لك "ميرو" – لقيت الفتاتان مصرعهما، وكانت الفتاة هي أول من مات، ولحقت بها "جوليانا" الأصلية بعد أسبوعين.

– ولماذا قتلهما؟

– ليس بيدي سوى أن أخمن: ربما لم تتمكن الفتاة من أن تتخلى تمامًا عن عادات حياتها السابقة فأثارت الغيرة في قلب "دانيال"؛ ولكن الأوضح ربما هو أنها تمردت على دور الخادمة وأرادت الهرب منه؛ وربما لم يكن "دانيال" على استعداد بأن يقبل فكرة الانفصال هذه وفضل عليها فكرة عدمية تمامًا. وربما اكتشفت "جوليانا" الأخرى شيئًا فقرر أن يتخلص منها؛ وربما كان قتلها خطوة منطقية وأن "دانيال" رأى في الجريمتين فعلاً واحدًا لا يتجزأ، وأن هذا هو المسار الطبيعي للأحداث ما إن قتل الفتاة الأولى. خلاف ذلك لا أدري.

وضع "ياناوما" تمثال "جوته" الذي كان يداعبه بأصابعه طوال حكيه على الرف الأبلاكاش. وكان الباعة في الأكشاك المجاورة منهمكين في جمع بضاعتهم. يعيدون بلا عناية تخزين الكتب في صناديق متهالكة من الخشب والورق المقوى، وهم يثرثرون مع بعضهم البعض حول ما يعتزمون القيام به خلال الليل الذي ينتظرهم.

كان أحد الباعة، أقرب واحد مني، صبي سمين بشرته مرقطة بحبوب وردية، يمر بيننا ومعه حزمة من الكتب الملفوفة بقطعة قماش، يحملها على كتفه، وحيا "ياناوما":

Twitter: @ketab_n

- أراك غدا "كابيسيتا نيجرا".

أما أنا فحياني وهو يخفض ويرفع حاجبيه في تردد.

وخيم ضباب خفيف في المسافة بين جزيرة الشارع وصف المطاعم على جانبيه، مودعًا السحاب الذي كان يمضي في طريقه سريعًا. كانت مدينة الكتب تتفكك وتختفي شيئًا فشيئًا، وعلى سواحلها المهجورة بقيت صورتها الأخرى، بجدرانها التي يغطيها الشحم والعفن مثل نباتات معرشة.

- خلاف ذلك لا أدري.

نهض على قدميه، وفتح درجًا صغيرًا اعتاد أن يحتفظ فيه بأقفاله وجنازيره، وشرع يضع كتبه في خزائنها بدقة شديدة. فهمت الإشارة، فودعته بدون المزيد من الأسئلة. وعبرت الشارع وأنا أحاول تجنب مجموعة من المهرجين الذي يرتدون ملابس السيرك الزاهية ويقومون بقفزات وحركات بهلوانية وسط زحام المارة. ولما اقتربت من الناصية وجدت من يجذبني من كتفي، وحينما استدرت وجدت شخصًا ذا وجه تغطيه بقع داكنة وآثار جروح طويلة. كان نفس الصبي السمين الذي مر علينا منذ دقائق.

- "سينيور".. لم يخبرك "الكابيسيتا نيجرا" حتى بنصف ما يعرفه.

ترددت في الرد عليه، وتمهلت، آخذًا في الاعتبار احتشاد الباعة والمارة على الرصيف، فعقَّب الصبي:

- "الكابيسيتا نيجرا" يعرف أكثر بكثير.

قالها وركل كلبًا كان يضايق ساقه. وأردف:

Twitter: @ketab_n

– أنا أعرف جزءًا من الحكاية. سأحكيه لك إن كنت مهتمًا. بعد سبع عمارات من هنا، وفي نفس الشارع، هناك بار اسمه "ميكروكوسموس". تعرفه؟ كن هناك في الساعة العاشرة ليلاً، وسوف أخبرك بكل شيء.

Twitter: @ketab_n

الثامن عشر

كان "دانيال" محقًا. فبعد ظهر اليوم الذي توجهت فيه إلى المستشفى قاصدًا التحدث معه، طلبت مني سكرتيرة الاستقبال أن أنتظر واختفت في الصالة دقيقة عادت بعدها وعلى وجهها ابتسامة صفراء:

– لن يكون ممكنًا لقاؤه اليوم يا سيدي، عد في الغد .

ولما كنت مصرًا على التحدث مع مسؤول يشرح لي السبب، طلبت من أحد المرضين مرافقتي إلى مكتب كان صغيرًا عفن الرائحة، تصل إليه عبر نزول سلم عند الكافيتيريا ثم تمشي في ممر ضيق طويل، حتى إنني شعرت أني أهرب من المستشفى عبر نفق حفروه بعد سنوات من العمل الشاق. وعندما دخلت إلى ذلك المكتب ذكرتني رائحته بالمبيدات الحشرية العطنة، ووجدت فيه، في أعلى الجدار، ثلاث نوافذ صغيرة تسدها قضبان، والنور القادم منها متقطع بفعل أقدام وسيقان المارة بالأعلى في الشارع. وبدت الأشياء في المكتب بنية داكنة وشبحية. وشيئًا فشيئًا اعتادت عيناي العتمة، وميزت رزمًا مختلفة من الورق فوق المكتب، وكذلك ظل رجلين في الجانب المقابل من الغرفة عند الركن. أدركت أنني في المكان الذي وصفه

Twitter: @ketab_n

لي "دانيال"، حيث استجوبوه. مسحت عينيَّ بصورة غريزية المكان بحثًا عن هيكل عظمي، لم أجده، للوهلة الأولى على الأقل.

بادرني أحد الظلين:

- اسمي "فيكاريو". كابتن "فيكاريو". يؤسفني أن أبلغك بأنه من غير الممكن لقاء صديقك هذا المساء.

- ولكن الأمر ليس بهذه الأهمية في الحقيقة.

- ليس مهمًا؟ فماذا إذن؟

- كل ما أردته هو الاطمئنان على "دانيال"، وإن كان محتاجًا لشيء.

- بخلاف المحامي؟ أم أنك أنت المحامي؟

- لست بمحامٍ.

ارتسم على وجهه تعبير غامض، كما لو أنه اكتشف في البثور التي تملأ وجهه عنكبوتًا صغيرًا فامتلأ قلبه سرورًا بفكرة القضاء عليها.

بدا لي الرجل الآخر، الذي كان يعطينا ظهره، منشغلاً بتنظيف أنفه:

- إذا لم تكن محاميًا؟ فماذا تكون إذن؟

- ماذا أكون؟

- أجل، ماذا تكون؟

- أنا عالم لغويات.

- عالم لغويات؟

- علم نفس لغويات.

- علم نفس لغويات.

- *عالم نفس* لغويات.

- نعم، المشكلات اللغوية.

Twitter: @ketab_n

كرر العبارة وهو يضحك ساخرًا.

من حركة كتفي الرجل الآخر، الذي لا يزال يعطينا ظهره، عرفت أنه يضحك هو الآخر ولكن في صمت.

- وهل تحل المشكلات؟

- أدرسها..

- ولا تقوم بحلها؟

- أحيانًا أفعل.

وقع خطوات أقدام المارة بالأعلى مثل نقرات أنامل عصبية.

- وما هي المشكلات اللغوية التي يعاني منها صديقك؟

- كلا، لا شيء، الأمر ليس كذلك.

- ولكنك تود الاطمئنان عليه، وإن كان يحتاج إلى شيء، أليس كذلك؟

- بالفعل.

- وما الذي يدعوك إلى الإحساس بأنه ليس على ما يرام؟

- لا، الأمر ليس هكذا، ليس بهذه الأهمية.

- فهمت، وهل هناك أي شيء آخر يمكنني أن أساعدك به؟

قالها وتقدم خطوة، فصار تحت الضوء الساقط من النافذة العلوية. بينما اتجه الآخر إلى الناحية المقابلة فاختفت معالمه في الظل.

أخبرته بأنني مهتم بلقاء ثلاثة مرضى، وأخرجت من جيبي القائمة التي أعطاني إياها "دانيال"، وفردت الورقة لأقرأ على الكابتن الأسماء. مدَّ ذراعه وتقدم خطوة ليلتقط الورقة، وعندئذٍ رأيت اللطخات الموجودة على ظهر يده التي لا لون لها، والبرص بين أصابعه والذي يقشر جلده بالتدريج.

- ولماذا تريد التحدث إلى أولئك المجانين؟

Twitter: @ketab_n

كان حجمه مشابهًا لحجمي، لا هو بالممتلئ ولا بالنحيف. (كما قال "دانيال": شرطي بدين وشرطي نحيف). وفوق رأسه كتلة من الشعر الأسود الذي يتخلله اللون الأبيض والذي تنزل خصلاته مثل ألسنة رطبة فوق وجهه، وفي المنطقة بين عينيه وخديه برص وردي هائل (الشرطي الأبرص، كما وصفه "دانيال").

شرحت له طلب صديقي.

- اسمعني.. لا أعتقد أنك ستخرج بفائدة من التحدث إلى هؤلاء المجانين، ولكنك لن تخسر شيئًا أيضًا، سوى الوقت؛ وعلى كل، فقد يكون في الأمر تسلية، وأنا بالذات ليس عليَّ من مهام سوى قتل الوقت: سوف أسمح لك بلقائهم، ولكن في حضوري.

أومأت ناحية الركن المعتم الذي يقف فيه الآخر:

- لا مشكلة لديَّ في أن تحضر أنت وزميلك تلك اللقاءات.

عندئذٍ سحب "فيكاريو" سلسلة صدئة كانت معلقة من السقف في المسافة بين الرجلين فأضاءت الغرفة مصابيح الفلوريسنت المثبتة في السقف الساقط:

- ليس لي زملاء. وصدقني: بالنظر إلى الأسماء المدونة في تلك الورقة، فإني أشك في أن ما ستقوم به هو لقاءات بالمعنى المفهوم.

استدار على عقبيه نحو المكتب، فظهر لي في الركن من خلفه مرآة رأسية طويلة وليست عريضة، كانت مثبتة إلى جانب خزانة للملفات.

أمعنت النظر، وفي ذات الوقت تعمدت ألا يبدو عليَّ الاهتمام، حتى أتحقق من أننا كنا وحدنا نحن الاثنين فقط، ثم جلست إلى الكرسي الثاني، أمامه. كان الباب الذي دخلت منه هو الباب الوحيد في المكتب.

Twitter: @ketab_n

- هل تود أن أبدأ في إحضارهم أم أن لديك ما ينبغي تحضيره أولاً؟

- كلا، يمكنك البدء في استدعائهم متى ما أحببت.

- على كلٍ، سوف أطلب منهم إحضار سجلاتهم الطبية، في حال كانت ذات أهمية لك.

أخرج "فيكاريو" علبة سجائر من خزانة الملفات. دس سيجارة بين أسنانه وقرّب عود ثقاب من فمه. كنت مركزًا على شفتيه المتورمتين وقد غطتهما البثور المتقيحة وكأنها فقاقيع على سطح مياه تغلي.. (قال لي "دانيال": شرطيان يرتديان الملابس المدنية، أحدهما يعاني البرص الظاهر على يديه وعند عينيه، والثاني يعاني البثور. الآن اتضح لي أن "فيكاريو" هو الشرطيان معًا.

- عندي طلب.

- وما هو؟

- أريد تسجيل هذه الحوارات، إن لم تكن هناك مشكلة.

-تسجلها؟ حسنًا، وإن كنت أشك في أن تكون هذه الحوارات، إن شئت أنت أن تسميها حوارات، ذات معنى أو لها أي نفع؛ والأغلب أنك ستجد نفسك مضطرًا إلى الاستماع إليها عدة مرات ومرات قبل أن تخرج منها بجمل مفيدة.

هذا ما فعلته في تلك الليلة. كم أمقت تلك الساعات المملة في المنزل: حيث يعتريني الأرق، والذي لم يصل بي بعد إلى مرحلة الحبوب المنومة، فأتقلب في الفراش من دون جدوى. لديَّ مجموعة من الأماكن التي أقصدها حينما لا أجد ما أقتل الوقت به: توقفت عند إحداها في منتصف الطريق بين المستشفى وشقتي؛ حانة صغيرة اسمها "نص القمر"، هادئة تديرها

Twitter: @ketab_n

أختان صغيرتان في السن. فتاتان توأم، ولكن فقدان الشهية أصاب واحدة منهَما، فأضحتا صورتين لفتاة واحدة، صورة مفعمة بالحياة وأخرى تعكس الموت. طلبت قهوة فوضعتها أمامي يد نحيلة. ارتديت سماعة الأذن وشرعت في تفريغ الحوار الأول. بدأت في مخيلتي أعيد تكوين مشهد من مشاهد تلك الظهيرة شيئًا فشيئًا. "فيكاريو" وهو يشغل مكانًا على دكة جانبية، جوار الباب الرئيسي للمكتب، وممرضة تحضر المرضى الثلاثة الذين طلب "دانيال" مني التحدث معهم واحدًا تلو الآخر. كنت قد شاهدت المريضة الأولى من قبل: تلك المرأة التي التقيتها في الردهة، وكنت قد دخلت إلى العنبر للحال في أول يوم زيارة. كانت قد قالت لي وقتذاك: "هنا حتى النور بيعيش". وهذه المرة، دخلت إلى المكتب وبادرتني بنفس العبارة:

- هنا حتى النور بيعيش.

كانت تشير إلى ضوء مصباح الفلورسنت في السقف. جذبت الكرسي من جانب المكتب وكأنها تستعد للجلوس، ولكنها لم تجلس، ظلَّت واقفة، ولمحت المسجل فوق المكتب فمدت ذراعيها نحوه، وهي تحاكي حركات ساحر يوشك بعد لحظة أن يخفي أرنبًا في قبعته. ثم رفعت عينيها وثبتتهما على مصباح الفلورسنت وبقيت هكذا حتى انتهينا من الحوار. لا بد أن عمرها أصغر من الثلاثين، ولكن شعرها أشيب**، وفي الكيسين المنتفخين أسفل عينيها شكلت التجاعيد كتلة لحم تناثرت فوقها الشامات. في عينيها لمعان طفولي. وصوتها الخارج من شريط الكاسيت أحادي النبرة، ذكرني بقرقرة موتور متهالك يعافر معه سائق سيارة تعس، عبارات قصيرة متقطعة، تخلو من أي تجويد. قائمة من الكلمات... هنا... حتى... النور... يعيش.

Twitter: @ketab_n

- ها تعرفين ماالذي أريدُ التحدث عنه معك؟

أغلقت عينيها وأومأت برأسها:

- نعم، لا زلت أعرف، الآن أم ماذا؟

وبصوت خفيض قالت عبارة بدت لي مثل اعتذار:

- الساعات تنتهي مميتة، من غير قصد، وما تجدُ أحدًا يهتم: فوق النار يتدلى اسم جديد، في جحيم أبدي.

سكتت، وقد تراجعت شفتاها وافترقتا حتى اللثة، لتكشف عن جذور أنيابها، وكأنها ابتسامة طفل أعمى. بقي "فيكاريو" يهرش خده، ويضحك، ضحكات متقطعة من دون سبب، مثل الزغطة، سجلها الشريط مثل نباح متقطع لكلب ضال:

- تعتقد حقًا أن هذا مفيد؟

عدت أركز على المرأة مجددًا.

- فكري في يوم عثورهم على الفتاة ميتة. تتذكرين اليوم؟ تتذكرينها في ذلك اليوم؟

أسند "فيكاريو" رأسه إلى يديه.

- هذا هنا صمت، حزن. هذا حد سكينه الجاد وكأنه من دون أصل في مقبض السكين. نعم، فهمنا طائش، حتى لو رأينا أو عرفنا...

قاطعتها قبل أن تكمل عبارتها، وطلبت منها أن تخبرني بشيء محدد، من ذلك اليوم على وجه التحديد. ولم يعجب المرأة أني قاطعتها، فأغلقت عينيها وزمت شفتيها بغضب:

- لا شيء يخرج بوضوح، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

سألتني وهي تريني راحة يدها الفارغة. طلبت منها أن تهدأ وكررت سؤالي. لم تعرني انتباهًا.

- الآن... نافذتنا... يقين: أجوف، شاذ، عنقاء عارية، وحجاج أبديون يلوحون في الأفق في ظل النسيان، ولا يدخلون أبدًا.

كررت سؤالي ولم تعرني انتباهًا. منذ تلك الثانية، لم يحوي الشريط سوى مونولوج قصير بقيت المرأة تردده كما هو، تعيده وتعيده كلما انتهت منه:

- اذهب فحسب.. "زكريا" ينذر بالأحكام. ليلة خداعة الآن، يا مجنون! الرب يلهو، يبتسم لنا. والمصابون بـ"الزينوفوبيا" يمرحون، بشذوذ. وحوش!

كانت تتفوه بالكلمات وكأن بين الكلمة والأخرى فجوات. وتملك يديها إيقاعًا كان غائبًا في صوتها.

- قلدوا الرب جيهوفا! البازغ بمعزل عنا تمامًا.

تثاءب "فيكاريو"، واستمر يهرش خده بإصبعه في هدوء.

أشارت المرأة بإصبع نحو الكابتن، ولكن من دون أن تبعد عينيها عن الضوء:

- "زكريا" المعطاء. أنعم على رحمي، في بركة العيش، والذرية، والأخوة...

ثم قالت بتبجيل غيّر من درجة الصوت ولكن لم يغير من نبرته العظمية الجافة الصادرة عن الشريط:

- قال جيهوفا للفلاحين والمزارعين العجائز والخارجين من السجن: اصلبوه! فاللحم تحت نيران زانتيب يخشى الآخرين.

Twitter: @ketab_n

ضرب "فيكاريو" على الطاولة بيده ونهض نحو الباب. استدعى الممرضة وطلب منها إخراج المرأة وإحضار المريض التالي، ونظر لي بدون أن يتفوه بكلمة، وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على فمه البنفسجي. بينما كررت المرأة قبل أن تخرج الجزء الأخير من خطبتها:

- الأبواب البرَّاقة، فاخرة مزخرفة أمام عينيك: أجبرت على أن تنفتح، "يهوذا الإسخريوطي" الشاب الملثم، يترصد بدهاء هنا، آيات قديمة، متشاركة في الكون. باب فاخر، أنت فتحت الباب الحادي عشر، آية رقم ثمانية، وكشفت الخيانة الشابة، المختبئة في اللا مكان، أشباح.

مرت فترة صمت طويلة في الشريط قبل الحوار الثاني، والذي كان مسالمًا وقصيرًا. لا بد أن الرجل في العقد الخامس من عمره. كان يرتدي حلة زرقاء رثة متسخة، وعلى عنقه تتراقص خصلة شعر مدهونة بالفازلين يمشطها لتصل حتى جبهته ليداري بها صلعته. يعقد يديه عند حجره، كما لو كان قد خلع قبعته حالاً ويمسك بها مسندًا إياهما إلى حجره، ولَّما جلس وضع يديه على الطاولة وراحتيه قبالة بعضهما وأصابعه متوترة.

سألته نفس الأسئلة التي طرحتها على المريضة الأخرى، بعبارات استمع بانتباه لها، ورددها مقطعًا تلو مقطع، بهمس مهتاج، وكأنه الصدى، ما إن انتهيت منها. بدت استجاباته الأولية فارغة وبلا معنى. وفجأة مد إصبعًا مثل قلم رصاص، ومر به فوق سطح الطاولة يرسم أقواسًا وخطوطًا مستقيمة على السطح المغبر: كان يكتب، وعندما قطع شوطًا كافيًا في الكتابة التي لا أحد غيره يراها، توقف ليقرأ ما كتب، هذه المرة بصوت حلو مخادع وكأنه قس يخطب في قداس: هذا ما أخبرني دانيال: في مكان ما رجل وثلاث نساء، هذا ما هو هناك، ماذا يمكن أن يكون هناك غير ذلك؟،

Twitter: @ketab_n

في تلك الليلة وكل ليلة. عليك أن تقلل العوامل؛ لا تشتت انتباهك، قللها. هذا ما اقترحه "دانيال". وهكذا وفي مكان ما رجل وثلاث نساء، وماذا يمكن أن يكون هناك غير ذلك؟ رجل وثالوث، مثلث، ترايبود، ملحمة ثلاثية، عجلة بثلاث عجلات، ثلاث نساء. هل يذكرك هذا بشيء؟ هذا ما سألني "دانيال". وهذا ما قال: في مكان ما رجل وثلاث نساء. لهم تاريخ. كنت مجرد صبي، عجل وليد، مهر صغير، وكان لدي ثلاث نساء. واحدة هي خطيبتي، وثانية هي عشيقتي، وثالثة هي أختي. ليس من بينهن أمي؛ أمي لم تكن هناك. هذا ما أخبرني "دانيال". عشيقتي اختفت وأصبحت عدمًا؛ وخطيبتي اختفت وأصبحت عدمًا، وأختي اختفت وأصبحت عدمًا. بهذا الترتيب. هل يذكرك هذا بشيء؟ هذا ما سألني "دانيال". أنا لم أقتل أحدًا، لم أقصد أبداً قتل أي شيء. هذا ما لم أتحسبه؛ هذا ما أخبرني "دانيال". وكانت هذه نفس الإجابة عن بقية أسئلتي. انصت إلى التسجيل، أترقب وجود اختلاف يمكن أن يشي عن رغبة الرجل في تغيير كلامه؛ ولكني لم أجده، بل هي نفس الكلمات وبنفس الترتيب، وبنفس لحظات الصمت، مثل سجن بناه حول نفسه ولا يفكر في الهرب منه.

اقتاد "فيكاريو" المريض نحو الصالة. وبعد لحظات عاد ومعه الثالثة. امرأة في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من العمر. تميز وجهها ندبة تقطع فمها من فتحة أنفها وحتى الذقن، ومن المؤكد أنها أثر عملية جراحية لتصحيح شفة أرنبية. عيناها ناعستان وترتجفان تحت الجفنين، وتفتحهما بين الحين والحين لتكشف عن بؤبؤ أسود بينما العين الأخرى تغطيها مياه بيضاء كثيفة. عرفت أنني لن أحظى معها بأي حوار. ما إن

Twitter: @ketab_n

سمعت صوتي حتى أخذت تردد ما لا يُحصى ولا يُعد من التواريخ والأسماء، في ترتيل طويل لمزامير بدأت بقصة مجتزأة واستمرت بقائمة من الأسماء الأجنبية، في أنشودة تتلاشى للحظات قبل أن تعود أشد قوة، وكأنها تعويذة. تفعل هذا وهي تجوب الغرفة من ركن إلى ركن، وتتوقف قبالة جدار، بعيدًا عني، أو تقترب مني لتنفث أنفاسها الثملة النتنة في وجهي. حاولت وأنا في المقهى في تلك الليلة أن أدون هذه القائمة التي لا نهاية لها، حتى وجدت أن ما أفعله محض عبث.

نجحت في تفريغ العبارات القليلة الأولى: "حسبما تقول زوجة (كونراد ليكوسينيس)، والتي كانت أجنبية، فالنساء في ريفها كن يضعن بيضًا مثلهن مثل الفراخ. قتلها (كونراد) وفي فراش موتها عثر على بيضة صفراء ومن خلال شق في قشرتها رأى وجه نائم لمخلوق يشبهه تمامًا. (راميردوس الكامبري) وُلد من فرخة عذراء وقتلوه: 1076. (جيراردينو سيجاريلي) وعظ الحكماء في الجرن وقتلوه: 1300. (فرا دولتشينو) ضاعف من عدد الفراخ والديوك وقتلوه: 1307. (يان هوس) أمر (بيتر) بأن يغني ثلاث مرات وقتلوه: 1415. (جاكوب هوتر) نزع أحشاء مريديه وقتلوه: 1536. (آن أسكيو) روت عطش فراخها بدمها وقتلوها: 1540. توجوا (نيكولاس ريدلي) ملكًا لليهود وقتلوه: 1555".

عشرات الأسماء. استمرت المرأة وصوتها يخفت شيئًا فشيئًا، إلى أن تحول إلى طنين، إلى أن أراحتها الممرضة بإخراجها من المكتب وهي تدلك كتفيها.

نظر "فيكاريو" إليَّ مندهشًا:

– أهؤلاء هم أعقل المجانين في نظر صديقك؟ هؤلاء هم من سينقذونه؟ هاه؟

Twitter: @ketab_n

دلك جانبي وجهه بإبهامه وإصبعه الوسطى، وهو يمنع نفسه من الضحك سخرية:

- إن وجدت ما يستحق في كل هذا الهراء، فعندئذٍ سأمنحك منزلي وزوجتي، سيدي عالم النفس اللغوي. أما الآن فعليك أن ترحل: خذ معك هذه الأوراق وأحضرها إليَّ في الغد، ولكن أرجوك أن تدعني أستريح: إن قُدِر لي أن أمضي بعض الأيام هنا، أحدق في السقف أو أتظاهر بالتحقيق، فإنني أعتق نفسي من الأعمال المكتبية أو الجولات الميدانية، والتعرض لمخاطر لا ضرورة لها، أتدرك ما أقصده؟ هيا امضِ إلى حال سبيلك. خذ معك المسجل واعمل فيَّ معروفًا بأن تطفئ الأنوار وأنت خارج.

فعلت كما طلب، وقبل أن أرحل شددت سلسلة مصباح الفلورسنت الصدئة. وعندما عاد الظلام عادت تلك الخطوط البيضاء الساقطة من النافذة لتتراقص فوق سطح المكتب، وعلى ظهر "فيكاريو"، وعلى المرآة، لتصنع صورة شريكه غير الموجود، الذي صنعه عقلي من تلك الانعكاسات.

خلعت السماعة، وأغلقت المسجل، وتركت بعض العملات على الطاولة، وغادرت "نص القمر" مودعًا التوأم النحيلة، بينما أختها منشغلة في تنظيف الطاولات في مؤخرة المقهى. دائمًا ما أكره العودة إلى البيت، ولكن في تلك الليلة تراودني أسئلة عديدة تؤرق عقلي، ويمكنني أن أتخلص من سؤال واحد منها على الأقل، هذا إن عثرت في صناديق زوجتي على ذلك الكتاب المقدس الأسود هائل الحجم الذي كان هدية لنا من والدتها منذ دألف سنة مضت. لقد ذكرت المرأة الأولى آية من إصحاح "زكريا"، "زكريا" المعطاء، كما قالت، الفصل الحادي عشر آية ثمانية. في سفر "زكريا" ثلاثة عشر فصلاً، أي أن هناك ثلاثة عشر فصلاً وفي كل فصل يوجد آية تحمل

Twitter: @ketab_n

رقم ثمانية، ولكن المرأة بددت أي التباس عندما قالت "أحد عشر آية ثمانية": "زكريا"، آية 8، فصل 11. "زكريا المعطاء. أنعم على رحمي، في بركة العيش، والذرية، والأخوة..."، هكذا قالت المرأة. وعلى المرء أن يكون متخصصًا في اللاهوت أو حتى مؤمنًا شديد الإيمان لكي يلحظ أن هذه العبارة غير موجودة في الكتاب المقدس من الأساس. نقبت في الصناديق التي أنزلتها من الخزانة، وبين الألبومات التي كنت أفضل تجاهلها وكراتين الصور التي بدأت تصفر. وجدت ما كنت أبحث عنه: سفر "زكريا" 11:8، وأدركت أن الآية مختلفة تمام الاختلاف عما رددته المرأة:

وقتلت الرعاة الثلاثة في شهر واحد، وضاقت نفسي بهم، وكرهتني أيضًا نفسهم.

كان عليَّ أن أقرأ التاريخ المرضي لتلك المرأة؛ فعثرت على التشخيص الذي كنت أتوقع أن أجده: حالة مزمنة متقدمة من مرض (echolalia) وهو مرض يتميز بالمحاكاة الصوتية المباشرة الآلية.

المرأة تردد بشكل حرفي أي نص يقدم لها لتقرأه، ويستمر هذا إلى أن يقوم أحد بوضع نص آخر أمامها. تعجز عن المشاركة في أي حوار، ولكنها تتظاهر بالإجابة عن الأسئلة بمقتطفات من آخر نص قرأته. بحثت في التاريخ المرضي للمريض والمريضة الأخرى ووجدت الأمر ذاته. وعندئذٍ أدركت أن "دانيال" لم يطلب مني لقاء المرضى الثلاثة لكونهم شهودًا، رأوا أو سمعوا شيئًا، أو حتى للشك في أن يكونوا متورطين بطريقة ما في الجريمة. بل لقد طلب مني ذلك لأنه يريد أن يوصل إليَّ رسائل من خلالهم... ثلاث رسائل. فما الذي دعاه إلى اللجوء إلى تلك الرسائل المشفرة؟ حتى لا يفهم "فيكاريو" ما يجري أمامه، إن كلينا كان حاضرًا بتلك

Twitter: @ketab_n

الحوارات، وهو ما حدث بالفعل. وما الداعي إلى أن يرسل رسائل عمرها أيام، ويخاطر بألا أنجح في فهمها، وكان من السهل عليه أن يخبرني بكل ما يريد مني أن أعرفه خلال لقاءاتنا السابقة؟ تلك قصة أخرى، ولا بد أنه سيكشف لي سرها في الوقت المناسب. أما الآن، فأمامي مهمتين فيما تبقى من ساعات الليل: أن أذهب للقاء ذاك الشاب السمين من حارة المكتبات، وأن أنغمس مجددًا في غياهب هذه الرسائل المشفَّرة حتى أصل بنفسي ومن دون أن يساعدني أحد إلى ما كنت أشك فيه منذ البداية.

فصول اعتراف مشؤوم.

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

هناك قرية تشغل مساحة مثلثة، تطل عليها كنيسة بُنيت من الطوب اللبن والقصب، وعتبات مدخلها عند سفح الجبل. تشغل القرية الممر الأضيق في الوادي، وهي طريق إجباري لكل مسافر وقاطع طريق، وهي في أيام الآحاد نقطة الملتقى لكل من يقطن التلال والتبات القريبة. وذات ظهيرة، بان عند طرف شارع من شوارعها الثلاثة مجموعة من الغرباء، بعضهم يسير على قدميه، والبعض الآخر يمتطي بغلاً أو حصانًا. يسألون عن كبير القرية، فخرج لهم رجل عجوز:

- اسمي إبراهيم.

جبهته مخدوشة وقرنية عينيه صفراء.

طلبوا منه استدعاء ابنه فأطاعهم.

-إسحق!

هكذا نادى، ويقال إنه نادى إسماعيل.

فهرع إليه صبي كان يقف وراء مقشة من القش، وبيده دجاجة، وهكذا بدأت المحاكمة. قاموا بتلاوة جرائم الأب بصوت عالٍ في الساحة: إعادة كتابة القانون، إعادة ترسيم حدود الأراضي، استرضاء الإيمان باليأس. وقررت هيئة المحكمة المكونة من مجرمين ولصوص أنه مذنب. عندئذٍ التفت الغرباء نحو إسحق، أو هو إسماعيل: عليك أن تقتل أباك، ليكون هذا درسًا للجميع. ووضعوا بين يديه بندقية، وحينما غادروا المكان، قام أهل القرية بدفن إبراهيم: وكانت المدافن كبيرة جدًا لدرجة أنها تعدت على الشوارع والمنازل، وحفروا قبورًا جديدة أسفل أسرة الأحياء، فلا يكون على أهل الميت سوى إسقاطه من فوق الفراش إلى القبر.

شك "جامع الكتب" في مصداقية هذه الحكاية: حكاية مشوقة، ولكنها بلا نفع. وقرر من فوره أن يُري "جوليانا" كيف أن الشارع الحلزوني، عند السير فيه في الاتجاه المعاكس، يلف في دائرة خارجية حول المدينة، حيث المنازل بيضاء

Twitter: @ketab_n

والأزواج ينامون معًا من دون مقايضة الملابس أو النقود؛ يأخذها لتعيش في البرج، ويفك أمامها لفات القماش التي عليها قياسات مأخوذة لأجسام، وهيئات بشرية في أوضاع غير عملية؛ ويستخرج من الصناديق والخزائن مجلدات صغيرة تحوي حكايات خيالية وأخرى حدثت بالفعل، ويرتدي قبعة الساعاتي ذات المجهر، ويقرأ عليها واحدة منها:

أراد الشحاذ أن يترك السيرك الذي منه يكتسب لقمة عيشه، فارتحل حتى وصل إلى سواحل بلاد الظهر، وسرق ملابس مسؤول رسمي، وتنكر في هيئة عجوز حكيم، وتحول إلى حاكم مستبد، فأمر بنهاية التاريخ، والقضاء على الرغبة، وبثورة في الكاتدرائيات والمواخير، ومات رجلاً عجوزًا، ويده متشبثة بحافة مهد كبير، من دون أن يدرك أن مباني حكومته مصنوعة من الورق وأنه لم يخرج أبدًا من عتبات السيرك.

تنظر "جوليانا" إلى "جامع الكتب"، تتشبث كتفاها وخداها وأصابعها بكل كلمة، وتطلب المزيد، وفيما بينهما بدأت مقايضة؛ هي تظهر له مزايا الحياة بين البشر، وهو ينظم المنطق والجمل التي تعلمها من كتبه، والرقاقات العملاقة، واللفائف الواردة من فالينسيا، ويمضي نصف اليوم في المكتبة، والنصف الآخر في غرفة النوم، معها، يمارسان الحب. أسعد أحد عشر شهرًا من حياة "جامع الكتب".

Twitter: @ketab_n

التاسع عشر

- أليس هذا هو الطريق إلى مركز الشرطة؟
- هو كذلك.
- هل ستسلِّم نفسك؟
- ليست بالفكرة السيئة.

عندما يحل الليل يحمل هواء شوارع وسط المدينة رائحة زيت نَتِت يشبه رائحة سمك ميت مخزون، وشمَّه يشبه ابتلاع طينٌ مبتل من خلال الفم والأذن: والنظر إلى أولئك المتجمعين عند بوابات البارات والعاهرات والقوادين وعلى النواصي المظلمة والزوايا التي يختبئ فيها تجَّار المخدرات والناضورجية تحت أنوار إشارات المرور أشبه بمراقبة زوار حديقة حيوان من داخل قفصٍ بها: حيث تتبدد هيئاتهم وأجسادهم وتمتزج معًا في كتلة واحدة من مادة ملتبسة هشة. وما إن تقطع مسافة العمارات السبع في ذلك الشارع القطري الذي يبدأ من عند أول عطفة في حارة المكتبات حتى تكتشف بوابات غريبة، تنيرها أسطوانات مضيئة يسقط ضوؤها ثقيلاً على الرصيف، وفي نورها الملتبس تتقاطع ظلال نساء تعيسات ورجال منهكين

Twitter: @ketab_n

لتشكل كتلة فسفورية سائلة مغبرة بلا هيئة واضحة. ولم يكن الحال مختلفًا بحانة "ميكروكوسموس": باب زجاجي أسود أسفل قوس مزخرف لمنزل مبني على الطراز الإستعماري، ومجموعة من السكارى عند المدخل وفي الصالة الضيقة المؤدية للداخل يوجد قطيع من الشباب المتحفز، في أيديهم أكواب أو زجاجات الخمر ووجوههم المنتشية لا تعكس أية مشاعر على الإطلاق. إيقاع الموسيقى الصاخب المتشنج يجعل الجدران ترتج، وتهتز معها أرضيات خشبية وأخرى من الرخام، وتشعر بها في جسدك مثل لطمات شبح يخرجك من أنفه ثم يغلق بشفتيه عليك. وهناك خلف البار مجموعة ثانية من الطاولات الصغيرة والمقاعد المصنوعة من البلاستيك والألمنيوم؛ وعند آخر طاولة تبينت ذلك الشاب البدين الذي قرر أن يلتقيني هنا. لمحني من مكانه فلوَّح لي بيده وأشار يدعوني إلى الطاولة التي يعلوها قدحان كبيران من البيرة وإبريق مملوء بها. قال لي عندما جلستُ معه:

- ظننت أنك لن تأتي.

سكتُّ ولم أعقب.

مرت ثوانٍ، قبل أن أقول:

- ليس لديَّ وقت، وأنا مهتم بسماع حكايتك.

-لن نأخذ وقتًا طويلاً. ولكن لا بد أن تعرف أني لا أخبرك بما لديَّ لله وللوطن. عارف قصدي؟ هاه؟

لأول مرة أدفع مقابل معلومة: مررت له ورقة نقدية عبر سطح الطاولة البلاستيكية الخضراء، يراودني لأول مرة الإحساس بأني مخبر خاص. ابتسم ابتسامة واضحة، وخيِّل إليَّ أن النمش الوردي على خديه يلمع فرحًا. قال لي:

Twitter: @ketab_n

- بدايةً، أريد منك أن تخبرني بكل ما تعرفه عن "الكابيسيتا نيجرا".

قلت له باختصار:

- أعرف أن "ياناوما" يبيع الكتب القديمة وأنه من كبار تجار هذه البضاعة؛ وأنه امتلك منذ سنوات مكتبة حقيقية ولكنه فقدها في هجوم إرهابي؛ وأعرف أنه مصاب بهوس الكذب، وأنه ينتحل حكايات الآخرين وينسبها لنفسه؛ وأعرف أيضًا أنه كان صديقًا لـ"دانيال" وأنه كان يشارك أصدقاءه في "الدائرة" وكذلك تاجر مع عدد من كبار جامعي الكتب في المدينة؛ وأعرف أنه كان أمين سر "دانيال"، وأنه يعرف حكاية "جوليانا" الأخرى عن ظهر قلب، أو أنه قد نجح في أن يقنعني بذلك. وبالنظر إلى ما سبق أن أخبرتني به، فإني أعرف الآن أنه لم يخبرني حتى ولو بنصف ما أبحث عنه .

- عظيم.

تجرع جرعة كبيرة من قدح البيرة ومسح ركني فمه بإصبعين طويلتين:

- ما الذي تعرفه عن "الكابيسيتا نيجرا" وتجارة الجثث؟

عندئذٍ تذكَّرت تلك القصة القديمة التي حكاها لي "دانيال".

- أعرف بعض المعلومات. منذ سنوات، كان "ياناوما" ضمن جماعة من باعة الكتب الذين يعملون وسطاء بين موظفي المشرحة وطلاب الطب بالجامعات. يبيعون لهم أعضاء بشرية للمذاكرة عليها، وكان الزبون يعرف السمسار من ذلك الهيكل العظمي للقرد المعلق على كشكه. لا أعرف أكثر من هذا.

- ألن تشرب البيرة التي أمامك؟

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع.

ثم أخبرته:

- آخذ دواء في الليل لذلكلا يمكنني الشرب.

لسببٍ شعرتُ أنني مُجبَرٌ على توضيح السبب له.

- جيد، هذا يعني المزيد من البيرة لي.

كان النمش الوردي على خديه يضحك ابتهاجًا بهذا القدح المجاني.

- ما علاقة تُجَّار الجثث بهذا الموضوع؟

ضحك الشاب، وقال:

- علاقة متينة.. "ياناوما" لا يزال جزءًا من هذه التجارة. والصراحة، هو كبير الليلة كلها. حتى إنهم غيَّروا العلامة المميزة لهم بعد حادثة صغيرة مع صحفي، فأصبحت علامتهم عبارة عن تمثال نصفي لـ"جوته" فوق رصة الكتب. والتجارة لا تزال رائجة ولم تتراجع.

- وما علاقة ما تخبرني به بقصة "دانيال"؟

سألته وأنا أزيح رغوة البيرة من فوق الكوب الموضوع أمامي.

- ألم تستوعب الأمر بعد يا سيدي؟

أجبته وقد نفد صبري:

- لا.

- حسنٌ، سأخبرك بالحكاية بدون لف أو دوران. لكن حكايتي بدون أسماء لأنني لا أعرف أي أسماء، وأنا أفضل أن يظل الأمر هكذا، ولكنني أؤكد لك أن ما سأقوله هو الحقيقة. في صباح يوم منذ أكثر من ثلاث سنين مضت، ظهر صاحبك "دانيال" في حارة المكتبات. كانت عادته أنه يظهر، مع أنه بقي فترة متجاهلاً الكل ويتجه دائمًا لـ"الكابيسيتا نيجرا". كان

Twitter: @ketab_n

الجميع يعرفه، وأنا من ضمنهم. كان مميزًا عن بقية الزبائن، فمع الوقت لم يكن يقف ليقلب في الكتب، وكأن كل الكتب بالنسبة له بدون قيمة. كان "ياناوما" ينتظره ومعه ربطة فيها كتابين أو ثلاثة، ملفوفة في ورق بني. لكنَّ هذا الصباح كان مختلفًا.. "الكابيسيتا نيجرا" لم يتوقع مجيئه وتفاجئ لرؤيته. وكان صاحبك مرتبكًا وعصبيًا، وطلب من "الكابيسيتا نيجرا" كلمتين على انفراد. على أية حال، أن أعرف تمامًا ما تحدثا عنه، لكنني أفضل عدم إخبارك به الآن. سألته:

- "دانيال" قتل امرأة، "جوليانا"؟ خطيبته؟

أجابني وهو يتجرع البيرة ثم يملأ كأسه مرة أخرى:

- لا أعرف أسماء.

- "دانيال" قتل المرأة الأولى، وفكَّر في تركيبة بشعة ليتخلص من الجثة. هذا ما سأخبرك به، وما دفعت لي لتعرفه. فكَّر صديقك في حل ممتاز، ولكنه لم يستطع تنفيذه بدون مساعدة "الكابيسيتا نيجرا". إليك ما حدث بالظبط، هذا ما اتفقا عليه: "دانيال" ترك الجثة في شنطة السيارة لمدة يوم ونص، وبعدها، يمكن في نفس الليلة، نقلها لماسورة صرف صحي في شارع هادئ ليس بعيدًا عن هنا.وألقى الجثة هناك بدون محاولة إخفائها. تركها في شنطة بلاستيك مربوطة بشريط لاصق، ومع طلوع النهار يقدر أي أحد أن ينتبه للشنطة وما بداخلها. كانت الفكرة أن أوَّل جارٍ سيرى الجثة ويُبلِغ الشرطة، وهو ما حدث. واعتمادًا على الحكم القضائي بهذا الحي، حيث تقوم الشرطة بإرسال أ جثة إلى المشرحة والتي يعمل بها مساعدو "ياناوما"، والذي أخبرهم بالطبع بمعاد وصول هذه الجثة بالتحديد إلى المشرحة. كان عليهم فقط الإنتهاء من بعض الأعمال

Twitter: @ketab_n

الورقية الصغيرة: الإنتظار حتى يوقّع المدعى العام في الحي على أوراق تثبت أن الطبيب كتب تقريرًا يؤكد على أن هذه جثة فتاة تُدعى "جاين دوو" وأنها قد تم قتلها بوساطة أداة حادة، وأنها طُعِنت عدة مرات، مع وجود بعض الحروق في جسدها كله. بعد هذا، لن يتبقى سوى تغيير التاريخ المكتوب على الوثائق، وجعله بعد الحادثة بإسبوعين، وهم متأكدون، هم وصديقك، أن لا أحد في المدينة سيلحظ غياب تلك المرأة، وأن تحقيقات الشرطة وفي حالة عدم وجود شخص ليضغط عليهم من أجل كشف الحقيقة، ستكون مجرد روتين وسد خانة والسلام.

– هل هذا ما حدث؟ هل أقنع "ياناوما" أصدقائه بأن يجعلوا جثة الفتاة، جثة مجهولة، وتركوها لتتعفن في المشرحة حتى يهدأ "دانيال"، وه متأكدٌ من أن لا أحد سيتحمل عناء تحقيقٍ جاد في الجريمة؟

ابتسم الشاب مجددًا؛ كانت هناك ذبابة متململة تتمشى على حافة قدحه ومنه إلى يده في اتجاه ساعده.

– إن الأمر ليس بهذه البساطة. إذا كان صديقك ينتظر فقط من أجل فعل هذا، لكان من السهل عليه تنفيذه بدون مساعدة من أحد. لكنه كان يريد أن يصبح بعيدًا تمامًا عن أي شبهة. لم كن يريد أن يوجد أي دليل يؤدي إلى جثتها، وأكثر من أي شيء آخر، فقد أراد أن يتأكد بعينيه أن كل شيء قد تم، أن يرى بعينيه كل شيء يختفي. وهكذا بدأت المرحلة الثانية من الخطة. بعد ما حدث بأسبوعين، ظل صديقك يأتي لكشك "ياناوما" كل صباح. ومن هناك كانوا يأخذونه في سيارة إلى منزلٍ ما، ومنه لمنزلٍ آخر، وهناك يستلم منهم جزءًا من جثة الفتاة في صندوق بلاستيكي يحضره معه.

Twitter: @ketab_n

كان الشاب يحكي بكل بساطة، وبدأ يبذل جهدًا أكبر في شرب البيرة بجرعات كبيرة حتى انتهى منها. كانت الذبابة تدور في دوائر حول ذراعي الشاب؛ تحرك جناحيها في صمت وسط ضوضاء الحانة. وفي اللحظة ذاتها، كان كل من الشاب والذبابة يفرك يديه ببعضهما البعض.

أكمل الشاب:

- وهكذا تسلَّم جزءًا من الذراع في يومٍ، وفي يومٍ آخر عظمة فخذ وعليها نسائر لحم، وفي يوم ثالث الكبد، والكلية، وقطع من المخ، وأصابع اليدين والقدمين، والقلب مقسمًا إلى نصفين، وفي آخر مرة سلموه شنطة بها جلد الوجه وعضلات الوجه ملتصقة به كما هي، حتى يتأكد من أنهم لا يخدعونه. إذًا كيف كان صديقك يخفي كل قطعة؟ لم يكن هذا ضمن الإتفاق: هم فقط يفعلون ما اعتادوا فعله على مر السنين. كان صديقك يدفع لهم مقابل تسلُّم كل قطعة، حيث كانوا يتركون كل قطعة كل يوم في مكان مختلف في المدينة، وكانوا يأخذونه إلى هذه الأماكن معصوب العينين وفي تاكسي يوقفونه عشوائيًا، وهكذا كان يرحل من المكان وصندوقت البلاستيكي به قطعة من جسد الفتاة. ولكن بعدما انقضى الأسبوعان وتم تسليم الجثة كلها، رجع صاحبك لـ"الكابيسيتا نيجرا" بحكاية تانية، ونفس العرض المالي مقابل مساعدته. جادله "ياناوما" وانتهى الأمر بينهما إلى شجار، رغم محاولتهما ألا يتخطى صوتهما الكشك الذي أغلقه "كابيسيتا نيجرا" كمحاولة أخيرة تمنع الباعة والمارة من سماعهما.

أكمل الشاب قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- هذا ما رأيته، كان صاحبك متعرقًا، ومنهكًا، بدا أكبر من عمره، وكانت يداه وجسده كله يرتجفان. وعندما رحل من المكان كانت هناك نظرة احتقار في عينيه، وابتسامة لا إرادية على فمه. وافق "ياناوما" على مساعدته، ولكن حدث شيء ما، شيء لم يخطر على البال، وهذه المرة لم يعد صديقك. لم يعد نهائيًا.

سكت الشاب فجأة، ثم بدأ بالنقر على الكوب حتى يهتز سطح البيرة، فطارت الذبابة، ثم قال:

- أعرف ا حدث بعد هذا، حاول "دانيال" قتل نفسه ولكنه لم ينجح؛ اعترف بارتكابه الجريمة الثانية فقام والده بتسليمه للشرطة.

تحولت همهمة المثرثرين في المكان إلى طنين حاد ليس له رابط أو إيقاع. تحلَّق شباب وفتيات في وسط البار، أسفل الضوء النيون الأخضر الذي يصنع كلمة "ميكروكوسموس" بأحرف مائلة تعطيك إحساسًا بالخدر والكسل: الشباب خلعوا ستراتهم وبدت أحذيتهم بالية من أسفل بناطيلهم، بينما ضم كل شاب فتاة من خصرها ليتراقصا وهما ينظران إلى الأرض أو يتأملان الوجوه المنعكسة على مرايا المكان. كانت عينا الشاب متسعتين، ولكنه لم يكن يحدق في شيء.

- حسنًا، أعتقد أن هذا هو كل شيء.

- هذا كل شيء.

أجابني وهو لا ينظر إلى عينيَّ.

- أشكرك، والبيرة على حسابي.

Twitter: @ketab_n

لم يعلِّق، ووضعت النقود على الطاولة وأنا أضيف:

- هل يمكنني أن أسألك عن كيفية معرفتك بكل هذا الكم من المعلومات عن مافيا الأعضاء البشرية؟

ابتسم وأجابني من دون أن يرفع رأسه:

- طبعًا طبعًا.

بدت لي تلك الحبوب السوداء ذات اللون الوردي وكأنها تشبه لثتيه الداكنتين المتقرحتين.

- لأنني أعمل معهم... لماذا؟ هل تريدُ خدماتي؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

العشرون

شعرت بحاجة ملحَّة للعودة إلى منزلي، ولكنني في الوقت نفسه شعرتُ بذعرٍ غامضٍ بسبب تلك الجدران الوحيدة العدوة، وخاصة أن حجم الهلع الذي ستبثّه في نفسي في هذه الليلة بالذات سيتضاعف مع اقترابي الوشيك من اكتشاف حقائق شنيعة تغطي تمامًا على كل شيء آخر واجهته في غضون هذه الفترة القصيرة من الزمن. وقررت وأنا جالسٌ في سيارة الأجرة أن أؤخر وصولي إلى تلك الأسرار باستكمال الطريق مشيًا على الأقدام، فطلبت من السائق أن يتوقف بي عند ناصية التقاطع الذي يربط بين منزلي والمستشفى. بدت تلك الكتلة اللزجة التي تشبه الكفن كأطلالٍ جاءت من المستقبل: بقايا مأساة وقعت ألف مرة ورغم ذلك تستمر في تكرار نفسها مرة تلو الأخرى، وبسرعة إلهٍ انشغل مؤقتًا عن عالم من أعمدة هشة وناعمة وأرضيات لا يمكن سبر أغوارها. مشيت وظهري للمستشفى، شاعرًا بنظرات هذا المبنى المتعلقة بظهري بكل غموضه ومآسيه المتشابكة. على مسافة عدة بنايات من المستشفى، تنهمك الفتاة التوأم النحيلة في مطعم "نص القمر" بتطبيق مفارش الطاولات، بينما تغلق توأمها الباب المعدني للمقهى. سكير يتحدث مع قط رمادي اللون

Twitter: @ketab_n

فوق دكة رخامية تحت ضوء عمود نور في الحديقة. الرياح توليفة من سهام غازية ورطوبة الليل السائلة، وتحت مطر جاف من دموع سوداء يعيد عقلي عرض حكاية "دانيال" جزءًا جزءًا.

مع ما أعرفه من معلومات، هناك مساحة ضئيلة للتخيل في قصة "دانيال": قتل "دانيال" الخادمة "جوليانا" و"جوليانا" خطيبته، بفاصل زمني قدره أربعة عشر يومًا بين الأولى والثانية. ثم ابتكر حيلة لا نظير لها للتخلص من جثة الأولى، غير أن قتله للثانية دمَّ دفاعات عقله ودفعه، أولاً، إلى محاولة الانتحار، ثم الإعتراف بجريمة القتل الثانية. ولكنه أبقى الأولى سرًا ولم يعترف بها للبوليس، على الرغم من أنَّه باح بكل شيء تقريبًا في حينها لكل من "ياناوما" و"ميرو".

أهو قاتل "هق" إذن؟ فإن كان كذلك، فلماذا يبذل الكثير من الجهد في الإنكار ولماذا أراد أن يبقي الجريمة الأولى سرًا، طالما أن حياته تدمرت بالفعل، كما قال لي؟ لماذا يعترف بجريمة وينكر الأخرى؟ والأهم من هذا وذاك: لماذا يقتل "هق"؟ أيكون السر وببساطة هو أن "دانيال" مجرد رجل فقد عقله وصار للأبد حبيس دائرة مفرغة من العنف المجنون، ينفذ إرادتها بلا مقاومة، عاجزًا عن مراوغتها والفكاك منها؟

كان بواب العمارة نائمًا يشخر وهو يغطي وجهه بقبعته، مادًا ساقيه بطريقة صعبة على مكتب الاستقبال. وبدلاً من أن أستقل المصعد وأوقظه بجرس الوصول، فضلت ألا أقلقه وصعدت السلم. صعدت هذا السلم عدة مرات، في وقت متأخر من الليل، وللحق فقد تفاجأت بنظافته بلاطه. دخلت إلى شقتي، ذلك الفراغ والاتساع الذي يخلق جوًا مُرَحِبًا دافئًا، وإن

Twitter: @ketab_n

كان ولسبب ما لم يمكنني معرفته، يبقي داخلك نفس الإحساس الخفي بوجود تهديد عدواني. الباب المفضي إلى داخل شقتي، الباب المفضي إلى الثلاجة، باب خزانة الصيدلية الخشبي، حيث بحثت عن أقراصي التي أتناولها في ذاك الوقت، كلها كانت تنغلق من خلفي بدون صوت: تركت باب غرفة المكتب مفتوحًا، وبينما كنت أضع على مكتبي الأوراق التي فرَّغتُ فيها تسجيلات ذلك اليوم، مع الكابتن "فيكاريو" والمرضى الثلاث. كان كلام أول امرأة به الإشارة التي أثارت شكوكي: تلك الإحالة الخاطئة إلى "سفر زكريا"، والتي قادتني إلى النص الأصلي:

وأبدتُ الرعاة الثلاثة في شهر واحد، التي كرهتهم نفسي، وارتعبت مني أنفسهم.

استبعدت الأسئلة التي طرحتها وجدالي مع "فيكاريو" على أساس أنها لم تكن لتغير شيئًا مما كانت المرأة ستقوله لي على أي حال، وحينئذٍ تمكنت من تكوين نص مترابط متماسك: "نعم، ومع ذلك أنا أعرف، الآن أم ماذا؟ الساعات تنتهي بشكل قاتل، بدون قصد، ولا أحد يهتم بشكلٍ كاف: فوق النار بالظبط يتدلى اسم آخر، في حالة نسيان أبدي. هذا الموجود ما هو إلا صمت، وحزن. هذا، نصل سكينه الجاد تظته بدون مقبض. نعم، فهمنا طائش، حتى لو نظرنا أو عرفنا ما بالداخل. لا شيء يخرج بوضوح، أليس كذلك؟ والآن نافذتنا، يقين: طيور عنقاء فارغة، شاذة، عارية، وحجاج أبديون يلوحون في الأفق في ظل النسيان، ولا يدخلون أبدًا. اذهب فحسب! "زكريا" ينذر بالأحكام. ليلة سخرية الآن، يا مجنون! الرب يلهو، يبتسم لنا. والمصابون بـ"الزينوفوبيا" يلعبون،

Twitter: @ketab_n

بشذوذ. وحوش! قلدوا الرب جيهوفا! الذي نشأ بهدوءٍ بعيدًا عنَّا. "زكريا المحب للخير" أنعمَ على رحمي بالبركة، في بركة العيش، والذرية، والأخوة!... قال جيهوفا للفلاحين والمزارعين العجائز والخارجين من السجن: اصلبوه! فاللحم تحت نيران زانتيب يخاف الآخرين. الأبواب الفاخرة، الأبواب المزخرفة أمام عينيك: فُتِحَتْ بالقوة، الشاب "يهوذا الإسخريوطي" الملثم الذي ينتمي لي، يترصد بدهاء هنا، آيات قديمة، متداخلة ومتفككة. باب فاخر، أنت فتحت إحدى عشرة آية ثمانية، وكشفت الخيانة الشابة، المختبئة في اللا مكان، أشباح!".

لو أن هذا، كما أشك، نص تحدث به "دانيال" إلى المرأة، ولو أنها تكرره فحسب، فلا بد أن هناك معلومة خافية عليَّ أن أستنبطها مما هو مدون أمامي، كما أفهم من هذه الكلمات المجردة. لا بد أن الاقتباس من "سفر زكريا" هو العلامة، هو الباب الأمامي.

"جعلتُ ثلاثة رعاة" لم تكن سوى اعتراف خفي: ثلاث حالات وفاة. الفتاتين "جوليانا" و "هق"؟ ولكن، "جعلتُ ثلاثة رعاة يموتون" تختلف عن "قتلتُ ثلاثة رعاة". ربما تكون هذه إشارة إلى شريك في الجريمة، إلى قاتل محترف، شخصٌ نفذ أوامر "دانيال"، شخصٌ تصرّف وفقًا لأفكار أو أوامر أو خطة "دانيال".

تأرجح مصباح مكتبي بسبب هبَّة رياح مفاجئة من خلال النافذة المفتوحة، وفي الخارج، بدا صفير شخص ما في الشارع وكأنّه يخنق عواء كلب يحتضر في مكانٍ ما: ماذا لو كان السرُ في "سفر زكريا"؟ كان الإنجيل مفتوحًا على نفس الصفحة: عاودت قراءته ولكن بتأني، منقبًا عن

Twitter: @ketab_n

علامات متداخلة في عبارات الكتاب. الفصل الحادي عشر غامض وكله نبوءات، آياته كانت تعقد الأمر علي أكثر وأكثر. وفي الإله كيانٌ لا يعرف الرحمة، وقاتل يصعب على الإنسان فهم سبب تصرفاته وسببها. فهو يقرر موت الرعاة بنفس الطريقة التي يقرر فيها ترك خرافهم تموت وتذوي: "من يمت فليمت ومن يبد فليبد والبقية فلياكل بعضها لحم بعض"، تلك هي الآية التي تتلو الآية التي أراد "دانيال" مني أن أكتشفها.

قرأتها ثانية بدون جدوى: عجزت عن استخراج أي معنى متماسك لا ينهار فور التفكير فيه. عدت إلى ما قالته المرأة. وبعدما قرأته وأعدتُ قرائته عدة مرات، تذكرتُ شيئًا: "هنا حتى النور يعيش" كانت عبارة سمعتها من قبل، من فم تلك المريضة في أول يوم زرت فيه المستشفى. عدت إلى النص مرة أخرى واكتشفت عبارة أخرى تكررت: "الأبواب البرَّاقة، فاخرة مزخرفة أمام عينيك". ولكن "دانيال" في أول لقاء لنا لم يكن قد أعد بعد حبكة الرسائل القديمة هذه. إذن هناك على الأقل جزء من كلام المرأة هو من بنات أفكارها: كلماتها هي. ومن حظي العثر أن تلك الكلمات هي العبارات الأوضح في معناها: "هنا حتى النور يعيش"، "الأبواب البرَّاقة، فاخرة مزخرفة أمام عينيك". ولكني لم أخرج من العبارتين بمعنى مفيد. غير أنني لاحظت أمرًا آخر بعد لحظات.

في لقائنا الأول، كانت هذه هي كلماتها الوحيدة: الأولى قالتها ما أن رأتني، والأخرى قالتهما عندما كنت متجهًا ناحية الصالة. وفي هذه المرة أيضًا قالتهم في البداية وفي النهاية. لذلك أعتقد أنها لابد وأن تكون طريقة ترحيب وتحية، ومن دون أي مقصد آخر من ورائها سوى أن تكون بداية

Twitter: @ketab_n

للكلام واختتامًا له: مثلما نقول مرحبًا قبل أن نقول إلى اللقاء. وهكذا كتبت أسفل هاتين العبارتين "مرحبا" و"إلى اللقاء"، قبل أن أقوم لأعد لنفسي القهوة. كان المطبخ باردًا كالجليد وفوق زجاج نافذته المفتوحة على مصراعيها تجمع الندى ليصنع ستارًا بالكاد شفافًا. ورأيت في الحديقة بالأسفل على البعد شرطي دورية، وعند مدخلها القوسي المؤدي إلى مساحتها الخضراء متشردين يتسكعون. وضعت قدح القهوة فوق مجموعة "الخطاب المختلس" لـ"إدجار آلان بو" فوق المكتب، وحينما عدت للتركيز على الورقة باغتني هذا الارتباط الخفي العجيب بين Hello و"On Here Even Light Lives" والذي صنعته شفرة بديهية وطفولية للغاية: فالأحرف الأولى من كل كلمة في العبارة "هنا حتى النور بيعيش" تصنع معًا كلمة مرحبًا "Hello" بالإنجليزية. امتزجت ضحكاتي الجذلة مع مرارة القهوة الساخنة في حلقي. وعبارة "Eyes Glamorous, Opulent, Ornate Doors Before Your"، "الأبواب البرَّاقة، فاخرة مزخرفة أمام عينيك"، كوَّنتْ كلمة "Goodbye"، وداعًا. ربما كل ما أحتاجه هو مراجعة النص كله باعتباره شفرة، أتجاهل المضمون وأركز فقط على الأحرف الأولى من كل كلمة في الجملة. الجمل التالية تقول ما يلي: " Yes, Even Still I Know, Now Or What? The Hours End Fatally, Inadvertently, And Nobody Cares Enough: Exactly Over Fire Dangles Another Name, In Eternal Limbo.". ""نعم، ومع ذلك أنا أعرف، الآن أم ماذا؟ الساعات تنتهي بشكل قاتل، بدون قصد، ولا أحد يهتم بشكلٍ كاف: فوق النار بالظبط يتدلى اسم آخر، في حالة نسيان أبدي".

Twitter: @ketab_n

وعندما قمت بتدوين الأحرف الأولى للكلمات خرجت بالعبارة التالية: "Yes, I Know. The Fiancée Of Daniel" "أجل، أنا أعرف خطيبة "دانيال". هكذا غمرني الحماس وأنا أفعل الشيء نفسه ببقية النص. تحولت العبارة: " This Here Is Silence, Is Sadness. This, His Earnest Knife Edge You Think Hasn't A Tang. Yes, Our Understanding Aims Recklessly, Even Looking On Or Knowing Inside. Nothing Goes Forth Openly, Right?" "هذا الموجود ما هو إلا صمت، وحزن. هذا، نصل سكينه الجاد تظته بدون مقبض. نعم، فهمنا طائش، حتى لو نظرنا أو عرفنا ما بالداخل. لا شيء يخرج بوضوح، أليس كذلك؟"، هذه الكلمات التي بدت وكأنها موجهة إليَّ بالذات تحوَّلتْ إلى: " This Is The Key That You Are Looking For." "هذا هو المفتاح الذي تبحث عنه". قالت الأحجية التالية: " Now Our Window, A Certainty: Hollow, Anomalous, Naked, Grif-Fons, Eternal Pilgrims Loom Under Some Oblivion, Never Entering." "والآن نافذتنا، يقين: طيور عنقاء فارغة، شاذة، عارية، وحجاج أبديون يلوحون في الأفق في ظل النسيان، ولا يدخلون أبدًا"، أعطت هذا الجملة الآتي: "Now A Change, Plus One." "الآن هناك تغيير، بإضافة واحدة". ولكنني حينما تعاملت مع العبارة التالية وجدت النتيجة بلا معنى على الإطلاق.

كانت الشفرة هكذا "Jgzpvmnnlgpsuxpqbmft"، وكذلك التي تليها "gjoecfusbzbm"، والتي تليها "uifsfjtpofjocfuxffo". لكن، بدءًا من هنا، بدأت الشفرة تستعيد معناها: " الأبواب الفاخرة، الأبواب

Twitter: @ketab_n

المزخرفة أمام عينيك: فُتِحَتْ بالقوة، الشاب "يهوذا الإسخريوطي" الملثم الذي ينتمي لي، يترصد بدهاء هنا"، ثم أكملت، "آيات قديمة، متداخلة ومتفككة. باب فاخر، أنت فتحت إحدى عشرة آية ثمانية، وكشفت الخيانة الشابة، المختبئة في اللا مكان، أشباح!".

وهكذا بتجميع ما جمّعته صار بين يدي نص آخر لا يزال بداخله شفرة سرية أخرى: "أجل، أعرف، خطيبة "دانيال". هذا هو المفتاح الذي تبحث عنه. الآن هناك تغيير. إضافة واحدة. Jgzpvmnnlgpsuxpqbmft gjoecfusbzbm uifsfjtpofjocfuxffo. وداعًا: من سجني أخبرتك بكل شيء". قبل أن أخرج بهذه الشفرات الثلاث، كنت قد فهمت كل شيء وعلاقته بجملة "الآن هناك تغيير. إضافة واحدة"، والتي لابد وأن تكون عبارة ذات معنى مضمن، وهو ما أحتاجه لكي أستطيع فك شفرة تلك الكلمات الثلاث. "اذهب فحسب! "زكريا" ينذر بالأحكام. ليلة سخرية الآن، يا مجنون! الرب يلهو، يبتسم لنا. والمصابون بـ"الزينوفوبيا" يلعبون، بشذوذ. وحوش! قلدوا الرب جيهوفا! الذي نشأ بهدوءٍ بعيدًا عنَّا. "زكريا المحب للخير" أنعمَ على رحمي بالبركة، في بركة العيش، والذرية، والأخوة!... قال جيهوفا للفلاحين والمزارعين العجائز والخارجين من السجن: اصلبوه! فاللحم تحت نيران زانتيب يخاف الآخرين. الأبواب الفاخرة، الأبواب المزخرفة أمام عينيك: فُتِحَتْ بالقوة، الشاب "يهوذا الإسخريوطي" الملثم الذي ينتمي لي، يترصد بدهاء هنا، آيات قديمة، متداخلة ومتفككة. باب فاخر، أنت فتحت إحدى عشرة، آية ثمانية، وكشفت الخيانة الشابة، المختبئة في اللا مكان، أشباح!".

Twitter: @ketab_n

الطريقة الوحيدة المباشرة للتعامل مع هذه الشفرات هي أن آخذ أول حرف من كل كلمة وأبحث عن الحرف التالي له في الأبجدية: "Jgzpvmnnlgpsuxpqbmft"، ولكنها تحولت بعدما جربت طريقتي هذه إلى "Khaqwnoomhqtvyqrcngu". لم أصل لشيء. أخذت منديلاً ومسحت القهوة اللزجة التي انسكبت على مكتبي. ربما لا أحتاج إلى أخذ الحروف التالية لكل حرف من الشفرة، ربما علي أن آخذ الحرف الذي يسبق كل حرف: فربما قالت المرأة "أضف واحدة" بدلاً من "إضافة واحدة"، وهكذا بدأت بالمحاولة مجددًا، وقد جاء الأمر بنتيجة.

تحولت الشفرات الثلاث إلى جملة تسببت بالقشعريرة الباردة في عنقي وظهري: " If you look for two pales you find betrayal. There is one in between." "إذا نظرت إلى الشاحبتين سترى الخيانة. وهناك واحدة فيما بينهما". أخذت أصابعي ترتجف من فرط الانفعال، وسقط قدح القهوة من فوق المكتب، فاتسخ كل شيء في طريقه بالسائل الأسود. أردت أن أكشف معنى هذه الجملة، ولكن الأمر لم يكن مجديًا. فالاثنين الشاحبين قد يكونا مرتكبي الجرائم. أو ربما لم يكن "دانيال" يشير إلى القاتلين، بل إلى خطته التي حكاها لي الشاب البدين الذي يعمل في حارة الكتب في تلك الظهيرة: ربما كان الشاحبان هما موظفي المشرحة المتواطئين مع "ياناوما".

كنت أشك منذ البداية في أن الرسائل الثلاث التي أوصلها إلي "دانيال" عبر مرضاه الثلاثة مجرد تكرار لنفس الاعتراف الذي سبق أن أدلى به، أو هي تأكيدات متكررة لمفتاح وحيد: أن هناك خطأ ما. ولكنه قد لا يكون

Twitter: @ketab_n

تكرارًا، ولكن تأكيدًا على كلامه. كان من الواضح أيضًا أن "دانيال" لم يشفِّر رسائله بطريقة معقدة، وإنما أضاف شفرة بسيطة لا يمكن أن يكتشفها "فيكاريو" عندما يسمعها، ولكنه ابتكرها بطريقة تسمح لأي شخص مع ورقة وقلم أن يفكها بسهولة. وهكذا قررت قراءة النص الثاني مُستخدمًا الأسلوب نفسه، ولكنني شعرتُ بالتعب واستنفدت حيلي من دون أن أتوصل إلى أي رسالة.

قال المريض:

- هذا ما أخبرني به (دانيال).

وذكر مكانًا ورجلاً وثلاث نساء، وأكد بشدة على أهمية تلك الحقيقة:

- ثالوث، والثالوث الأقدس، وسلطة ثلاثية، وحامل ثلاثي، وثلاثية، وعجلة بثلاثة عجلات، وثلاثة توائم، وثلاثة نساء. هل يذكرك هذا بشيء؟.

بعد ذلك كانت الهيمنة لصوت "دانيال" عبر كلمات المريض:

- كنت مجرد صبي، فتى غُر، على نياتي، وكان لديَّ ثلاث نساء. واحدة هي خطيبتي، وثانية هي عشيقتي، وثالثة هي أختي. ليس من بينهن أمي؛ أمي لم تكن هناك.

لم يكن من الصعب تفسير هذا: إن "دانيال" يتحدث عن خطيبته "جوليانا" وعشيقته "جوليانا"، وها هو يستبعد "هق" من الحكاية لتحل "صوفيا" محلها، أخته الصغيرة التي هربت أو ربما ماتت منذ سنوات عديدة.

- عشيقتي اختفت وصارت عدمًا؛ وخطيبتي اختفت وصارت عدمًا، وأختي اختفت وصارت عدمًا. بهذا الترتيب.

Twitter: @ketab_n

ولكن الترتيب الذي يشير إليه تحوَّل، بحيث أن موت خطيبته وعشيقته يبدو سابقًا لاختفاء "صوفيا". فما معنى هذا؟ أكان "دانيال" مسؤولاً عما حدث لـ"صوفيا" منذ سنوات؟ وجملته الأخيرة – "أنا لم أقتل أحدًا، لم أقصد قتل أي أحد" – أهذا تنصل من جرائمه، وربما كان الجزء الأخير من الجملة تبرير لنصفها الأول، كما لو أن "دانيال" يريد أن يقول إنه قد قتل من دون أن يقصد القتل، وأنه بهذا بريءٌ بطريقة ما؟

كانت الجملة: "إذا نظرت إلى الشاحبتين سترى الخيانة" هي الأكثر غموضًا فيما قالته المرأة الأولى. فربما هي تقصد أن تقول الشاحبين، إشارة إلى "دانيال" و"صوفيا". لم أكن ميالاً إلى فكرة أنه أقحم أخته في فوضى جنونه هذه، ولكنني لم أشأ استبعادها.

وأخيرًا، ثمة احتمال أن يكون "دانيال" يحاول الكشف عمَّا هو أكثر عمقًا بكثير من تاريخ جرائمه: ربما كان هذا كشفًا لقضية أكثر أهمية، تفادى الكشف عنها مرات عديدة على حساب سلامة روحه. ربما وجد "دانيال" في "هق" نسخة بائسة من أخته: كان كثيرًا ما يكرر عبارة "جُزر الرعب حيث اعتدنا العيش"، قاصدًا إياه والفتاة المسكينة. والتي اعتاد أن يقول عنها إنها بالكاد فتاة.

تبقى أمامي النص الأخير للمريضة الثالثة، تلك المستغرقة في سرد التواريخ. "حسبما تقول زوجة (كونراد ليكوسينيس)، والتي كانت أجنبية، فالنساء في بلدها كن يضعن بيضًا مثل الفراخ. قتلها (كونراد) وفي فراش موتها عثر على بيضة صفراء ومن خلال شق في قشرتها رأى وجه نائم لمخلوق يشبهه تمامًا". وبعد تلك الحكاية القصيرة أصبح كلامها

Twitter: @ketab_n

عبارة عن قائمة من المعلومات الضعيفة المتداخلة، والأسماء، والتواريخ البعيدة، ومجموعة من التواريخ غير الدقيقة: ولكنني عرفت من الموسوعة البريطانية – التي امتلكتها زوجتي – أن "كونراد ليكوسينيس" كان شخصية حقيقية، لاهوتي ألزاسي (من قبائل الألزاس في فرنسا) أصيب بالشلل وتعلم الكتابة بيسراه بعدما فقد القدرة على استخدام يمناه. ومن أشهر أعماله كتاب هو عابرة عن تسجيل لأغرب الحوادث الخارقة للطبيعة في عصره، وذكر فيه النبوءات والوقائع غريبة الطوار والتي ألهمت "نوستراداموس" العرّاف الفرنسي الشهير أثناء كتابة تنبؤاته الشهيرة عن المستقبل. وعندما بدأت في محاولة فهم هذا النص اندهشت من استطاعتي فهم حس "دانيال" الغريب في الدعابة. وهكذا بحثت عن معلومات عن الأسماء الأخرى: "راميردوس الكامبري" كان من هراطقة العصور الوسطى؛ "جيراردينو سيجاريلي" كان واعظًا؛ "فرا دولتشينو" (وهو الاسم الوحيد الذي عرفته ما إن قرأته) كان مهرطقًا يستمد إلهامه من القديس "فرنسيس الأسيسي"؛ "يان هوس" الفيلسوف والمصلح التشيكي؛ والذي اعتبروه في براج بطلاً قوميًا وله أتباعه العديدون حتى يومنا هذا؛ "جاكوب هوتر" كان صانع قبَّعات كاثوليكيًا ولكنه مؤسس المذهب القائل بتجديد العمادة، والذي تخلص من بؤس الجهل ليقود كنيسة ويخلصها من أسر التخلف في ألمانيا القرن السادس عشر؛ "آن أسكيو" إنجليزية كفرت بفكرة أن الخمر والخبز عندما يقم قسيس بمباركتهما يصبحان جزءًا من المسيح، وقد حاولت وعظ الناس، فتم تعذيبها وسجنت بتهمة الهرطقة في برج لندن، ومن بعدها سُجِن "نيكولاس ريدلي" بتهمة الهرطقة والتجديف وأحرقا معًا.

Twitter: @ketab_n

فقط حينما لاحظت هذا التشابه عدت إلى الأسماء السابقة واكتشفت أن أوجه التشابه أكبر من ذلك بكثير: "الكامبري"، "سيجاريللي"، "دولتشينو"، "هوس"، "هوتر"، "أسكيو"، "ريدلي": جميعهم ماتوا بالطريقة نفسها، وجميعهم أحرق بسبب معتقداته. ما عدا "كونراد ليكوسينيس". وبدا الأمر نفسه مع الأسماء التالية: "فاراجليا"، "لوبيز"، "كونتي"، "جيوردانو برونو"، "كوبينو"، جميعهم أُحرِقوا.

بدت لي بقعة القهوة غير المنتظمة أشبه بخريطة لجزيرة تطفو فوق أوراقي، وقد اسودَّت حافة الصفحات بفعل أرض تلك القارة المدفونة في تفل البن وحبات سكر لم تذب. نهضتُ لأغلق النافذة، بعدما زادت قوة الرياح التي تتلاعب بالستائر وبعدما بدأ رذاذ خفيف يجد طريقه إلى مكتبي.

لو كان "ليكوسينيس" نبيًا، وبقية القائمة موتى محروقين، فما هي الرسالة التي يحاول "دانيال" إرسالها لي؟ أيحاول أن يخبرني شيئًا عن الماضي، أم عن المستقبل؟

توجهت لترتيب الفراش الكبير المهجور تمهيدًا للنوم، وحيث ستواصل هذه الأسئلة تجمعها واحتشادها في كابوس طويل يراودني كما الحال دائمًا، وعيناى مفتوحتين طوال الليل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

لرجل ستة أبناء، وذات ظهيرة اصطحبهم إلى الكنيسة، مستقلين الشاحنة. الرياح عاتية. الشاحنة تتأرجح فوق حجارة النهر المسطحة. الكنيسة في عمق الغابة. تسمع طلقات نارية أثناء القداس، هما طلقتان، وومضتان في الهواء، وفي لمح البصر تخضب رأس القس وقبعته المقدسة بالدماء، وعندئذٍ هرع الحاضرون فزعين نحو الخارج، ومنهم من اقتفى أثر المجرم، ولكنهم لم يعثروا عليه: خيمت كلمة واحدة، بالكاد مفهومة، على الأشجار، المرج الفسيح، الريف الصامت، وجدران الكنيسة المطلية بالأحمر، وتردد صداها آلاف المرات من على برج الجرس: "ميلينكوليا". وحل الليل.

على جانب التل وراء الكنيسة يتألق المنجل والمطرقة في زهو. وفي طريق العودة إلى المنزل، يسأل الأب كل ابن من أبنائه الستة، مناديًا كلاً باسمه:

- ماذا رأيت يا "خوليو"؟

- رأيت رجلاً كان ينظر في وجهي من أعماق البركة، وجهه مثبت إلى جمجمته بدبابيس.

- وأنت يا "غييرمو" ماذا رأيت؟

- رأيت جزيرة من الطين تذوب في البحر، سكانها من طين يذوبون في الجزيرة.

- وأنت يا "ماريو"؟

Twitter: @ketab_n

- رأيت نموذج الكنيسة فوق طاولة مستشفى: وكان الليل في ساعاته الأولى، وأحد الممرضين يغطيه بستار حتى اليوم التالي.

- وأنت يا "جابرييل"؟

- رأيت بداية ونهاية ومتوالية لا تنتهي من اللحظات فيما بينهما، وأم ترضع ابنتها وقطرة من حليبها توقفت ساكنة في الهواء.

- وأنت يا "خوسيه ماريا"؟

- رأيت كلبًا ينهش جيفة صاحبه حتى التهم لحمه ورأيته يدفن عظامه عند أبواب الجحيم.

- "خورخي لويس"، ماذا رأيت؟

- أنا أعمى، ولكني رأيت "خوان" شقيقنا الغائب، رأيته وهو يفر من الكنيسة بعدما قتل القس.

يضع "جامع الكتب" هذا الكتاب على الكومودينو بجوار الفراش، وينام بجانب "جوليانا"، وقبيل الفجر، وقت أن غلبهما النعاس، وغطاهما بأغطية من الورق المصور، ونقش وأختام ومنحوتة من النحاس، تصور نفس النقشات النحاسية: صورة رجل مجنح، عند باب منزل عند ساحل البحر، وكلب مسعور عند قدميه، ومسامير، ومناشير، ومطارق، وأوراق صنفرة، وأطباق فوق رأسه، ومن خلفه مد البحر مرتفع ووطواط يحلق في السماء ولافتة معلقة في مخالبه: "ميلينكوليا". ولكن لاحقًا، استيقظ "جامع الكتب" على صوت تمزيق ورقة وصرير صديء لباب ينغلق. ولاحظ أن "جوليانا" ليست في الفراش، فنزل من برجه العالي إلى الشارع الحلزوني، يتبعها، متعقبًا ذيل فستانها الذي لمحه عند

Twitter: @ketab_n

العطفة، عند الشارع الذي يلتف على نفسه، مثل الأفعى، حيث الزحام من حولها وأناس جالسون إلى الرصيف يأكلون طعامهم أمام أبواب المحال. رأى طرف فستان "جوليانا" ينسل أسفل باب منزل، أو هو فندق، ويصعد إلى حيث النافذة، ويبقى هناك ساكنًا ساكنًا، ضاغطًا بيديه على الزجاج، ويمضي الساعات مراقبًا حركة النظرات، ورموش العيون وثرثرة الأفواه، مثل موسيقى نشاز أو هو إيقاع خاص يشغل تلك النواصي. يشاهد "جوليانا" بين ذراعي رجل، تضحك، وفي يدها زجاجة خمر، ويدها الأخرى تسعى كالحية فوق ساقه؛ يراها جالسة على حجر رجل آخر، وتميل بظهرها على صدر ثالث، وتقبِّل رابعًا بشهوانية، قبل أن تصطفي أحدهم وتسحبه من يده في غواية وشبق وتصعد به السلم لتغيب عن ناظريه. يعود "جامع الكتب" أدراجه مشدوهًا إلى المنزل، ويصعد السُلَّمة الأخيرة قفزًا، ويختار كتابًا عشوائيًا من رف الكتب الذي يعطيه ظهره: كتاب في التشريح. في الصفحات الأخيرة صور منقوشة لأشخاص من القرن السابع عشر، رسمها الرسام بطريقة وضع ورق شفاف فوق أعضاء الجسم البشري، التي قطعت إلى شرائح، وكأنها قطع من لحم مقدد: يرى أعضاء رجال ونساء من الداخل، مشقوقة قطعيًا، وجوار الرسومات تعليمات للتشريح. استغرق في الكتاب حتى غلبه النوم. استلقى في السرير، وحينما استيقظ في الصباح التالي، كانت "جوليانا" قد عادت من ليلتها. نائمة، قدمها الصغيرة فوق الأخرى، وكأنهما يدا وليد جاء حالاً إلى الدنيا.

قبّل "جامع الكتب" جبينها.

قبل أن يتجه صوب المكتبة ليستأنف القراءة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحادي والعشرون

- بعض الطرق المستقيمة لا تؤدي إلى أي مكان.
- كذلك الطرق الملتوية.

جاء الصباح حائرًا متباطئًا مثل سحابة لا تنتهي. كنت أنتظره بينما أراقب مسار عنكبوت حمراء إلى جوار مصباح الفراش. بدت النافذة التي غطَّاها ستارٌ شفاف من الندى وكأنها ذابت فوق درابزين البلكونة الصغيرة، ومن خلال نافذة المطبخ أتاني الصوت الصدئ لسلاسل المصعد، منبئًا ببداية يوم ميكانيكي بطيء آخر. قضيت الليل بطوله في نقاش مع نفسي، وكان القرار الذي توصلت إليه محفوفًا بالمخاطر، بل مميتًا، لنفس السبب. سأترك مسألة البت في شكوكي بين يدي القدر. و"فيكاريو" في كفة منه، و"دانيال" في الكفة الأخرى: كنت مهتمًا بلقاء الاثنين، حتى أتمكن من إقناع ذلك الكابتن بالأسباب التي تدفعني إلى الشك في أن مقتل "هق" حلقة في سلسلة أطول من الجرائم، وأن فهم طبيعة تلك الجريمة أمر حتمي حتى نتجنب وقوع جريمة أكبر منها بكثير. ولكنني سأطلب منه أولاً أن أتحدث مع "دانيال". فأنا أريد أن أخبر "دانيال" بأنه يعرف أكثر بكثير ممَّا

Twitter: @ketab_n

اكتشفته أنا من رسائله، وأنني ما زلت عاجزًا عن التيقن من أي شيء في ظل هذا الكم من التجليات، ولكنني كنت راغبًا بشدة أيضًا في أن أعرِّفه بمدى شعوري بالذنب لأنني لم أكن إلى جواره طوال سنوات انهياره الصعبة، وأنه لو أراد أن يفضفض إلي بأي شيء فإنني هذه المرة إلى جواره لأسمعه، حتى ولو تحولت مشاعري نحوه إلى مشاعر مقت وكراهية، ولكنني موجود، وهذا هو المهم. وبينما كنت أرشف آخر ما في فنجان القهوة وأهم بالمغادرة، لمحت صورة قديمة لزوجتي على ترابيزة في غرفة المعيشة، أصبحت قديمة داخل بروازها الفضي الأسود، وبهتت بفعل الشمس، فلم يعد يظهر عليها سوى بقع بنفسجية وخضراء متأكسدة. شعرت وكأني لم أرها منذ قرون. ووقفت عاجزًا أمام انفصال العالم الذي أعيشه الآن عن الماضي البعيد، أطلال تفصل بين وقت أقل واقعية وأقل إنسانية.

في المستشفى، قادني أحد المناوبين مرة أخرى إلى السلم الصغير المؤدي إلى القبو، ومن بعده ظهر المقبض المعدني لأحد الأبواب، وبعده الصالة، ثم الغرفة برائحتها التي تذكرني بالمبيدات الحشرية. وتلك المرآة الطويلة في خزانة الملفات التي تزيد من اتساعها، الموجودة أمام المكتب الذي كان "فيكاريو" يجلس عليه بالأمس. لم يكن هناك أحد. وكان عليَّ أن أنتظر. من النافذة المحاذية للشارع رأيتُ كعوب المارة السريعة بلا هدف تسير على الرصيف الذي تطل عليه النافذة، ومنها ينسل شعاع ضوء له رائحة الشحم، ليسقط على خزانة الملفات التي تحوي سجلات المرضى والتي اصفرت أوراقها من أثر الزمن. مرت خمس عشرة دقيقة أو ربما أكثر. سمعتُ صوت خطى في الصالة، تترك صدى قويًا مع الأصوات المتتالية

Twitter: @ketab_n

لانغلاق الأبواب. ووسط فتور المكان، لمحت ذبابة تحاول بكل طاقتها اختراق زجاج النافذة المغلقة. مرَّتْ خمس عشرة دقيقة أخرى بدون تغيير. فقررتُ الخروج إلى الممر والبحث عن "فيكاريو" بنفسي في الغرف الأخرى. كان ممرًا رماديًا وأرضيته مصقولة لامعة بنية، وعلى جانبيه أبواب مغلقة. طرقت أول باب، ولكنني لم أسمع جوابًا. كنت أرغب في فتحه، وفتح بقية الأبواب، ولكن المقابض الخشبية كانت متصلبة بفعل الرطوبة. وبجانب الباب الذي دخلت من خلاله كانت هناك غرفة أخرى: مشيت نحوه وجربت، ولكن لدهشتي انفتح الباب إلى الداخل. كانت الغرفة مشابهة للغرفة الأخرى، ولكنها تخلو من أي أثاث، وعند جدرانها رصات من صناديق الورق المقوى فوق بعضها البعض، مثل صف من شواهد القبور التي لم يزرع عندها أحد أي زهور، حتى تصل إلى السقف الذي تتدلى منه شباك العناكب التي تصيدت خيوطها الرمادية الكثير من شرانق العثة واليرقات. تقدمت خطوتين للداخل، ساحبًا حذائي بصوت مكتوم فوق السجادة. لا حركة في ذلك المكان، ولكنَّ هناك نسيمًا غير عادي يهب من النوافذ العليا، منسلاً خلال ثغرات في إطاراتها، والشرانق وشبكات العنكبوت تتمايل معه في إيقاع لطيف. كانت الصناديق بلا أسماء وعلامات. ذكرتني تلك الصناديق للحظة بالأدراج المعدنية في المشرحة وما تحويه من جثث تنتظر التحلل والنسيان. وفجأة، انغلق الباب من ورائي.

تحرك أحدهم في ركن وراء ظهري. استدرت بدون تفكير، ودرت على عقبي إلى أن اختل توازني وقد ملأني خوف طفولي. كانت هناك امرأة تجلس بجانب كومة من الصناديق: تمتد خصلات شعرها الأسود على كتفيها حتى بطنها، رأسها مائل، وأصابعها تعتصر بعضها البعض في

Twitter: @ketab_n

ثبات. كانت تصدر تأوهات خافتة تشبه أصوات الزواحف، بينما يتمايل جسدها من جانب إلى آخر، كما لو أن النسيم يهزها هي أيضًا، وكأنها مجرد يرقة أخرى في تلك الغرفة المحتشدة بالكائنات النصف مولودة. رأسها فقط كان يهتز بسرعة لافتة، ليرتعش بتشنجات متقطعة سريعة، ويميل في كل الاتجاهات، وكأن عنقها سلك مشدود تتعلق به أوزان متفاوتة الوزن، ولكنها ثقيلة. ومع انغلاق الباب، امتلأت الغرفة بالظلال، عدا شعاع من ضوء الصباح الذي اخترق فسيفساء النافذة الزجاجية، ويسمح لي أن أرى جزءًا من جسدها المغطى بالكثير من الخرق والتنانير والقمصان والبلوزات متعددة الألوان، واحدة فوق الأخرى؛ كومة من المنسوجات المكدسة فوق ذلك الظهر المحني إلى الأمام وإلى الأسفل: المرأة تجلس بصعوبة كبيرة على صندوق، ترتفع رجلاها بوصة عن الأرض، لتبدو مثل قزم هادئ أو طائر وحشي متحصن في ركن من قفصه في حديقة حيوانات الظل. لمست صدغها بيدها، ثم نزلت بيدها تجاه أذنها، وأمالت رأسها على الجانبين، كما لو كانت تريد أن تنصت إلى شيءٍ ما. ضاعف هذا التعبير المتنبه على وجهها من حجم الصمت في المبنى. أحسست وكأن أنفاسي الخائفة تخرج من فم ورثة شخص آخر غيري. وتجمد الهواء في حلقي. وتحولت المرأة برأسها ومالت بوجهها نحوي: هناك بقعة داكنة من جلد خشن، وعين يغطيها جفن مشوه متورم لا شكل محدد له، كروي مثل سرطان نما تحت جبينها؛ وعينها الأخرى مفتوحة، سوداء، مستديرة، قاسية مثل كرة حديدية مزروعة في وجهها ضيق الجبهة، وقزحيتها جامدة في المنتصف، وهي تسددها إلى وجهي كما لو كانت على وشط أن تسحب الزناد فتنطلق تلك العين كالرصاصة

Twitter: @ketab_n

نحوي. يسقط صوتها كالصفير المتذمر، رقيقًا مثل خيوط من الزنك، على كل شيء: مقطع صوتي واحد مُجزأ على نوبات وسكتات، وزغطة مأساوية تنطق الكلمة مثل السعال. أنزلت يدًا وأمسكتها بالأخرى، وتركت عينها المفتوحة الوحيدة تحدق في. جفلت في ألم فسقطت على الأرض، وجدت أن قدميها مربوطتان إلى بعضهما عند الكاحلين، وأن ركبتيها مثنيتان أمام جسدها، وجذع ملتوٍ إلى اليمين: ورغم ذلك أخذت خطوة في اتجاهي. ومكثت تحت شعاع الضوء. انعكست هالة من الفضة عن شعر بلون القش، وعن صدرها المقعر، وذراعيها متفاوتتي الطول: كانت تتأملني، بل تحملق في، كما لو أن رؤيتي تستدعي في عقلها ذكرى. مسحتني بعينها وكأنها تقرأ الكف. أخذت خطوة شاقة أخرى لتعدِّل من وضع جسدها حتى تمكنت من أن تسند خصرها إلى إطار الباب. توقفت الآهات. فغرت خطين دقيقين هما شفتاها، وكأنها تهم بقول شيء ما، ولكنها استمرت في تعديل وضع جسدها، فاتحة فمها في ثرثرة صامتة، لتكشف عن صفين من الأسنان المتداعية أشبه بالسنانير المرجانية، بل بشظايا: لسانها كتلة لحم شديدة السواد، جاف ولكنه يلمع كأنه قطعة فحم حجري. أطاحت برأسها نحوي ورأيت في نور الغرفة الرمادي وجهًا لكائن برمائي بلا ملامح، وعلى جلدها خطوط تجاعيد عتيقة متوازية لا حصر لها، وذكرتني ابتسامتها بابتسامة حيوان "السلمندر" بأنيابه وبثراته القذرة.

رفعت يدًا إلى وجهها لتمسك بأصابعها المفرودة قطعة جلد أوشكت أن تسقط عن عينها الأخرى: كانت عينها مثل كرة بيضاء، بلون الحليب، كرة عمياء تميزها العروق البنفسجية، من دون حواجب أو أجفان، ومن دون أي شيء إلا طفح كثيف غليظ وقاسٍ. أردت مغادرة المكان، ولكن المرأة

Twitter: @ketab_n

تستند إلى الباب. تراجعت إلى الخلف محاولاً الابتعاد عنها، واحتميت بين الصناديق المتراصة عند الجدار. اعتراني فزع طفولي، نفس إحساس من يستيقظ مفزوعًا من حلم يرى نفسه فيه وهو يسقط فجأة في بئر بلا قرار: وتملكني خوف عبثي من أن يستيقظ جيش جرار من المخلوقات المتوحشة القابعة في هذه الصناديق. واستمرت المرأة في إصدار ذلك الصوت الشبيه بصوت الصفير.

جلست المرأة القرفصاء على الأرض ودست يدها أسفل تنورتها، وأخذت تحرك أصابعها بحركات مسرحية، وكأنها تعدل من وضع حفاظة طفل تحبسه بين ساقيها. سمعت صوت فتح وغلق باب في الصالة، وبعدها وقع خطوات تقترب. أتمت بحثها قبل أن تخرج شيئًا من أسفل التنورة، وهو ما لم أره، ولكنني كرهت المنظر. انفتح الباب والمرأة تضع ذلك الشيء على الأرض أمامها. دخلت ممرضتان بزيهما الأخضر الغرفة، وتجاهلتا وجودي وهما تجذبان المرأة من ذراعيها ويجبرانها على المشي تجاه الصالة، وقد أحاطتا بها بسطوة وبجسدين ضخمين للغاية.

ما إن غادرتا الغرفة حتى سمعت صوت "فيكاريو" يناديني: انفتح الباب مجددًا، وانعكس ظل الكابتن على أرضية الغرفة. دخل إلى الغرفة وشاهدت في عينيه نظرة جوع وإرهاق. كان فمه يتلاعب بخلة أسنان دسها في جانبه، وفي يسراه رزمة ورق. سألني بنبرة ساخرة:

- ما الذي تفعله هنا؟ تبدو كما لو أنك قد رأيت شبحًا في الحال.

- كلا.

- تعالَ معي.

Twitter: @ketab_n

قطع الممر بخطوات مسرعة، وقبل أن أخرج اتَّجهتُ صوب البقعة التي كانت تجلس فيها المرأة لألقي نظرة عند أسفل الصناديق، التي كانت وراء الباب، بحثًا عن ذلك الشيء الذي تركته لي. وجدته أصابعي: شيء ذو سطح كروي متعرج، تغطيه مادة سميكة. أمسكته بيدي ورفعته نحو الضوء: إنها بيضة. بيضة دجاجة بيضاء، وهناك شق في قشرتها خرج منه الزلال وسال على القشرة. ألقيت بالبيضة بحركة غريزية، فانفجرت فوق السجادة، عند البقعة التي ينيرها شعاع الضوء: وهناك في تلك البقعة رأيت الصفار طافيًا في البياض، وفيه ورقة مستطيلة صغيرة صفراء، وكأنها تلك الورقة التي تجدها حينما تكسر بسكويت الحظ الصيني. سحبتها وأخذتها معي وأنا متجه إلى الصالة. رفعتها نحو ناظري لأجد كلمات مكتوبة بخط مرتعش، وكأن من كتبها طفل خائف:

"لا تصدق أي شيء".

دسست الورقة الصغيرة من دون تفكير في محفظتي، خلف صورة زوجتي. كان "فيكاريو" قد سبقني ودخل عبر باب الغرفة الأخرى، وحينما دخلت وجدته جالسًا إلى مكتبه.

- لماذا أنت مذهول هكذا، سيد علم نفس اللغة؟

كان صوته ملتبسًا، وكلماته ناقصة، وكأنها تذوب في صداها. وسكت ولم أجبه في البداية. سحب تلك السلسلة في السقف الساقط وعندئذٍ تحولت الجدران إلى اللون الأبيض الخفيف. وبعد صمت استمر لثوانٍ، تكلم كلانا في ذات الثانية. فأشرت بيدي مرتبكًا أن يبدأ هو الكلام.

- قضيت الليلة مع تسجيلات أصحابك؟

Twitter: @ketab_n

- بالتأكيد.. أظن أني اكتشفت أمورًا جديدة؛ لستُ متأكدًا؛ ولكنني أريد أن أتكلم مع "دانيال".

- شيء له علاقة بموت البنت؟

- لا، ليس بالتحديد. ولكن.. ممكن.

تثاءب "فيكاريو" وأجابني في لا مبالاة:

- إذا لم يكن الموضوع يخدم القضية فأعتقد أنه من الصعب أن أسمح لك بالتحدث مع صاحبك.

هنا تذكرت سؤالاً معلقًا، فكرت فيه طوال الليل:

- قل لي، كابتن، في أي ساعة عثروا على جثة "هق"؟

- من؟

- "هق". هكذا كان "دانيال" يسميها.

- آه.. أوكيه.. "هق".

- حينما وجدوا جثتها، وعند التشريح وجدوا في داخلها كتلة من الأوراق التي بالكاد هضمها جسدها، ويبدو أن أحدهم أجبرها على بلعها، ليقتلها بالتأكيد، أليس هذا صحيحًا؟

- صحيح.

- طيب، وكما أعرف، هناك كذلك ورقة تكاد تكون سليمة، صحيح؟

- بالضبط. هناك ورقة ضمن العديد من الورق، الوحليمة بالكاد، في الغالب هي آخر ورقة أجبروها على بلعها.

- حسنٌ، أخبرني، هل من الممكن أن نعرف إذا كان هناك كتابة في الورقة أم لا؟ هل كانت صفحة من كتاب أم ورقة من دفتر؟ هل هي مطبوعة؟ أو مكتوبة بخط اليد؟

Twitter: @ketab_n

أسند "فيكاريو" ظهره على ظهر مقعده، ثم رفع قدميه ووضعهما فوق المكتب. أحدثت عجلات المقعد صريرًا معدنيًا بشعًا فوق البلاط.

- في عالمي لا نعطي أهمية للسلاح المستخدم في الجريمة: كلها أسلحة، ولا تنطوي على أي رسائل. هذه البنت قتلت بالإسفكسيا؛ خنقًا، ولا معنى لهذه الأوراق سوى هذه الحقيقة. مثلها مثل يدي الخانق: فلا يهمني إذا كان مرسومًا على يديه تاتو أم لا، كل ما يهمني هو صاحب اليدين. وكل ما يهمني أن أجده في تلك الورقة هو البصمات؛ ونحن لم نجد أي بصمات.

- وماذا عني، هل بإمكاني رؤية تلك الورقة؟

- بالطبع هي ليست معي هنا.

- أعرف. أقصد في وقت آخر اليوم أو غدًا. ممكن؟

- ممكن إذا وعدتني بالتوقف عن مضايقتي. سأعطيك نسخة منها. وبالنسبة لصاحبك: هل لا زل مُصرًا على مقابلته؟

- لازم أتكلم معه. ضروري. عندي أسئلة لازم يعطيني إجابة عنها.

لم يعقب الكابتن "فيكاريو"، ولكنه ابتسم ابتسامة فاترة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الثاني والعشرون

هناك، في وسط الساحة المغطاء بالرمال والحصى، رجلان واقفان جامدان، يحدق كل منهما في عيني الآخر. ولولا تلك الوقفة السليمة لأحدهما، الأطول قامة بين الاثنين، لكان من المستحيل عليَّ تمييز المريض من الزائر. فقد كانت تعابير وجهيهما متطابقة. والانفعالات منسوخة. ومن ورائهما امرأة تنحت أحرفًا لم تنته منها في جذع شجرة قريب، وعلى بعد بضع خطوات يصيح عجوز بوجه متهالك وعينين ساكنتين بنص حوار مبهم يردده في عزلة كاملة عمَّا حوله.

خرج إليَّ "دانيال"، ومرَّ عبر البوابة العريضة المفضية إلى الصالة، حيث عنابر النوم. أحسست من وجهه أنه قد كبر سنين في غضون تلك الأيام الثلاثة الماضية فحسب، وقد غارت عيناه في محجريهما، وتكونت هالتان سوداوان أسفل حاجبيه وفوق وجنتيه، بينما غابت نظراته عني. بدت لي تلك الندبة الصليبية على جبهته مثل رسم على قطعة رخام لامعة، ووجنتاه متخشبتان. توقف على مسافة ياردتين أو ثلاث مني، ويداه في جيبي سرواله. لم أكن أعرف ما إذا كان عليَّ أن أتَّجه أنا إليه أم أن أنتظر

Twitter: @ketab_n

فحسب. ولكنه تحدث إليَّ من مكانه، بصوت خافت ومن دون أن يحاول أن يرفعه، ربما ظن أن سكون الساحة كفيل بأن ينقل كلماته الهادئة إليَّ:

- ظننتك ستحتاج أكثر من يومين قبل رجوعك إلى هنا.

رأيت أن أتحاشى تلك الثرثرة الاستهلالية التي لا طائل من ورائها، ولا مزاج لي حتى أخوضها:

- أرسلت إليَّ ثلاث رسائل. وأعتقد أني قد نجحت في فك شفرتها، نوعًا ما، ولكني غير متأكد من فهمي لها.

- لقد أرسلتُ لك أكثر من هذا: بعضها كان داخل بعضه.

- صحيح، لكنني أخبرتك بأنني غير متأكد من فهمي لها.

- أنت تعرف ما تحتاج معرفته. وعند هذا الحد لا بد أنك تعرف أمورًا أخرى.

- أعرف أنَّك خدعتني منذ البداية، وأنك بطريقة ما كذبت عليَّ لعدة سنوات.

أصدرت المرأة الجالسة بجوار الشجرة صوت يشبه العواء المنخفض، وهي تواصل بغضب نحت حروف أخرى فوق الحروف التي نحتتها بالفعل.

- لم يكن من الممكن أن أكذب عليك كل هذه الفترة الطويلة؛ أنت لم تكن هنا؛ وأنا لم أكذب عليك الآن؛ كل ما أردت هو أن أؤجل الحقيقة أيامًا، هذا كل شيء، وأن أعطيك بعض الأدلة لتساعدك على كشف الحقيقة في الوقت المناسب.

تحدث بهدوء، بدون سخط، ولكنَّ هدوءه هذا أزعجني. شعرت بأنني أمقته. قلت له بغضب:

Twitter: @ketab_n

- أنت قتلت شخصين، أو ربما ثلاث، أليس ذلك صحيحًا؟ هل ستعترف بكل شيء مرة واحدة، أم أنك ستخترع حكاية أخرى تنكر بها كل شيء مجددًا؟

- لم أرغب في قتل أحد. كل شيء حدث هكذا فقط، الأمر بهذه البساطة يا "جوستابو"، بل وليس لدي شك في أنني كنت شاهدًا على هذه الجرائم أكثر من كوني مجرمًا. رأيتني أفعل الأشياء التي تتهمونني بها، ولكني مقتنع بأني لم أرتكب خطأً. أليس هذا ما يسمونه بالإغتراب؟ أن تشعر بالغراب حتى من أفعالك الشخصية، وكأنك حاضر شاهد على حياة آخر غيرك، ولكن من خلال عينيه، وكأنك مجبر على أن تبقى حبيس عقل إنسان آخر، مثل سجين في عقل مجرم؟ كان هذا هو شعوري طول الوقت، طوال ثلاث عشرة سنة: اتهموني وسجنوني بين أربعة جدران في زنزانة، وكنت أنا الزنزانة، وأن سجني له يدا ووجه قاتل. لا أشعر بأنني مذنب أقل منك، ولا أجد في نفسي ما يربطني بما مضى من تاريخي. إن كان هذا جنونًا، فأنا مجنون. هذا هو دفاعي الوحيد عن نفسي.

قالها وسكت. لأول مرة منذ أيام عديدة، كان وجهه يظهر مشاعره: كان يعض على الجزء الداخلي من شفتيه، التي ظلت ترتعش بلا توقف، بينما امتص خداه إلى داخل فمه.

- كانت "أديلا" عشيقتك. "أديلا" أو "جوليانا"، لا أعرف بما كنت تناديها، ولكنها كانت عشيقتك. أحضرتها إلى منزل خطيبتك وطلبت منها أن تعيش معكما، كلتاهما في مكان واحد، لتسخر من الاثنتين معًا؛ جلبت تلك الفتاة من بيت دعارة وجعلتها خادمة لكما، ومن ثم قتلتها ما إن

Twitter: @ketab_n

تمردت عليك. كيف أقنعتها أن تجاريك في ذلك، وأن تقبل بهذا؟ كيف فعلتها؟

أشاح "دانيال" بوجهه ناحية منتصف الساحة: كان الرجلان متسمرين كما هما وعلى نفس الوضعية؛ بينهما فارق دقيق لا يكاد يُلاحظ.

- أهذا ما تعتقده؟ أنني قتلتها لأنها أرادت الرحيل؟ أنها تعبت من اللعبة؟ وبالتالي أكون في رأيك قتلت خطيبتي لأنها؟

- لأنها اكتشفت شيئًا خطأ.

قاطعته وقد فاض بي الكيل، ولم أعد أعرف ما أقول أو أفكر فيما أقول:

- قتلتها لتخفي جريمتك التي قبلها، ولكن الخطة فشلت، وانهرت أنت، عجزت عن الإستمرار في اللعبة: عرفت الحكاية كلها من شاب من حارة المكتبات. طلبت من "ياناوما" يساعدك في التخلص من الجثة؛ وكان "ياناوما" قد سبق وساعدك مع "جوليانا" الثانية، مع "أديلا". ويمكن ألا يكون لضميرك علاقة بالموضوع؛ يمكن تكون قلت لنفسك إن معارف "ياناوما" في المشرحة لن يفلتوا هذه المرة: مؤكد سيظهر من ينقب في موضوع "جوليانا"، عاجلاً أم آجلاً؛ فهي ليست شخصية غريبة ظهرت فجأة في المدينة، وهي ليست من لاجئات الحرب، أو عاهرة مجهولة الاسم والعنوان، أو فتاة لا يختلف موتها عن حياتها، ولن يسأل عنها أحد، مثل الضحية الأولى. كانوا قد فتحوا ملف التحقيق في مصرعها، وأنت المشتبه فيه رقم واحد.. مهما قلت العكس. ربما اعترفت لأنك أدركت أنه من المحال أنك تخفي كل شيء، ولأنك أدركت أن أي تحقيق سيصل في النهاية إلى خيوط الجريمة الأولى؛ وأنه من المستحيل عليك في تلك الحالة أن تزعم الجنون، كما

Twitter: @ketab_n

تفعل الآن، وأن تندمج في حركات البانتومايم غير المفهومة والتي حولتك مع الوقت إلى مجنون بحق. متى ستضع حدًا لكل هذا يا "دانيال"؟

اختبأت أذرع الشمس الهشة وراء سرب من السحب الرمادية؛ وعلى الجانب الآخر من أقرب دكة إلينا تبدَّى لنا ظهر تلك المرأة، وكذلك إصرار الحجر على جذع الشجرة وخدش كتاباتها المصنوعة من تقطيعات وشظايا.

– لم تكن الفتاة ترغب في فراقي. ليس الأمر كما خمَّنت أنت. كنا مختلفين؛ نحن الاثنين مختلفان: كنت سرها وكانت عشيقتي، وكنت أسمع حكاياتها، عن تلك الحرب البعيدة الغامضة والتي لا أعرف عنها شيئًا إلا ما تذكرته هي عبر شفتيها؛ كانت تمنحني ما عجزت "جوليانا" الأخرى عن منحه: الحياة ولا شيء سواها، رأس جسد أنقذوه من سفينة غارقة. تعلمت منها، "جوستابو"، أن الأجساد تكون أكثر حياة حينما تنجو من الموت: إنه ذلك الحب العفوي الذي نما بداخلها من دون جهد مني، والذي تدثرت هي به؛ كانت شكلاً من أشكال الحياة لم أعرفه من قبل. كنت لأصفه لك بأنه غريب وحشي، ولكنه ليس كذلك؛ ربما هو بدائي، ولكن بدرجة جعلتني عاجز أبداً عن تفسيره. شعرت معها أني أعود إنسانًا بدائيًا، حيث بداية لا أمتلك عنها أي ذكرى، أو هي ذكريات طفولية خاوية، سابقة على أي مهد، أو رحم أو فكرة: شيء أقدم من حياتي ذاتها. كلا، لم تكن مضطرة لأن ترحل عني حتى أفهم أنني لا أمتلكها: فأنا لم أشعرها أبدًا أني أمتلكها؛ بل كنت جمهورها، مشاهدها، وكان اهتمامي – وليس جسدي أو صوتي – هو الوقود الذي يجعلها مفعمة بالحياة. كنت أشعر بالذنب عندما نكون معًا، قبل الجنس وبعده، وقت أن تحكي حكايتها، عندما تحكي عن الحرب، كنت أرى نفسي واحدًا من أولئك الوحوش الذين تحرشوا بها، واغتصبوها،

Twitter: @ketab_n

وجرحوها، وانتهكوها، وكانوا هلاكها. وحينما تكون "جوليانا" الأخرى حاضرة، وتتقمص تلك الفتاة مسكنة الخادمة التي لا يربطها بي سوى المال ولا يهمها سوى إرضاء سيدها وستها، أرى فيها ما تكبته من شراسة عرفتها من غريزة حب البقاء التي تنامت بداخلها: كانت إنسانة حقيقية ومفعمة بالحياة أكثر من أي إنسان عرفته، وهذا لأنها تعلمت أن العالم عدو لها وأن عليها أن تخدعه وتراوغه على الدوام. وهذا هو ما قربني أكثر إليها، ولكنه دفع بي على المدى الطويل إلى أن أرفضها: فقد هزمتني المسافة بينها وبيني؛ ويؤلمني أنها لم تحتاجني كرجل، كإنسان، ولكن مجرد مستمع، مجرد شاشة تشاهد عليها نفسها، أو تأثير صورة حياتها منعكسًا على حياة شخص غيرها. وكانت نقطة ضعفها الوحيدة سرًا. كان عليها تكرار حكايتها يومًا بعد يوم، لتظل تطهر من ذاكرتها ما تراكم من المعاناة التي كانت تعاود حشدها لسنوات في ذاكرتها، في غريزتها المحبة للبقاء، في حبها للأسماء المستعارة، في وحشية حقيقة أنها لا تنتمي لشيء، لا لعائلة، ولا لمكان، ولا لأي شيء، وليس بيدها سوى أقنعة، ومكياج زائف، وابتسامات كانت كالأكاذيب تبوح بها بأعلى صوت. لم ترغب أبدًا في أن تتركني وترحل، لأنها تحتاجني كي أسمعها، ولكنها في نفس الوقت لم تكن معي: تبقى تلف وتدور في عالم دفاعي، شيدته من مظاهر خداعة وأقنعة وتصنع. وكانت رغبتها أن يكون ذاك العالم بلا حدود، وأن يكون متعدد الأوجه؛ ولم يكن هناك شيء كافٍ لملء هذا الفراغ، وأنا شيء من ضمن تلك الأشياء. كانت تحتاج إلى جرعة جديدة من الرجال والنساء من حولها، يجعجعون ويصخبون في كل ثانية، كرنفال من المتزلفين الاجتماعيين الذين يدخلون ويخرجون من حياتها من دون أثر، مجرد بقعة تغطي بها بقعة لا تزول

Twitter: @ketab_n

هي ماضيها؛ وكانت تحتاج إلى أن تنسى نفسها طول الوقت، حتى تبتعد عن الذكرى، حتى تتقمص شخصية أخرى، ووقت أن تهاجمها ذاكرتها، وتحاصرها، وتحبسها في ركن من الأركان، في أي وقت، من صباح أو ليل، عندئذ يكون وجودي ضرورة بالنسبة لها، ولكنه بمثابة مجرد إرجاء لتنفيذ حكم صدر عليها بالإعدام، ليس إلا. كنت لها شاهدًا مستمعًا وحسب: كنت في هذا مجرد متفرج، بعيد، يلعب دورًا ثانويًا. أما "جوليانا" الأخرى فكانت بمثابة المرسى، لافتة على الطريق، منزل بأبواب مغلقة، مستقبل محدد المواعيد، الاسم الأول والأخير مدون ومنقوش على صفحة وجودي البيضاء الكبيرة؛ "جوليانا" تلك كانت مسرحًا كبيرًا، فرجة كاملة: يمكن للمرء أن يعشق تلك الفرجة، ولكنها لن تحبك في المقابل أبدًا، بل قد لا تدرك أنك موجود أمامها من الأساس.

كنا على مشارف الظهر. والممرضات الودودات يتريضن خلال الحديقة ضمن جولاتهن. واتجهت إحداهن إلى الرجلين التمثالين وقالت شيئًا إلى أطولهما فمد ذراعه نحو كتف الآخر، ليقوده أمامه إلى الداخل. واتجهت ممرضة كبيرة في السن ترتدي زيًا أخضر نحو المرأة الجالسة بجوار الشجرة وأبلغتها أن وقت الغداء قد حان. فنظرت إليها المرأة نظرة من تتوقع مكيدة وخديعة في أي لحظة.

- وما علاقة "هق" بكل هذا؟

سألته وأنا أحدق رغمًا عني مرة أخرى في الهالتين العميقتين حول عينيه.

- لا شيء. لقد أقسمت لك من قبل أنني لا أحمل لتلك الفتاة المسكينة سوى الشفقة؛ وأنا لا أعرف ما حدث لها، والصراحة أنا حتى لا أريد أن أعرف حقيقة ما جرى لها.

Twitter: @ketab_n

- أنت لم تتحدث عنها في الرسائل التي وصلتني منك، ولكنك تحدثت عن "صوفيا".

وجدت "دانيال" يحدق بغتة في نقطة ما عالية، تتجاوز جدران الساحة، وتتجاوزنا، وتتجاوز كلامنا.

- كانت "صوفيا" دومًا متجاوزة لكل شيء. صارت "صوفيا" كل حياتي منذ ذلك اليوم الذي بدأوا فيه البحث عنها في الملجأ ولم يجدوا أمامهم سوى رسالة ومنزل صغير صنعته من الورق. فكل ما أفعله أو فعلته، وكل ما أفكر في فعله أو أوشك أن أفعله، هو مرتبط بـ"صوفيا". أنت لا تفقد أختك هكذا وحسب وكأنك فقدت شيئًا عاديًا في حياتك؛ فلو أن أختك اختفت بغتة هكذا في الهواء، ستتنفس هذا الهواء وتحتضنه بين أنفاسك طوال ما تبقى من حياتك. هذا ما لديَّ الآن، ولكن رجائي أن تصدقني في أمر واحد: قريبًا ستعرف ما ترغب في معرفته، وذلك لأني أريدك أن تعرفه. ولكنه ليس الأوان بعد: أحتاج يومين آخرين. أنت الآن جمهوري الوحيد، وآخر من تبقى لي من أصدقاء. ربما لا تشعر أنك كذلك، وهذا يصيبني بالحزن، ولكنها الحقيقة. وبطريقةٍ ما، الأشياء التي ستعرفها تتحرك للأمام، وقد أخبرتك إياها أمس بالفعل، في الأصوات التي سمعتها خلال لقاءاتك.

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

جماعة من البشر تعيش بين جبلين، في بقعة ترتفع عن سطح البحر بمقدار أربعة آلاف متر، في أجواء مثلجة. هم خمسمائة نسمة مكدسة في صفين من المنازل، أو منتشرين في بلدات متداعية؛ سرب دائم من المسافرين والرعاة. اندلعت حرب بين جيشين مغمورين على مشارف المنطقة، ودخلوا وخرجوا من المدينة، على الطريق إلى المعركة، أو للوقوع في الكمائن، وبدأ سكان المنطقة يختفون، منحازين إلى أحد الجيشين، أو يهربون وهم يحملون أطفالهم على ظهورهم، وقد نفقت حيواناتهم، وتحولت حقولهم إلى رماد، أو اختبأوا في الخنادق التي حلَّت محل العشب والحقول. وذات يوم، ظهر عشرة رجال عند أبواب غار قريب، أحدهم من أهل المنطقة، وآخر سبق لهم أن رأوه من قبل، أما الثمانية الآخرون فأغراب، وهجم عليهم سكان البلدة، واقتادوهم إلى القرية.

إلى أي الجيشين تنتمون؟ من هو عدوكم؟ لماذا تستمرون في سماع توسلاتهم بدلاً من تمزيقهم إربًا ووضع حدًا لهذا التهديد؟ وهكذا قتلوا ثمانية من الأغراب. أكانوا صحفيين يغطون الحرب؟ وكيف كان بوسعهم أن يعرفوا هذا؟ ومع حلول الليل قتلوا الاثنين الباقيين، حلفاء أو جواسيس كانوا، أو ربما لم يكونا هذا أو ذاك. وبعد أن شربوا زجاجات الخمر اكتسبوا ما يكفي من الطاقة لسحب الجثث إلى حفرة كبيرة.. "لا تجزعوا من تلك الأشلاء، فلقد تشوهت بفعل الطلقات، ولا تتحسروا على الضحايا، فهم في نهاية الأمر لن

Twitter: @ketab_n

يعانوا من كونهم ضحايا بعد الآن". وفي الأشهر التالية سيلقى مائة وأربعة وثلاثون من أهل تلك البلدة المتداعية مصرعهم بالطريقة ذاتها، والقتلة من الجيشين: وسيغطي الانفجار الأول على الانفجارات التالية، وخلى المكان من أهله ويومًا ما سيصير أثرًا بعد عين. ويغادر آخر رجل القرية ذات صباح إلى المجهول، مصطحبًا أربع حقائب تحوي ملابس وصلبانًا وأباريق وقلايات، محدثًا أصواتًا وصخبًا بين الأحجار في الممر. ويتخذ طريقه هابطًا بين المزروعات والأودية، متحملاً البرد القارس ووابل الأمطار على محاصيل الحبوب والليمون، وذات يوم وجد نفسه أمام بوابات المدينة. أخذ الناس يتطلعون إليه في دهشة، فهو يبدو مختلفًا، ولكنته غريبة. وصل إلى مدخل شارع يلتف مساره حول نفسه، مثل أفعى، فمشي فيه خائفًا. "أهذا ما جئت لأجله؟ أي جحيم وصلت إليه؟ لمَ لا أمكث هنا وحسب؟"، هكذا ظل يسأل نفسه، والليلة ينام في الشارع، بل سينام في الشارع لليالٍ طوال، بل أعوام، وآخر ما سيراه قبل أن يغلبه النوم هيئة رجل يرتدي زيًا ويبدو كالغراب، وفي يده كتاب، في علم التشريح، وقد وضع إصبعًا عند الصفحة التي توقف عندها. ينام فيقترب الرجل منه، ويدور حوله، ويفكر في أن يترك له بعض الفكة، ولكنه لا يفعل، فلا وقت لديه لذلك: لدى "جامع الكتب" أمور أخرى أهم. لقد أمضى العديد من الليالي يفعل الشيء نفسه: يستيقظ ليجد الجانب الآخر من الفراش فارغًا، فيمشي في الشارع، يمر عليه كثير من الغرباء، نحو المنزل أو نحو الفندق، وهناك يقف مستندًا إلى النافذة يراقب "جوليانا" وهي تنحدر في هاوية لا يلتقي فيها جسد بجسد، بل هو جسد واحد بأجساد

Twitter: @ketab_n

عديدة، ويشاهد "جوليانا" وهي مستسلمة للأيادي التي تتنافس على نهديها، ومداعبة جسدها، وتحملها إلى الطابق الثاني، وما تلبث أن تعود لتصطحب وجهًا آخر وتصعد به مجددًا إلى الأعلى. تأمَّل "جامع الكتب" فيما يراه، وفي سكون برجه أخذ يبحث في الكتاب عن إجابة شافية، محاولاً ألا يقع فريسة للجنون، فهو قد وعد نفسه بأن ينفصل عنها في هدوء، أو أن ينتصر عليها بحجج ومنطق وبديهيات لا يمكنها الفكاك منها، ولكن عليه فقط أن يجد كل هذا في غياهب مكتبته: وأخذ ينتقل بكل كد من مجلد لآخر وهو لم يجد بعد ذاك المنطق الكامن في كتبه والذي يتناسب وما تحمله ابتسامة "جوليانا" من سعادة بشعة: لقد بني العالم على الثنائيات، وهناك تناغم بين المتشابهات وكذا تناغم بين المتناقضات، ومثلما تتمرد الأشياء المتشابهة على بعضها البعض فإن الأشياء المتنافرة تتمرد على بعضها البعض كذلك، وهكذا يعمر الكون، وليس بوسيلة أخرى، وليس من حق أحد أن يعمد إلى تعديل هذا النظام، أما بين الجسدين فلا يوجد سوى حاجز، وبين "جوليانا" وبينه مجرد حاجز، خط، حد، ولكن ليس على الدوام: فأحيانًا ما كانا واحدًا، وهو يدرك ذلك جيدًا، يدرك أن العالم مبني على المتناقضات، والتناقض هو العنصر الثالث، وما إن تتغلب على التناقض حتى يصير كل شيء واحدًا؛ تتجول "جوليانا" وقد شبكت ذراعها في ذراع رفيقها، وفتحت فمها، أنثى مفترسة، مدمرة، وكانت النافذة هي الحدود، وهناك شيء عند هذا الجانب من النافذة: إنه أنا، "دانيال"، "جامع الكتب"، وعلى الجانب الآخر من النافذة وفرة من عرق ودموع، ونوم ولعاب، وصرخات، وعلامات الاختلال. كيف يمكن

Twitter: @ketab_n

استعادة نظام الأشياء؟ الحل هو أن تختفي "جوليانا" تمامًا: إنها لم تختّي، بل هي أطاحت بمبدأ السلام والسكينة؛ وهكذا كان "جامع الكتب" مصدومًا وهو في طريقه للمنزل من وضوح أفكاره. ومن الخزينة القابعة وراء مكتبة كتب اللاهوت، أخرج حقيبة صغيرة تحتوي على مشرط وملاقيط، ومناديل صغيرة تستخدم مرة واحدة، كل ما فيها غير ضار، أدوات للعلاج، وقد جهز تلك الأدوات بكل براعة، وملء استمارة ببيانات كان قد كتبها في ذهنه مسبقًا: والآن سينتظر حضور "جوليانا"، راقدًا في الفراش، بينما وضع كتاب التشريح مفتوحًا فوق المنضدة الصغيرة وغطاه بمنديل ورقي مطوي، وهناك مصباح نحاسي مضيء في الركن خلف الكومودينو، سوف ينصت إلى صعودها السلم، ثملة، قبل أن تبدل ملابسها، وسوف يتظاهر بالنهوض إليها بخطوات نائمة، وسيخبرها أنه لم يستطع النوم، ولأول مرة سيفتح باب السيارة لها، وسيدير مقودها كمل لم يفعل من قبل، فهو يهرب، أو هكذا سيقنع نفسه، عبر الشارع الحلزوني الذي يلتف حول نفسه، مثل أفعى، وسيخرج من المدينة قبل أن يوقف السايرة إلى جوار جرف، أسفله البحر، فيصله عبق المحار برائحته الجميلة من عند الساحل. وسينظر "جامع الكتب" إلى "جوليانا" وهي حية لآخر مرة، ويخرج المشرط الذي دسه في حزام سرواله ويقترب منها.

Twitter: @ketab_n

الثالث والعشرون

- ها نحن قد وصلنا.
- ما زلنا على مسافة عمارتين من المكان.
- لا أريد الإقتراب أكثر من هذا من قسم الشرطة.

مقر مركز الشرطة مرتفع ومتعدد المباني، وكأنه خرج من رواية "رحلات جاليفر" في بلاد الأقزام، وقف منتصبًا في منتصف تقاطع شارعين ينتهيان عند حارات رمادية متقاربة، ليتبددا في كتل سكنية رصاصية اللون كئيبة، وفي أسراب من النقاط المتأرجحة، وطابور من نسور واقفة على حواف تلك النوافذ ذات القضبان والدرابزينات الحديدية، متداعية بفعل سنوات وسنوات من التعرض للأكسدة. وعندما تنظر إلى الشجرة من الميدان تجدها متداعية مستهلكة مستنزفة، تكاد تنقض على أرض الطريق. وبالداخل تجد المكان عبارة عن متاهة من المكاتب غير المتناسقة، وخزانات الملفات، ومكتبة خشبية ضخمة ممتلئة بالكتب والأوراق، وعبر الصالات المعبَّقة بالرطوبة والدخان يتحرك العساكر والضباط بزيهم الرسمي، ورجال المباحث والمخبرين والسكرتارية بوجوه

Twitter: @ketab_n

ارتسم عليها الملل والذبول بوضوح. هناك كافيتيريا أشبه بخلية النحل في المنطقة خلف المكاتب، يزدحم بداخلها الضباط بزيهم الأزرق، يجلسون إلى ثلاث طاولات في الخلف، ومرؤوسيهم بأعينهم المنكسرة يشكلون طابورًا كالماشية، وينقسمون إلى مجموعات من الجياع، الذين يسحبون متلهفين الأطباق والأكواب البلاستيكية ليوضع لهم نصيبهم من الأرز والفاصوليا سيئة الطهي، بالإضافة إلى طبق معدني من الحساء السميك ذو الرائحة النفَّاذة والذي تطفو على سطحه طبقة من السمن الجامد: أمعنت النظر في قطعة السمن تلك وقلت لنفسي لا بد أنها مصنوعة من الأعضاء البشرية. وبينما كنت أتأمل المشهد أمامي أتاني "فيكاريو" من خلفي ووضع يده على كتفي، فانتفضت من الخضة.

- سيدي الخبير النفسي اللغوي، في كل مرة ألتقيك فيها تقابلني بهذا الوجه المندهش.

مسح بظهر يده المشوهة بسبب البرص بقايا حمراء اللون عند ركن فمه، ثم كوَّر منديلاً بين أصابعه قبل أن يلقيه نحو سلة المهملات من دون تصويب. مشيت خلفه وصعدنا سلمًا حلزونيًا، كان يصدر صريرًا تحتنا مع كل خطوة، حتى وصلنا إلى مكان يشبه الوكر بجدرانه القطرية وسقفه الخشن، ونافذته التي تطل على الطريق: الذي بدا لي مثل محيط أسود من المياه الآسنة، يمتد وتمشي فيه كائنات بدت من مكاني مثل بقع سوداء مرسومة تتحرك كفئران التجارب.

- لديَّ ما طلبته مني. ولكن أي مساعدة ليست من مبادئي؛ لن يمكنني أن أريك الورقة التي عثر عليها رجال الطب الشرعي في فم البنت، ولكن سأعطيك نسخة منها. ها هي ذي.

Twitter: @ketab_n

مددت يدي وتناولت النسخة منه:

- أشكرك. لقد تحدثت مع "دانيال" هذا الصباح، كما تعرف. وهو مصر على أن لا علاقة له بمقتل "هق"، بل ويقول إنه حتى غير مهتم بمعرفة الحقيقة.

- لو صاحبك اختار ألا يدافع عن نفسه، يكون بالتالي ضيّع نفسه. هو المشتبه فيه الوحيد. ومع أن التسمية هذه سخيفة، ولكن الأكيد أن "سلاح الجريمة" هذا لا يوجد مع أحد في المستشفى غيره.

ابتسم ابتسامة بيروقراطية، فانتفخت أوداجه بالبثور التي عليها.

- ما الذي تقصده؟

- لقد ماتت البنت مختنقة، متفقون؟ أُجبِرتْ على ابتلاع صفحات وصفحات، آلاف الصفحات. والممرضون والممرضات كلهم ذكروا أن صاحبك كان يحتفظ بكتب في غرفته، مجموعة كتب، والمجموعة هذه لم تعد موجودة في الغرفة الآن، بكل بساطة. وكما قلت لك، ورغم أن هذا عبث، فهذا هو الدليل الأقوى والوحيد ضده. أضف إلى هذا أنه الوحيد من بين جميع من في العنبر الذي له سجل إجرامي سابق. تعرف طبعًا أن صاحبك محكوم عليه في جريمة قتل أخرى من ثلاث سنوات. ووجوده في مصحة نفسية كان عن قصد، أو لنقل كان عن غفلة، ولكنه ليس عذر؛ ولا يمنع عنه الاتهام بالقتل في تلك الجريمة. وادّعاؤه أنه لا يعرف أي شيء لا ينقذه من المثول أمام القضاء مرة ثانية. وبالنسبة للحكم الأول بإيداعه مصحة نفسية، فهو حكم ممكن لأي قاضٍ آخر أنه يلغيه، فالمصحة ليست ملجأً أبديًا له، الموضوع وما فيه أن الحكم كان مقصودًا.

Twitter: @ketab_n

أخذت أتأمل في النسخة. كانت تحمل صورة الورقة من الأمام والخلف، وكانت الصفحة الخلفية فارغة إلا من هامش صغير ورقم مكتوب في الركن الأيمن السفلي منها. كان من السهل عليَّ التعرف على حافة الورقة الأصلية، بالقرب من جانبي النسخة؛ هذه صورة من الكتاب بمقاس أوكتافو، أو صورة من مخطوط تكبَّد أحدهم عناء تصويره. رأيت أن وجهة النظر سليمة: من غير "دانيال" يمتلك مثل هذا الشيء في المستشفى. تعمدتُ ألا تبدو على وجهي أي تعبيرات، وفضَّلت ألا أقرأ الكلمات المطبوعة. ليس بعد. كان الشارع بالأسفل في تلك اللحظة قد امتلأ بحافلات الميني باص التي دخلت مع بعضها البعض في عركة مرورية انطلقت فيها أصوات أبواقها وامتزجت مع صياح مجنون لسائقيها، بينما كانت هناك مجموعة من حيوانات الشوارع تتجول بين المارة في رصيف الحديقة بني اللون، على بعد ياردات من الشارع.

– لن يكون في يديك الكثير لتفعله لصاحبك، وستراقبه وهو يشنق نفسه بأكاذيبه طوال الأسابيع القادمة؛ وأعتقد أنك بعدها ستخرج من الصورة، أليس كذلك؟ ستكتفي بهذا القدر من لعب دور المحقق؟ ليس لديك الكثير لتفعله هنا.. دع العدالة تأخذ مجراها. ربما تخرج بشيء من هذه الورقة، ولكن، أرجوك، إذا وجدت أي شيء، فإني أطلب منك ألا تخبرني عنه.

في طريقي إلى المنزل مررت بـ"نص القمر". وضعت يد بدينة قدح القهوة أمامي على الطاولة. كانت التوأم النحيفة تروي السراخس في قصاري الزهور بجانب الباب الأمامي، وتغني بصوت مصطنع أغنية رتيبة، إيقاعها الصفير. وضعت الورقة جوار قدح القهوة. ما بدا لي وكأنه كان سلسلة من الكلمات المكتوبة بخط اليد كان في الحقيقة كلمات

Twitter: @ketab_n

مطبوعة، ولكن الطباعة متكسرة بسبب عدم دقة التصوير. وبعد تدقيق شديد، تبين لي صدق حدسي. لقد كانت فقرة كنت قد قرأتها لنفسي في الليلة السابقة:

ثُمَّ قَالَ لِي الرَّبُّ: اذْهَبْ وَتَجَهَّزْ ثَانِيَةً بِأَدَوَاتِ رَاعٍ أَحْمَقَ. فَهَا أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أُقِيمَ فِي الأَرْضِ رَاعِياً لاَ يَعْبَأُ بِالْغَنَمِ الشَّارِدَةِ، وَلاَ يَفْتَقِدُ الْحُمْلاَنَ أَوْ يَجْبُرُ الْمَكْسُورِينَ، وَلاَ يُغَذِّي الصَّحِيحَ. وَلَكِنَّهُ يَفْتَرِسُ السِّمَانَ مِنْهُمْ وَيَنْزِعُ أَظْلاَفَهَا.

إنها نهاية "إصحاح زكريا". وكانت هناك كلمة بعينها تحتها أكثر من خط: المكسورين. لقد سبق لـ"دانيال" أن اقتبس عن هذا الإصحاح من قبل؛ وهذا التكرار دليل ضده. أخرجت محفظتي، وأخرجت منها الورقة المستطيلة الصفراء التي تركتها المجنونة لي، ووضعتها إلى جوار الورقة الأخرى: "لا تصدق أي شيء". من كانت تلك المرأة؟ أي مرسال هي؟ أي نوع من الرسالة تلك؟ أسفت لأني تركت حرجي من كل هذا العبث يقود خطواتي طوال اليوم، وندمت على أني لم أسأل "دانيال" عمَّا إذا كان هو من وراء ذلك الدليل الجديد الذي لا معنى له أيضًا. يقول "فيكاريو" إني أتقمص دور المحقق، ولكني أشعر أن هناك جيشًا من محركي الدمى المتخفين يلهون معي، ويلهون بي.

- هل معكِ سيجارة؟

سألت من دون أن أرفع عينيَّ، وأنا أركز على ظل إحدى الأختين الواقفة خلفي، ومن دون أن أعرف أيهما الواقفة. بعد دقيقة أتتني بعلبة سجائر وولاعة فوق صينية ووضعتهما على الطاولة. كنت قد توقفت عن التدخين منذ سنوات: لذلك تحول أول نفس إلى خيط خشن في فمي، وشعرت

Twitter: @ketab_n

بالنكهة المرة تتغلغل في جسدي، ورأيت الدخان يخرج في دفقتين عبر منخاري: المكسورين. كان وصفًا مناسبًا للمجنونة التي أعطتني الرسالة. تذكرت كعبيها المتشققين، وساقيها معوجتين، وأحد فخذيها متورم بسبب اعتلال الغدد، والفخذ الآخر يعاني من الدوالي، شاهدت ذلك وهي تفتح ساقيها لتبحث بينهما. وتذكرت وجهها الخالي من أي معالم مثل يرقة حشرة، وأسنانها المدببة، وتلك السحجات المتقشرة في لثتها، وذلك المنظر المؤلم للجلد الممزق فوق عينها المغلقة. تذكرت وقفتها مثل قزم، والمشية المترنحة لساقين أحدهما أطول من الأخرى، وخطواتها الشبيهة بخطوات حيوان مشوه وهي تتحرك غصبًا عنها نحو الصالة. "لا تصدق أي شيء". هل كانت هي نفسها رسالة "دانيال"؟ تذكرت بيضة الدجاجة المهشمة فوق السجادة، ونظرات المرأة التي سددتها نحوي، كما لو أنها تنتظر مني أن أتعرف عليها. قرأت: الشاردة.. الحملان.. المكسورين.. الصحيح. وفجأة.. فهمت كل شيء. أو أنني لم أفهم. برقت في دماغي شرارة خفية، إنني أتذكر ذلك الوجه، يوم الحريق، قبل ما بدا لي أنه مليون عام. وتغلغل إلى كياني حدس شرير، وشعرت به يزحف في ظهري مثل أفعى تلتف حول أضلعي. لا بد أن أعود الآن إلى المنزل بأقصى سرعة. تركت بعض النقود فوق الطاولة وخرجت أركض؛ وقطعت مسافة العمارات الست التي تفصل بيني وبين منزلي ودوامة من الصور العتيقة تدور وتدور في عقلي. رأيت بعيني الخيال جذوة لهب أحمر قاسية ترتفع خلال البلاط الأبيض والأسود للسلك، ومنزل خشبي يدفع المفتاح دفعًا في مقبض الباب، وماكيت بالحجم الطبيعي لبرج ينسل من بين خزائن الكتب، ليقف جوار يدي التي تبحث عن دليل الهاتف: وضحكات فتاة تخربش بأظافرها

Twitter: @ketab_n

أزرار الهاتف، وصوتي وأنا أطلب أن أتكلم مع "دانيال"، وأنني صديقه، وأنني التقيته هذا الصباح، ورأيت جدارًا يتداعى تحت وطأة النيران، بينما استغرق "دانيال" دهرًا قبل أن يرد. صوته كان ضعيفًا منهكًا، ضاع وسط شوشرة بقية خطوط الهاتف. أمَّا صوتي أنا، فكان ملتاعًا مرعوبًا:

- "دانيال"، الأمر هذه المرة في غاية الجدية، أحتاجك أن تخبرني عمَّا حدث لـ"صوفيا".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرابع والعشرون

- أحسنت، لم أتوقَّع أن تصل إلى هذا السؤال بهذه السرعة. لقد ظننت أن أمامي يومًا آخر قبل أن أنتهي من الأمور التي عليَّ الانتهاء منها. سأحكي لك كل شيء.

كان لكلماته وقع مسمار يدقه أحدهم فوق طرف إصبعي: إحساس بالوحدة، والغدر، وبلادة الإدراك؛ نقله خط الهاتف إلي وكأنه يحمله فوق عمود من الجليد؛ مثل سمكة ميتة تطفو فوق سطح بحر غاضب.

- أردتُ أن أمنحك وقتًا أطول حتى تفهم. حتى تتوصل إلى شظايا تاريخي قطعةً قطعة. فكرت أنك سوف تبدأ في الشك قبل الليلة، ولكنك كنت ستبدد تلك الشكوك لاحقًا، حتى تقف بنفسك ووحدك في منتصف الدائرة، محملاً بكل ما آلمني لدرجة أني لم أعرف له اسمًا: الحقيقة. يخيل لي أنك قد أدركتها، أو جزءًا منها، بنفسك. ولكنك كنت هناك يوم أن بدأ كل شيء، يوم الحريق، يوم أن قررت "صوفيا" أن لعبتنا قد نضجت بما يكفي لها حتى تنتقل بها من مرحلة المحاكاة الخيالية إلى التنفيذ على أرض الواقع، وهكذا أشعلت النار في منزل العائلة، وفي نفسها، وبقيت ساكنة وسط النيران تتأمل دمار منزلنا من الداخل. "منزلك حيثما يكون

Twitter: @ketab_n

موقدك"، أتتذكر؟ لم تكن "صوفيا" بنتًا عادية: ربما لهذا كنت الشخص الوحيد الذي ترتاح إليه في المنزل، والوحيد الذي اختارته ليشاركها تنفيذ عروض الكوارث التمثيلية التي كانت تؤديها بكل إخلاص، وبكل لا معقولية، وفي كل مرة يصل فيها إحساس المسكينة بالوحدة والحبسة إلى درجة لا تطيقها. لطالما كانت مصدر إثارة في حياتي؛ وطيفها في كل لمحة من لمحات تاريخي، وفي كل عطفة، وفي كل درب. قد تكون "صوفيا" قد ماتت فعليًا يوم الحريق، ولكنها لا تزال معي.

- أنت رأيتها: مجرد مسخ من الفتاة التي كانت؛ تشوهت للأبد، بالحريق تارة، وبالمرض تارة أخرى. كان ما تخبرني به يثير دهشتي وعجبي، ويثير في والدينا الخوف والرعب. لهذا فضلا التخلص منها للأبد وحبسها في الملجأ، ومحوها محوًا من حياتنا. وكان بناء المنزل مجددًا ناقصًا غرفة رمز على هذه الرغبة في محوها تمامًا من تاريخ العائلة. كنا نتعامل وكأنها لم تولد من الأصل. أنت رأيتني ليلة الحريق، فقد هرعت إلى المنزل وليس في عقلي سوى هدف واحد: أن أنقذ المكتبة. سألت نفسي طيلة تلك السنوات عن نسياني أمر "صوفيا" في تلك اللحظات، ولماذا لم يشغلني أن أنقذها إن كانت في الداخل، وأن أتأكد من أنها لا تزال حية، وعما إذا كان من الممكن لي أن أنقذها من النيران. ومع مرور الوقت زاد اقتناعي بأن الفكرة الوحيدة التي خطرت لي في تلك اللحظات وارتحت لها هي أن أختي حبيسة النيران في مكان ما من المنزل، وأن النار ستلتهمها، وأنني قد اخترت بإرادتي أن أتجاهلها. لقد هرعت بين الأطلال كي أنقذ نفسي، وأجمع ما تقع عليه يداي من كتب، فقد كانت تلك الكتب هي حياتي، ولم أفكر في حياتها هي؛ وهذا هو ما أتلف حياتي منذ ذلك الحين.

Twitter: @ketab_n

والحقيقة أن ما أتلف حياتي هو ذلك الشعور بالذنب الذي لم يفارقني، أنها قد خطرت لي حينئذ، ولكني فضلت أن أتجاهلها؛ بل لقد دخلت وكنت أدرك ما أقوم به، منشغلاً برماد الكتب، وأشعر بالأسى وكأني أنا من أحرق وأتحول إلى رماد فوق الأرفف، وخرجت حتى من دون أن أنادي ولو مرة على "صوفيا"، ومن دون أن أهرع إلى غرفتها، ومن دون أن أتأكد من أنها ليست بالداخل وأنا أحاول الهرب. ولم يتفهم أبواي أبدًا هذا الجزء من الحكاية. شعرت أني المسؤول، وصارت قناعتي أنني السبب في أن تعيش "صوفيا" كل تلك السنين أسيرة نظرات سخرية من حثالة الأطفال في الملجأ، متقوقعة بين أشباح ومهرجين، يأكلها جنون هذا السجن المقيم، أنا السبب. والآن وبعدما مرت عدة سنوات، قررت أن أضع حدًا لكل هذا.

- أردتُّ إقناع والديَّ بإعادة "صوفيا" إلينا، وأن نخصص لها غرفة، ونخصص لها مربية، بل وطبيبًا دائمًا إن استدعى الأمر ذلك، وأن نعاود بناء عالمنا، أي أن نكون أسرة من جديد، وأن نواجه أحلك أيام حياتنا بدلاً من أن نرتاح إلى تجاهلها. غير أنهما لم يعيراني اهتمامًا. كانا قد وجدا الحل الذي ارتاحا له: التظاهر باللامبالاة، حتى وإن كان هذا التظاهر المصطنع يكتم على أنفاسهما ويخرسهما مع كل صباح، وفي كل لحظة ينظران فيها إلى كرسي فارغ، وفي كل مرة يتساءل فيها ضيف لم يلتقياه منذ سنوات عن فتاة المنزل الصغيرة، وفي كل مرة يتريضان فيها في الحديقة، وهي عادة توقفا عنها حتى لا يصادفا أي أطفال في الشارع تتصايح في غضب أو تهتف في جذل. لم أرغب في أن أكون ممثلاً في مسرح خيال الظل هذا. لهذا خطفتها. وحينما وجدا غرفة "صوفيا" في الملجأ خالية، وعثرا على تلك الرسالة الصغيرة التي اصرَّت على تركها، إلى جوار ماكيت الأوريجامي

Twitter: @ketab_n

للمنزل الذي أصرت أن أبنيه لها، شعر أبواي أن في اختفائها نهاية للمأساة، ولا بد أنهما اعتبرا ذلك فألاً طيبًا، وعلامة على بداية جديدة لحياتهما: فلقد أنقذهما فاعل خير من ذلك القلق على المعاناة المستمرة لابنتهما، من ذلك الحضور الطاغي الذي يوجه حياتهما وهو على البعد، من الاضطرار إلى غرفة تائهة في غياهب منزل سيكون في الحقيقة مجرد مستشفى. لذلك السبب كان التحقيق في الواقعة روتينيًا ظاهريًا، لحفظ ماء الوجه ليس إلا، حتى يترسخ لدى الناس انطباع بأن حياتهما قد أضحت محطمة، وبعد بضعة أشهر اعتادا أن يظهرا للناس بوجه حزين آسٍ يخفيان به الوجه الآخر، فهما لم يحزنا لفقدان الفتاة، ولكن بلادة الإحساس بذلك الفقد هي التي تغلغلت في قلبيهما: لقد كانا بحاجة إلى راحة البال، ووجداها في اختطاف الفتاة. وكما أخبرتك: أنا من خطف "صوفيا". بقيت معي لسنوات؛ بقيت معي طوال الوقت. راقبتها وهي تكبر، وتتكسر عظامها واحدة تلو الأخرى، ورأيت ابتسامتها قبل أن تتمزق مفاصلها، وكنت أحتضنها بين ذراعي في كل مرة تلتقط فيها جراحها عدوى جديدة، طوال كل أسبوع من أسابيع الجوع والغضب، راقبتها وهي تتحول إلى امرأة كابوس، وجنونها يتفشى، ويتفشى معه هوسها، الذي تعلمت كيف أتحاشاه، ووضعتها بين يدي الأطباء والأخصائيين النفسيين، وكنت لها المرض، وأطعمتها بيدي، واهتممت حتى بأحلامها أثناء نومها الذي كان مزيجًا من خوار ونقيق، وكنت لها الأب والأم. قدري أن أكون الشاهد على تحولها إلى وحش ممسوخ، وعلى الانحباس المؤلم للسانها، واكتسابها عادات العجائز، ولم يفارق ذهني وجهها الذي اختفت ملامحه، كنت أرى وجهي في وجهها الذي التهمه الخرف، وحلمت أني عضو في جسدها، وأنصت إلى ضلوعي

Twitter: @ketab_n

وهي تتهشم وتتحول إلى هياكل عظمية لأسماك ملقاة عند شاطئ، داخل هيكل طائرة متحطمة، في كومة قمامة تشتت شملها أقل حركة. لقد انحسر المرض عنها مع مرور الوقت، ولكن جسدها أضحى كرة من التشوهات، وزاد الجنون إلى حد أنه لم يعد يترك أي بصيص بشري في نظراتها. أصبحت "صوفيا" مجرد شبح، بقايا بشرية، حيوان خطر صغير يتسلى بالمرايا. تنظر فيها لترى طيف وجه بشري. وكانت تلك التشوهات تثير إعجابها نوعًا ما؛ وعندما كانت أصغر سنًا، وقت أن اعتادت أن تخضعني لعذاب أن أشهد على نشوتها المجنونة حينما ينكسر أحد عظامها: كانت تحتفل بذلك بصيحان نشاز، وكانت تفعل ذلك أحيانًا عن عمد. كانت تجد التسلية والمتعة في مرضها. والآن اعتدت أن أتوقع الرعب وقت أن يتغير مزاجها، واعتدت أن أبحث عن الخداع في دعاباتها، وأن أمنع تبعات الغضب الهمجي الذي انحبست فيه، والذي يستثيره أقل شيء، أو حتى من دون أي استثارة.

تعودت على مرات هروبها غير المتوقع، وكانت هذه هي مأساتنا. فمنذ أكثر من ثلاث سنوات مضت أدخلتها مصحة نفسية، ليست بعيدة عن هنا، تحت اسم مستعار، كالعادة. وقدمت للأطباء سجل مرضي صرت أتقن تزييفه، فقبلوها، وإن لم يخل الأمر من تحفظات؛ فلم تكن حالتها عقلية فحسب، حيث إن ضعف جسدها وميله للإصابة بأمراض من دون سبب واضح يجعل منها مريضة يتحاشى التعامل معها الكثير من الأطباء. وكنت في ذلك الوقت قد اصطحبت "جوليانا"، أقصد "أديلا"، لتعمل في منزل خطيبتي، وكنت أعيش معهما شهر العسل الغريب الذي أثار نفورك وامتعاضك. ففي كل يوم أذهب إلى شقتها، وأمضي الساعات هناك، أتأمل

Twitter: @ketab_n

ذلك الارتباط الوثيق بين المرأتين، وأتخيلهما امرأة واحدة. وفي أيام الأحد، كنت أنتظر عودة "أديلا" حتى أقوم بتوصيلها إلى فندق أو موتيل وأقضي الساعات أستمع إلى حكاياتها قبل وبعد أن يتوه جسدي في جسدها، منغمسًا في ذاك الشعور بالذنب الذي توقظه كلماتها في. وذات ليلة، عندما عدت إلى منزل العائلة، سلمتني "أولجا" رسالة ورقم تليفون فاندهشت: لقد اتصلوا بي من أحد المستشفيات بخصوص امرأة لم تتعرف الخادمة على اسمها. وبالطبع كان الاتصال بخصوص "صوفيا". اتصلت بالمستشفى فأخبرني طبيب بصوت مرتعش أن المريضة قد اختفت، وأن ممرضًا مر على غرفتها ولم يجد بها أحدًا. أخبرني كيف أنهم بحثوا في كل مكان وأنه نبَّه الحراس وفتشوا كل الصالات والغرف، بلا جدوى. ظننت للحظة أنني أحلم، وأنني سأستيقظ ليتبين لي أنه الشعور بالذنب الذي يتلاعب بي. ولكن، هيهات. لقد فرَّت "صوفيا"، وهذه المرة لم أكن أنا المسؤول. وفي يوم الأحد ذاك، في منزل "أديلا"، بقيت أؤنب ضميري بلا انقطاع وبجرأة، وأحاكم نفسي مجددًا على ما حدث في ليلة الحريق. قلت لنفسي: اصحَ، أفق.. لقد تحررت من أعباء "صوفيا" لبضعة أيام، وتخليت عنها مجددًا، فكانت هذه هي وسيلتها كي تبدي تذمرها وضيقها مني.

في ذلك الأسبوع تحولت المرأتان أمام عيني إلى امرأتين مختلفتين. انفصل الجسد عن الجسد وأضحيا جسدين، لم يعودل كياناً واحدًا كما تخيلتهما، ومثلا أمامي دليلاً على هذيان رغباتي. وفي يوم الأحد التالي توجهت كالعادة إلى منزل "أديلا"، التي كانت تنتظرني ظهرًا، وقد عزمت أن أطلب منها أن نضع حدًا لهذه العلاقة. كان علي أن أحررها من تلك العبودية، وأن أحرر

Twitter: @ketab_n

نفسي من نفسي، وكذلك عزمت أن أخبر "جوليانا" الأخرى أن علاقتنا لم تعد سوى عبث في عبث. طرقت الباب عدة مرات من دون رد، وفي النهاية أدرت المقبض، ولكنني وجدت الباب مفتوحًا بالفعل. وجدت الترابيزة مقلوبة في الصالة الأمامية وقطع تمثال من البورسلين لطائر متناثرة بين الزهور وبرك صغيرة من المياه؛ وأسفل ستار خشبي رأيت قطرات الدم، وفوق المقعد جوار الأريكة القديمة في غرفة المعيشة، وكذلك لطخة طين، لونها بنفسجي وكأنها ندبة على الأرض. عثرت على جثة "أديلا" في الحمام، وساقاها متدليتان في البانيو، بينما ذراعيها مفرودان كجناحي طائر ارتطم ببلورة قبل أن يسقط على الأرض. في بطنها العاري جرحان طويلان متوازيان، رفيعان، يميزهما الدم بقوامه الرغوي المتخثر، وكانا متسمرين بنظام، مثل غرز رتقة وحشية خاطت الجلد في هيكلها العظمي؛ وتحت صدرها، وفي أجزاء بعينها، كانت أضلعها ملتصقة في جلدها مثل طعنات تحاول النفاذ للخارج. ذراعاها وساقاها محروقان، وتحولت إلى عصي منتفخة رمادية اللون، تتخللها بقع مثل فوهات بركان مغبرة، ومجموعة من طفح جلدي أسود تنتهي عند أظافر اليدين والقدمين الشفافة: وكانت تلك الأظافر الشيء الوحيد الذي بقي سليمًا. احترقت كذلك ستارة الحمام ورقعة سجاد صغيرة في الأرض بين ساقيها. وكان في بركة المياه القذرة على الأرضية كومة بدت كأرخبيل صغير من الرماد. شعرت بالغثيان ولم تحتمل معدتي، فتقيأت سائلاً أصفر. تراجعت خطوات قليلة إلى خارج الحمام، مذهول، مصعوق، ولا أعرف كيف أتصرف. ووجدت في وسط الغرفة ماكيت أوريجامي لبيت أبيض صغير، وعلى بابه قلب أحمر مرسوم وأربع

Twitter: @ketab_n

بصمات دموية بنية اللون على الورق: جن جنوني، وأحسست أن روحي تنسحب شيئًا فشيئًا من جسدي.

في الصباح التالي لجأت إلى "ياناوما". وهذا جزء من الحكاية أنت تعرفه بالفعل. أيمكنك الآن أن تتخيل الصورة كاملة؟ بعد أن شعرت "صوفيا" بخذلاني لها، وإحساسها أني قد خدعتها وتركتها لأجل غيرها، قررت أن تقتل "أديلا". تعقبتني خفية وأنا ذاهب إلى منزلها، وتبين لها ذلك الحضور لامرأتين في حياتي، وشعرت بتلك الغيرة الطفولية التي تشعر بها أي بنت تجاه صديقة أخيها الأكبر. قررت التخلص منهما، وأن تطبق عليهما الدرس الوحيد الذي تتقنه: النار التي تطهر أعمال السحر، والتي تحرر الملاك الحبيس في صدر الساحر، والتي تجعل الأمير الشجاع يبكي يأسًا طوال ليالٍ بلا نجوم؛ الاستعانة بالنار ضد الشر ولصالح الشر. نار التطهير والتغريب. نار البخل والعطاء. إنها الموقد الذي يُطبخ عليه الطعام بدون أن يصبح طريًا جدًا ولا نيئًا جدًا. قتلت "أديلا" طعنًا، ثم أشعلت النار في جسدها: إنك لا تشعل محرقة، ولكنك تصنع متاهة من نار، أليس كذلك؟ هل تتذكر هذه المقولة؟ "لقد وقع المكتوب، وسيقع مجددًا". إنها من مسرحية مثلناها عدة مرات، منذ سنوات، خلال لعبنا في المنزل. وبعد أسبوعين أقدمت "صوفيا" على قتل "جوليانا" الأخرى. ولم أجد وسيلة لأدفاع عن نفسي بها أمام أختي سوى أن أزعم أنني القاتل هذه المرة، حتى أتخلص من عبء ذلك الحرج، حتى ولو لم يكن في هذا خلاص من خطيئتي، وحتى مع علمي أنها لم تعد قادرة على فهم أي شيء. عثرت على خطيبتي مقتولة في فراشها. أشبعتها "صوفيا" طعنًا بالسكين؛ وحرّقت فخذيها بمئات من أعواد الثقاب، وجدتها منثورة حول

Twitter: @ketab_n

الجثة، وأشعلت النار في شعرها حتى اهترأ وجهها وضاعت ملامحه. هذا قبل أن تسكب فوقها دلو ماء حتى لا تتفحم الجثة، وحتى تترك لي فرصة التعرف على ملامحها والتأكد من أنها هي.

أصابتني لوثة وأنا أبحث عن ذاك البيت الأبيض الصغير فلا أجده. أخذت أجوب الشقة، ركنًا ركنًا، وغرفة تلو الغرفة، وفي ظل رف الخزانة بالمطبخ، مدسوس وسط المعلبات وقنينات الزيت والحليب، وجدتها، وجدت "صوفيا". كانت تحدق في بوجه ملاك بائس. لجأت لـ"ياناوما" مجددًا؛ ولكنه رفض مساعدتي هذه المرة، غير أنني أدركت لاحقًا أن هذا كان من المحال، بل ولا طائل من ورائه. فهناك من سيبحث عن "جوليانا" ويسأل عنها، وسرعان ما سيلحظ أصدقاؤها غيابها، وسرعان ما سوف تستدعيني الشرطة للسؤال. فهل سيكون بوسعي أن أخفي "صوفيا" وفي الوقت نفسه أدَّعي براءتي؟ تيقنت من استحالة هذا. والشرطة تحتاج إلى متهم، حتى لا تستمر في التحقيق والتحري والبحث وفي النهاية تضع يدها على السر الوحيد الذي كنت عازمًا على إبقائه طي الكتمان، سر أختي التي قُدِّر لها أن تموت وهي بعد حية، أختي، المجنونة. هكذا ادَّعيت إقدامي على الانتحار، وهكذا سلمت نفسي. على أني وقبل الإقدام على هذا حرصت على تأمين "صوفيا". ففي ذات الليلة توجهت إلى ذلك المستشفى وأنجزت أوراق إقامتها به. أقول لك إن أختي هنا، تحت هوية مستعارة، في العنبر الموازي (عنبر القتلة المجانين)، وقد سددت فاتورة إقامتها لسنوات قادمة. ولهذا السبب كنت مصرًا عندما حاولت أمي، التي لا تعرف أي شيء عن هذا الذي حكيته لك، إنقاذي من خلال علاقاتها القوية بالقضاة، على أن تكون إقامتي في هذا المكان ما إن تم النطق بالحكم. عندئذٍ سأكون مرتاحًا

Twitter: @ketab_n

لكوني قريبًا منها، قادرًا على حماية الكل منها. ولم يخطر ببالي أن أمي ستبالغ في استغلال نفوذها وأموالها: فقد كانت حريصة على ألا أبقى في نفس عنبر الخطرين، رغم أن هذا كان طلبي، وذلك ببساطة لأن "صوفيا" تقيم فيه. ولهذا السبب لم يتسنَّ لي أن أراها، رغم تيقني، كما بوسعك أن تتخيل، من أنها لا تزال في المستشفى؛ فأفعالها شاهد على وجودها. هي من قتلت "هق". لقد خنقتها بأن أجبرتها على ابتلاع صفحات الكتب التي تركتها أنا بنفسي لها في غرفتها صباح أن أحضرتها إلى هنا، وهو ذات اليوم الذي مثلتُ فيه محاولة الانتحار. ووقت أن دخلت إلى غرفة "هق"، يوم أن عثروا على جثتها، وجدت ذلك السلك الملتوي الذي استخدمته "صوفيا" في دس تلك الصفحات في داخل فمها إلى معدتها، لتفسح المجال لجسد المسكينة، في تلك اللحظات التي يؤدي فيها القصور الذاتي دوره، حتى يشرع في محاولة هضمها ليصنع من تلك الصفحات كرات غريبة حليبية القوام عثر عليها من قاموا بتشريح الجثة. دسست السلك في ملابسي. وكذلك وجدت فوق الفراش تلك الورقة التي بها تلك الآيات من "إصحاح زكريا". راودني إحساس بأنها قد تركت الورقة حتى يوجه الاتهام لي مجددًا. قرأتها، وكورتها بيدي، قبل أن أدسها في فم الجثة، ليبدو طرفها مع بقية أطراف الورق الآخر. هكذا شرعت في التخطيط لكل شيء، وتخلصت من الكتب، وبحثت عن مراسيل يناسبون خطتي، واتصلت بك: حتى تبادر بنفسك بتوجيه الاتهام إليَّ، ولكني قدرت أنك ستتوصل بنفسك إلى الحقيقة بعد ذلك وعقب فترة مناسبة من الزمن، قد تكون أسابيع، وأنت سجين تلك الليالي الرتيبة المتكررة. كنت أرغب في أن تقتنع بأني المسؤول عن كل هذا، عن كل شيء، ولكني كنت مصرًا في الوقت

Twitter: @ketab_n

نفسه على أن تكون براءتي واضحة كالشمس أمام ناظريك. كنت واثقًا فيك، ولكنني لم أتصور أنك سوف تصل إلى الحقيقة بهذه السرعة الكبيرة، وهذا خطأ آخر وقعت فيه. الآن أنت تعرف كل ما يمكنني إخبارك به. لم يعد لديَّ ما أخبرك به، عدا أمر واحد: أتوسل إليك، باسم صداقتنا، أن تحفظ هذا السر، الذي كلفني حياتي؛ كل ما أريده منك هو الكتمان، ولو ليوم آخر. وليلة أخرى.

أغلق "دانيال" الخط، وبقيت واضعًا السماعة على أذني لفترة طويلة، أستمع إلى الخواء على الجانب الآخر من الخط، ثم الصوت الرتيب لانقطاع الاتصال، والذي كان يغزو رأسي كنداء استغاثة. ترك المساء مكانه لليل على الزجاج المستطيل لنافذتي، وعلى عتمة المنازل والساحات على الناحية الأخرى من المنتزه. وهكذا جمدت مكاني، عيناي شاردتان، تائهتان في تلك الشبورة المنخفضة فوق الأشجار بالأسفل، وتحت تلك السماء التي خلت من النجوم ومن الطيور، والتي بخلت بأي التماعة في هذه الليلة، فوق قبة المدينة المعتمة.

فاتني كم مرَّ من ساعات، بينما الليل يمحو بظلامه وجود أي كائن في الجادة، ويبدد أسوار المتنزه ويشد محلها شريطًا من شبورة بلاتينية بللت مساحات الشعب فيخيل لك أنها بركة مياه واسعة، أسفل اللافتات المضيئة بروعتها المتلألئة، فهي الأثر الوحيد الباقي على وجود حياة على البعد. وبعيدًا بعيدًا، على مسافة عديد من العمارات، رأيت كرة برتقالية اللون تنير الظلام، تتقلب كأنها الميدوسا، وتدور في مكانها هناك صعودًا في الهواء لتصنع أشكالاً متعددة بسلاسة وسرعة شبح. بقيت تنمو، وتتحول إلى لهب

Twitter: @ketab_n

أحمر ذي أذرع وعمود دخان يتصاعد فوقها ليصنع دخانًا أشد سوادًا من الليل الحالك، مخترقًا تلك السحب التي لا لون لها.. إنه حريق.

نزلت السُلم مسرعًا واتجهت ملهوفًا نحو الردهة وركضت على الرصيف المحاذي للمنتزه والمتجه نحو شارع المستشفى، باتجاه الحريق. كنت أمشي بخطوات واسعة متسارعة، تعتمل بداخلي مشاعر جياشة، وكنت متوترًا أخشى أن يكون ما أتوقعه قد وقع بالفعل، وخفت إن أشهد ذلك بعيني. ولكن لم تكن هناك ضرورة لأن أقترب جدًا حتى يتأكد ظني: فالحريق كان في المستشفى الذي تحول إلى كرة من نار تلتهم بجنون ووحشية كل ما هو بداخلها. وامتزج عويل سيارات الإطفاء بصراخ المرضى الذين هرعوا إلى الشارع، فرحين بتلك الحرية التي حصلوا عليها صدفة، وهم يركضون كخيالات مآتة دبت فيها الحياة تحت وابل من الشظايا المتقدة وقطع الخشب التي تتطاير كسهام من نار، قبل أن تتحول إلى رماد، ليختلط كل هذا بالطين الناتج عن امتزاج الندى بالتراب بالدخان. كانوا يركضون في اضطراب واضح عبر الطُرقة، وسط صياحهم وعوائهم من فرط المفاجأة، فهم في طريقهم إلى اقتحام العالم أمامهم، وقد تخضب الشارع المفضي إليه بالأسود والأحمر. إنهم جيش من الجرغول[6] انتشر بآهاته في الليل، بكل روح الحقد ومرارة الحبس، وقد حررته النار، وكأنهم ركاب في رحلة لهيب هذا الحريق الأخير. إنهار السور الخارجي

---

[6] الجرغول تستخدم في الهندسة المعمارية. هي منحوتة من الحجر والمساعدة في نقل المياه من أسطح.

Twitter: @ketab_n

للمستشفى للداخل تحت وطأة السقف الذي تداعت جوانبه. ومن دون سبب منطقي، وجدتني أتجه نحو المستشفى، وأخطو فوق أطلال الجدران التي استقرت على الأرض، وتقدمت خطواتي، وقد انفصلت عن نفسي، من دون أن أقاوم تلك اليد العمياء بأصابعها الطويلة والتي تجذبني كالمنوّم إلى داخل المبنى: مشيت نحو ساحة الرمال والحصى عدة خطوات، ووجدت الشجرتين منهارتين كجسد تكسرت عظامه، وكأنما تحاولان الفكاك من اللهب؛ واستولت ألسنة النيران القاسية على الردهة الحلزونية، وسط الحجارة والحصى، ورزم الورق المقوى والوسائد والأثاث المحترق، التي بدت مثل أقفاص صدرية مشتعلة على هياكل من المعدن المتداعي. وفي وسط هذه الزوبعة، وتلك الدوامة عاتية من الرياح السوداء والجمر الصغير المتطاير والتي بدأت تقتحم رئتي، رأيت "دانيال"، جالسًا على الأرض وبين ذراعيه، ممددة في أحضانه، وقبل لحظة من وقوع عارضة خشبية محترقة على رأسي، رأيت المرأة، أو هذا ما خيل إليَّ: "لا تصدق أي شيء". ذلك الوجه الشبيه بسمكة لا ملامح لها، وذراعاها المكسورتان، وفخذاها المتورمتان، وعينها المنغلقة أسفل كرة لحم هائلة منسدلة فوقها، والعين الأخرى المفتوحة، تشاهد، مستمتعة بالمشهد؛ ذلك المشهد الأخير من حلمها، من مسرحية الألعاب النارية المخبولة. كانت "صوفيا". قررت أن تموت مع أخيها، وسط ذلك الحريق الذي لا نهاية له، والذي انطلقت شرارته الأولى على يد طفلة تلعب.

وبقيت تلعب.

منذ دهر كامل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يقرأ "جامع الكتب":

اندلعت الحرب في إحدى الدول، وانقضى عقد ونصف من الموت والقتل، ومات ستون ألف شخص، ولدى كل إنسان بقي على قيد الحياة قصة رعب يرويها. وفقد المجرمون قبل الناجين عقولهم واحدًا تلو الآخر، وسرعان ما تحولت ميادين الشوارع الرئيسية إلى مخيمات، حيث تعلَّم الجميع، وسط مشاعر ولَّدها الخراب، ووسط الإحساس بليل طويل مقيم لا ينتهي، أن يتسامح وأن يتعايش مع من حوله. وينتظم حشد غفير من المهاجرين في فوضى الأرصفة والشوارع المكتظة، وبنظام مختلف، ليؤسس دولة في الشوارع غير المأهولة، وبالتالي اتحد المجرمون والناجون، واتفقوا على قانون جديد: ألا يتحدث أحد عن الماضي أبدًا. وبدا للبعض أنه من المستحيل عليهم استيعاب هذا القانون غير المكتوب. وتجمع هؤلاء فردًا فردًا، وقرر الآخرون تخصيص مستشفى لهؤلاء، مكون من عنبرين متطابقين ومنعزلين عن بعضهما البعض، وراح إلى المستشفى طفلان قالا إنهما شاهدا والدهما يتأرجح أمام ناظريهما في الهواء بعدما أعدموه من دون محاكمة؛ وجاء عجوز أقسم أنه هو من صمم ذات ليلة، منذ أمد بعيد، غرفة التعذيب وآلة الاغتصاب؛ وحضر صبي أسنانه خضراء ولسانه أخضر، يقول إن أباه قد مات قبل أن يعود إلى الحياة ثانيةً بثلاثين عنقًا، وستين عينًا، وستمائة إصبع؛ وكذلك شاب اسمه "إسحق"، أو هو "إسماعيل"، قتل "إبراهيم" حتى يتعلَّم الدرس، ولكنه لم يعرف أبدًا تفسيرًا أو سببًا لما أقدم عليه؛ وها هو عجوز

Twitter: @ketab_n

يحاول أبناؤه الستة أن يخبروه شعرة بشعرة، وسنًّا بسن، وذيلاً بذيل، من دون أن يخبروه باسم الخائن؛ وآخر من بقي من بلدة كان يعيش بها خمسمائة نسمة، أقدم أربعون منهم، وهو من ضمنهم، على قتل صديقين وثمانية صحفيين، من دون سبب سوى الخوف والرعب، قبل أن يتساقطوا هم بدورهم واحدًا تلو الآخر، من دون أن يعرفوا السبب أو الكيفية؛ وها هي فتاة صغيرة لا تذكر اسمها، والبطانية زاهية الألوان تغطي كتفيها، وكأنما تحمل على كتفيها طفلاً خفيًا لا يراه أحد، ولا تنطق سوى بكلمة واحدة لا ثاني لها: "هق"؛ و"جامع الكتب" الذي أفقده العشق عقله وسلبته الوحدة رشده، فجن جنونه، فأراد أن يعيد للعالم نظامه، بالطريقة التي تعلمها من الكتب، وعزم هذا اليوم على أن يجمع الكل من حوله، في دائرة تألفت من أطياف نفوس ومن أرواح تعاني، في ظل شجرة لا وجود له.

حتى يحكي لهم حكايته.

حتى يصير واحدًا منهم.

وحتى يتحقق له الأمل.

في الهروب من نفسه.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

جوستابو فابيرون باترياو Gustavo Faverón Patriau: روائي، وناقد أدبي، وصحفي، وأستاذ جامعي. صدرت له هذه الرواية The Antiquarian "جامع الكتب" عن دار جروف/ أتلانتيك. وله كتاب بعنوان Against Allegory في نظرية الأدب (2011). وقام بتحرير كتاب احتوى على مجموعة من المقالات بعنوان All Blood: Tales of Political Violence in Peru 2006)، وشارك كاتب بيروفي آخر، هو إدموندو باز سولدان Edmundo Paz Soldan، إصدار كتاب احتوى على مجموعة من المقالات النقدية 2008 بعنوان (Wild Bolaño). وقد صدرت له أيضًا دراسة تاريخية عن فترة الانتفاضات الشعبية في أمريكا اللاتينية في القرن الثامن عشر بعنوان Rebels: (Indigenous Uprisings in Latin America in the Eighteenth century 2006).

سبق له العمل أستاذًا بجامعة ستانفورد وكلية ميدلبري، وهو الآن أستاذ مساعد في اللغات الرومانتيكية والدراسات الأمريكية اللاتينية بكلية بودوين، بولاية ماين الأمريكية.

Twitter: @ketab_n

#كتب_مختلفة #بيرو

اختارتها جريدة "لوس أنجلوس تايمز" لقائمة أفضل كتاب للصيف

اختارها موقع "آمازون" كأفضل كتاب للشهر

"مرت ثلاث سنوات على تلك الليلة التي قتل فيها "دانيال" "جوليانا". وبدا صوته القادم عبر الهاتف كأنه صوت شخص آخر غيره.. وكأن شيئًا لم يكن، اتصل بي ليدعوني إلى الغداء، كما لو أن الغداء معه لا يزال يعني الذهاب إلى مطعم تم اختياره بدون اهتمام، أو إلى غرفة المعيشة في منزل أبويه. [...] اعتاد "دانيال" أن يقضي في حجرته يومه كاملاً، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، يحاول فك شفرة ملاحظات هامشية دونت في مجلدات لم يعد أحد يقرؤها، ويتناول إفطاره وغداءه مرتديًا بيجامته، ممددًا ساقيه فوق المكتب، وبيسراه عدسة مكبرة، وعلى وجهه علامات اندهاش كبيرة. آنذاك، لم يكن من اللازم دخول ذاك المكان الآخر.. ذاك المكان المرعب، حيث كانوا يحتجزونه، أو حيث كان بالأحرى يحتجز نفسه هربًا من سجن أكبر".

جوستابو فابيرون باتريياو

وُلد في ليما ببيرو في الواحد والثلاثين من ديسمبر عام 1966، وهو كاتب وصحفي وناقد أدبي. حاز على شهرة واسعة بسبب مدونة "بلوج" أنشأها لنقد الأحوال الإقتصادية والثقافية لبلاده، وكانت مدونته هذه ذات تأثير واسع في أمريكا اللاتينية. تتناول أعمال "فابيرون" التاريخ السياسي والفكري لأمريكا اللاتينية، ونظريات القومية، وتشكيل أنماط مختلفة من فكر المواطنة والعنف السياسي وكيف يتم التعبير عنه في الأدب والفن. كما عمل في العديد من المجلات، وهو الآن محرر جريدة "المعارضة" الأدبية التي تُناقش نظريات الأدب والنقد. درس اللغويات والأدب بجامعة "بونتيفيكال كاثوليك" في بيرو، وحصل على درجة الماجيستير والدكتوراة من جامعة "كورنيل" الأمريكية. وفي عام 2008، قام بتدريس الرواية اللاتينية وأسلوب قصص ومقالات "بورخيس" في جامعة "ستانفورد" بقسم اللغتين الإسبانية والبرتغالية، ويعمل حالياً أستاذاً مساعداً بكلية "بدوين" بولاية "مين" في الولايات المتحدة الأمريكية.

تصميم الغلاف: آلاء هيكل

ISBN 978-977-319-252-5

9 789773 192525 >

العربي للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة

ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566

www.alarabipublishing.com.eg